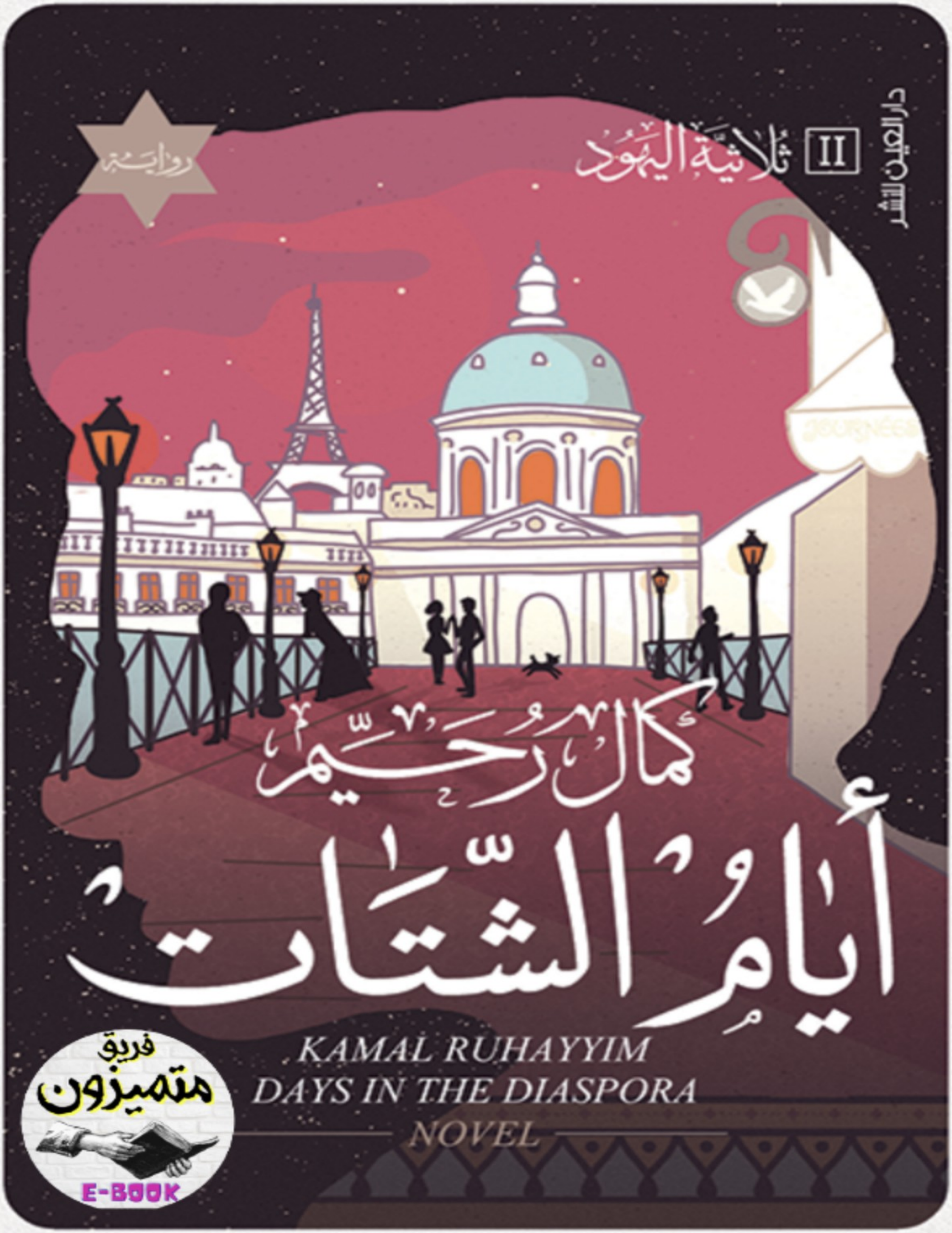
رواية
II ثلاثية اليهود
دار العين للنشر
كمال رحيم
أيام الشتات
KAMAL RUHAYYIM
DAYS IN THE DIASPORA
NOVEL
فريق
متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

أيام الشتات

ثلاثية اليهود (٢)

كمال رحيم

عن الرواية..

يقول (جلال) عن جده "كان جدي مثلًا حيًا لليهودي الصالح الذي كفل مسلمًا مثلي ويسر له سبل الحياة."

هذا هو جوهر رواية (أيام الشتات)، أبرزت حالة التسامح الديني انطلاقًا من تكامل الأديان السماوية، وقد تجلى هذا الملمح الدلالي عبر الحوار والمواقف وتنوع المكان وجدل الشخصيات، مما أعطى للرواية حيوية موصولة وتكاملًا في الفكر والابداع.

عاش جلال مع أمه وجده اليهوديين في باريس، حيث كان الجد رمزًا للمصري المنتمي والمحب لبلده والمتسامح مع الأديان، وقد خاض جلال كل تجاربه في الحياة في ظل هذا الجد، كما رصدت الرواية ما حدث له في أرض الشتات من مواقف وأحداث، فضلًا عن حنين اليهود إلى مصر.

وقد تحقق الصدق الفني عبر الملمح والسلوك واللغة، والوصف المشهدي الذي يكاد يقترب من اللوحة الفنية بظلالها وألوانها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إهداءٌ خاص

إلى أبناء الشتات الحقيقيين..

إخوتنا في فلسطين..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

اختلافُ النِّهار والليل يُنسي

اذكرا لي الصبّا وأيام أنسي

وطني لو شُغِلْتُ بالخلد عنه

نازعتني إليه في الخلد نفسي

أحمد شوقي

1

لم أستقل الطائرة مع المسافرين..

سمعتهم ينادون على طائرة مصر للطيران المغادرة إلى القاهرة، ويحثون الركاب على القدوم في الحال إلى بوابة السفر رقم عشرين.

كنت أترقب هذا النداء مثلي مثل الناس الذين يملؤون المقاعد من حولي، نهضوا فنهضت، هرولوا صوب البوابة التي ينادون عليها فهرولت، غير أني ما كدت أصل وألمح رجال المطار وهم يدققون في أوراق المسافرين المارين أمامهم حتى قفلت راجعًا.

هذا الذي حدث!

حدث في دقيقة، في ثانية، في أكثر أو أقل، لا أدري!

فقدت رشدي، أصابني مس، لا أدري أيضًا..

واكتشفوا غيابي بالطبع..

نادوا عليَّ مرة واثنتين وعشرًا، وأنا ملقى على مقعد بأقصى صالة الانتظار، لا أتحرك أو أعرف ما الذي أفعله!

اسمي يدوي من سماعات المطار ورعشة تطال يدي، كنت أراها وأرى جسدي كله متوترًا وأصابعي تتململ على حقيبة اليد النائمة على ركبتي. الحقيبة الجلدية التي تحوي جواز السفر، حافظة النقود، وبطاقة الصعود المدون عليها رقم المقعد الذي سأجلس عليه بالطائرة.

قالت لي الفتاة الجالسة على الكاونتر قبل قليل: مدخن؟

قلت: لا.

قالت: إذًا، أي الأماكن تختار من بين هذه الصفوف؟

قلت: هنا، بجوار النافذة كي أرى القاهرة من أعلى عند الهبوط.

قالت: تصل سالمًا بإذن الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نادوا عليَّ من جديد وبضجر هذه المرة وبما يشبه التهديد، قالوا: إنه النداء الأخير..

ولم أتحرك أيضًا، كنت تائهًا فارغًا وكأني لا أفهم أني المقصود بالنداء، أو ربما أفهم غير أنه لم يعد لي على قدميَّ أي سلطان..

لم تطاوعني نفسي كي أنهض ثانية وألحق بالمسافرين، أو حسمت لي أمري وتركتني أعود من حيث أتيت، أقعدتني مشوشًا وعقلي مسامُّه مصمتة لا يرجى منها نفع أو ذرة من تفكير تحسب لي الأمور!

برهة وأخرجوا متاعي من جوف الطائرة، وأقلعت هي محلقة في الفضاء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أسبوع بأكمله وأنا أعد العدة لهذا اليوم..

أتجهز في الخفاء! فلا أمي أو جدي كانا يعلمان بنواياي..

خفت أن أبوح وأصرح فيفسدا عزمي، أعرف ما الذي سوف تفعله أمي، كانت ستلفُّ رأسها وتمكث في الفراش معلنة الحداد! ودمعها الذي أحسب له ألف حساب سوف يغلبني على أمري، حتى جدي هو الآخر الرجل الكبير الذي عقله يزن بلدًا ويعرف أن مصلحتي في عودتي، كانت عيناه سوف تحثانني على ألا أتركه وأعود..

استدنت ثمن التذكرة من الشيخ منجي العياري الرجل التونسي الذي يقطن مع جدي بنفس العمارة بحي (بارباس) شمال باريس، جدي بالدور الخامس وهو بالدور الأول وله أيضًا محل للجزارة بعقار مجاور.

الرجل يحبني بقدر ما يمقت أهل أمي، وكانت الدهشة تحلق به كلما أحس بترددي بين العودة والبقاء.

يقول متعجبًا: كيف يعيش شاب مسلم، يصلي ويصوم ويعرف فروض الله مع أسرة كلها يهود! يا سبحان الله! الأم يهودية، والجدة والجد والخالة والخال، ما هذا يا جلال؟ ألا تخاف على نفسك من الفتنة، قد يفتنونك في دينك يا ولدي!

أقول له: هم من ربوني وكفلوني يا شيخ منجي..

يقول: ولو..

أعاود الكلام قائلًا: أبي مات شهيدًا في حرب السويس وأنا مجرد نطفة في رحم أمي يا سيدنا الشيخ، ولا أعرف في الدنيا أحدًا غيرهم.

فيصر ويقول: ولو.. ولو..

كان الرجل متمسكًا بأهداب الدين: لحية، ومسبحة، وعدة أوراد يحفظها عن ظهر قلب، وجلباب أبيض للصلاة، ويظن أن الحذر وأخذ الاحتياط من اليهود واجب شرعي وفرض من الفروض، ومبدؤه في الحياة أنه لا سلم ولا مهادنة أبدًا مع هؤلاء الظالمين، والحرب سجال بيننا وبينهم إلى يوم الدين..

ولم يسلم جدي ولا جدتي منه، ولا هو سلم من جدتي بالذات، فجدي كان طيبًا متسامحًا، أما هي - والعياذ بالله - كانت تهوي العراك ولا تبارى أبدًا في طول اللسان والضرب بالرأس أو الركل بالأقدام، فكم ذقت الويل منها أيام أن كنا بمصر، ولم تكن علاقتنا يومًا علاقة جدة بحفيدها الصغير، بل قتالًا بين هرة عجوز وفأر يتيم! ولست أنا وحدي الذي اكتوى بنارها، بل جيرانها القدامى أيضًا، حتى إنهم ومن شدة ضجرهم منها أسموها (أم منقار).

المهم.. أن جدتي نحت جدي جانبًا، ووضعت يديها في خاصرتها متحدية الشيخ منجي وزوجته الست زهيرة بوصاف، والحال ما بين استفزازات وشتائم وعراك تستخدم فيه الأيدي وتنجم عنه إصابات وتلفيات، حتى وصل الأمر إلى مخافر الشرطة بباريس وصدرت في حق الطرفين عدة أحكام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جدي وجدتي لم يكونا يومًا من أهل باريس أو حتى سمعا بها إلا في نشرات الأخبار، فهما مصريان حتى النخاع وعاشا أغلب حياتهما بحي الظاهر بعمارة في شارع عباس، غير أنهما تركا مصر مثلهما مثل اليهود الذين لم يعد يرق لهم الحال وبدءوا يتسربون.

لم يتركاها مع موجة الهجرة الأولى بعد حرب فلسطين، ولا مع أول الهجرة الثانية في أعقاب حرب السويس، إنما في نهاية الستينيات.

رحلا هما وخالي شمعون وخالتي بيلًا وابنتها راشيل، وبقينا أنا وأمي وحدنا في شقة جدي ليس معنا إلا الله.

لم تتخلف أمي لرغبة منها في البقاء، إنما مضطرة لأنه لم يكن باستطاعتي السفر. كنت صغيرًا وقتها، لا أزال بالمدرسة الابتدائية، ويلزم أن يأذن لي بالسفر أحدُ من أهل أبي، أحدُ من العصب كما يقول القانون. كان عمي إبراهيم هو هذا العصب، ترجوه أمي وتبعث له المراسيل في قريته (المنصورية)[1] ، وهو يقول: لا، وألف لا، يقولها ليس خوفًا عليَّ وإنما نكاية فيها! وأنا كالكرة تتقاذفها أرجل الفريقين.

بقيت حتى كبرت وحصلت على الثانوية العامة وقُبلت أوراقي بكلية الطب، وتفتحت الدنيا أمام عينيَّ عندما هفا قلبي لنادية ابنة الجيران.

وطالما جلسنا أنا وهي نحلم بقابل الأيام..

أين يا ترى سوف تكون عيادتي عندما أصبح طبيبًا؟ والمسكن الذي يضمنا بعد الزواج؟ أقول: في مدينة نصر، وتقول هي: في المهندسين، ثم نعود ونقول: لماذا لا نبقى في الظاهر، هناك عمارة بالقرب من مدرسة (الفرير) لا تزال تحت الإنشاء، أصحابها كسالى ويبنون الدور في عام، فقد نلحق بها ونحصل على شقتين واحدة للعيادة والثانية للمقام..

ولم تقبل أمي بهذا..

كانت تود الرحيل إلى أهلها بباريس، في أقرب وقت وبأي طريق.

ليس وحدها، بل وكانت تخطط لأن تأخذني معها لا لأقضي أشهر الصيف ثم أعود كما كانت تقول، بل لأمكث معها هناك ولا أعود.

وأنا أماطل..

غير أن الريح قد تأتي أحيانًا بما لا تشتهيه السفن، فقد عرفت أم نادية بالذي يحدث في الخفاء، واستكثرت علينا ذلك..

استكثرت عليَّ أنا بالذات!

فكيف لمخلوق مثلي أمه يهودية أن يتزوج من ابنتها! ابنتها المسلمة أمًا وأبًا، جدة وجدًا، تتزوج ولدًا أخواله يهود! ولكي تستأصل هذا الأمر من الجذور تركت لنا العمارة كلها، أخذت نادية في يدها وذهبت دون أن تطلع أحدًا بمستقرها الجديد..

وكذلك أمي، أخذتني هي الأخرى إلى باريس..

ومضت إجازة صيف عام 1974 والشهر يجر شهرًا، وأنا حائر.. أأبقى مع أمي أم أعود؟ حتى جاء يوم غلبني فيه الحنين لبلدي، ونادية، ومقعد لي بطب الدمرداش في الانتظار.

شكوت همي للشيخ منجي فلم يعطني فرصة، هب واقفًا وهو يقول: وهل هذا أمر فيه حيرة وتفكير؟ بلدك أولى بك، وترك محل الجزارة وشدني من يدي لأركب معه سيارته الستروين، متجهًا بي إلى ميدان الأوبرا حيث مقر شركة مصر للطيران، وأنا أقول له: صبرًا.. صبرًا.. ليس الآن! وهو لا يجيب، ولعله كان سعيدًا بداخله ويظن أنه بذلك حقق نصرًا جديدًا على هؤلاء اليهود، ولما عرف أني لا أملك ثمن التذكرة، دفعه بقلب منشرح، قلت له: سوف أطلع جدي على هذا الدين ليسدده عني.

كنا لا نزال نجلس على مقعدينا بشركة الطيران، فرجع بمنكبيه إلى الوراء وهو يقول متأففًا:

- ماذا؟ أنا أسترد نقودًا من هذا البهلول (العبيط) حاشا لله!

ثم أردف حانيًا:

- يا جلال يا وليدي راني (كأني) في مقام بوك، وأنا مستعد أساعدك باللي تحب حتى تتخلص من هؤلاء الأوباش الملاعين وتعود لبلادك وناسك.

وضغط على يدي قائلًا: إنه لا يعتبر هذا المبلغ دينًا عليَّ، وإنما شيئًا من الأشياء التي تجري بين الآباء والأبناء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لمحت أمتعتي خارجة من أحد الأبواب ويتجهون بها صوب مخزن الأمانات، قمت وتسلمتها ثم عدت إلى مقعدي ثانية وجلست ساهمًا..

بالأمس قال لي الشيخ منجي: قم من نومك مبكرًا وصلِّ الفجر فالصلاة تُذهب الفكر، ثم ارتدِ ملابسك وحذارِ أن تحدث صوتًا، امشِ على أطراف أصابعك وخذ حقائبك وتسلل دون أن يشعروا بك! وسوف تجدني بإذن الله منتظرًا في السيارة لأقلك إلى المطار.

قلت له: كيف أفعل هذا يا سيدنا الشيخ؟ إنها أمي! وجدي! هل أتركهما بدون وداع، أتريدني أن أتسلل من البيت كما اللصوص..

فقال: أخاف أن يغلبوك على أمرك يا ولدي..

كانوا نيامًا فأيقظتهم، وجدوني بثياب الخروج وبيدي تذكرة السفر، ففرك جدي عينيه مدهوشًا ولم تتحمل أمي رؤيتي على هذا الحال وكادت أن تهوي منا على الأرض، لولا أن أجلسناها على حافة السرير، وهي تضرب على جبينها بكف يدها كأنما أنا ذاهب للحرب أو هو فراق ليس بعده لقاء، وجدتي تتثاءب وتلملم شعرها المنكوش والأمر على هواها، ولو كانت تقدر لأطلقت زغرودة وتركتنا لتنام.

جدي يقوم ويقعد على كرسيه، وليس في فمه إلا عبارة: لا حول ولا قوة إلا بالله!.

وأمي تكفكف دمعها وتقول:

- يهون عليك تسيب أمك! هتعرف تعيش لوحدك إزاى هناك، اللي ما ليك حد، أم حسن بقى هيَّه اللي هتأكلك وتشربك وترعاك!

كانت أمي صادقة في بعض ما تقول، فليس لي أحد من أهل أمي بمصر، وأهل أبي الذين في المنصورية لا أعرف عنهم ولا يعرفون عني شيئًا، حتى الأفدنة الثلاثة أو الخمسة أو السبعة -فلا أدرى عددها بالضبط- التي ورثتها عن جدي وضعوا أيديهم عليها دون أن يحسبوا لي أي حساب! أما أم حسن جارتنا القديمة في عمارة الظاهر، فهي التي أرضعتني وأنا صغير وكانت بمثابة أُمًّ ثانية لي، ولو رجعت ما كانت تتخلى عني أبدًا.

ويعاود جدي الكلام، يقلب كفيه ويقول:

- بس يا ابني كان واجب عليك برضه...

ولا يكمل، يسكت.

وحاولت أمي إثنائي عن عزمي بما يشبه القوة، تعلقت بأطراف ملابسي تريد خلعها عنوة وأنا أتملص منها وأزداد إصرارًا، ولما ضجرت ولم أعد قادرًا على تحمل تشبثها بي فتحت باب الشقة قاطعًا الطريق على محاولاتها، وتدخل جدي وأوقفها وارتدوا ملابسهم في ثوانٍ وأسرعوا خلفي مهرولين.

وأتينا إلى مطار (أورلي)..

لم أعانق أحدًا منهم قبل الدخول خوفًا من أن تخور أمي ثانية وتفعل ما فعلته بالبيت، ولجت مسرعًا من بوابة المطار وكلما التفت ورائي كنت أراهم من وراء الحاجز الزجاجي الذي يفصل بيننا، جدي يشب ويلوح بيده حتى تواريت وأمي كقطعة الركام.

من يراني هذا الصباح وأنا مصر على الرحيل، لا يقول أبدًا إني هذه الخرقة الملقاة الآن على مقعد بأحد أركان المطار..

تبدلت من حال إلى حال في غمضة عين، حتى إني تشككت في نفسي وأحسست بأن عزمي على الرجوع إلى بلدي لم يكن أكيدًا كما ظننت..

وكأن جزءًا مني ومنذ البداية كان رافضًا الرحيل..

أكلم نفسي أو لا أكلمها، أرثى لحالي أو لا أرثي، ما عاد يجدي الكلام..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

2

سكنت حركة أمي تمامًا عندما رأتني واقفًا بالباب، بلحمي وشحمي وقميصي وبنطالي.

لا همسة، أو اهتزازة، أو أي شيء ينِدُّ عنها..

ووقفت حيالها صامتًا أنا الآخر..

لا أعرف كم من الوقت مضى علينا ونحن على هذا الحال، ربما دقيقة.. لكنها دقيقة لها قوام الساعة، طولها وعرضها ومقدارها.

ظلت ساكنة لا تتحرك، وأنا أيضًا لا أتحرك، وعيناها تومضان ببريق يتأملني بفرحة يملؤها اللوم والعتاب، ثم دبت فيها الحياة مرة واحدة وارتمت بجسدها كله عليَّ وهي تلكمني في صدري:

- آه يا وحش وقعت قلبي! عقلي كان هيطير ومش مصدقة إنك واخد في وشك ورايح.

والتفتت إلى الوراء تنادي على جدي:

- بابا.. بابا.. تعالى الحق! تعالى تعالى شوف مين اللي بيخبط علينا!

ثم رنت ببصرها نحو الحقيبة الجاثمة بجوار قدمي، وهي تعاود الكلام بصوت خافت:

- دا انت غبت عن عيني من هنا وأنا روحي راحت مني، البركة بقى في اللي وقف جنبي وساعدني.

وبصوت أخفت، وكأنها تتمتم وتكلم شخصًا آخر غيري:

- البركة فيك يا أبو حصيرة! البركة فيك يا أبو سر باتع ياللي طول عمرك بتقف جنب الغلابة والمساكين واللي حظهم قليّل زيي.

وضمتني إليها ثانية وهي تعيد إلى الوراء خصلة الشعر المتدلية على جبيني، ثم وكأنها تصفف لي شعري، تميل به هنا وهناك مثلما كانت تفعل معي وأنا صغير، وأنا أتحسس الغطاء الذي تلف به شعرها.. الإيشارب الأسود الذي طالما رأيتها تضعه على رأسها، عندما تعبس الدنيا في وجهها وتأخذ منها ولا تعطي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لفنا الصمت مرة أخرى وأنا أتأملها غير منتبه للسعال الذي يأتي متقطعًا من الحمام، ولا بقط بعين واحدة من القطط التي تتسكع أمام جزارة الشيخ منجي، يبدو أنه كان يتبعني على السلم وغافلنا المجرم ودخل متسللًا من باب الشقة المفتوح.

وبدت أمي وكأنها في واد آخر..

لا تصدق أني رجعت، أن الدنيا أنصفتها وتخلت عن عنادها..

وطفقت تتطلع في تقاطيع وجهي، ويبدو عليها وكأنها تتهيأ للكلام غير أنها لا تفعل، تتطلع ساهمة ودون أن تفطن حتى إلى أن أصابعها تعبث بلا سبب في أحد أزرار القميص الذي أرتديه، تخرجه من العروة التي يسكن بها وتعيده إلى حيث كان.

أتأملها بحنو وهي تكرر الأمر ذاته، وأحسب مرة ثانية أنها سوف تتكلم ولا تفعل أيضًا.. وتطفو بسمة شاحبة على شفتيها، ما تلبث أن تخبو لينفرج ثغرها عن ابتسامة أكبر، وأرى وجنتيها بعدها وهما تعودان إلى حالهما الأول، ساكنتين إلا من تجهم خفيف يعلوهما ويكسو الوجه كله، وشفتيها مزمومتين وكأن عينيها غائمتان وعلى وشك أن تطفرا بالدموع!

كانت فرحتها مشوبة باضطراب، بارتباك، كأنما عصفورًا طار من يدها ثم عاد وهوى في كفها، لا تصدق أنه عاد أو تخلصت بعد من الصدمة عندما أفلت منها وطار.

غطت شعرها بالإيشارب واستعدت للفراق، مثلما فعلت جدتي إيڤون لما رحل خالي إيزاك من مصر وساح في بلاد الله حتى استقر به المقام الآن في إسرائيل! لم تخلع جدتي الإيشارب إلا عندما جاءها أول خطاب منه بعد ما يزيد عن عام، أما أمي فكان الأمر معها هينًا.. مجرد نصف نهار.

كان قلبها يخوفها من الفراق..

يقول لها: إنه آتٍ لا محالة.

ريحه كانت تهب عليها عندما تجدني صامتًا وعيناي شاردتان، أو كلما بدر مني كلمة تفهم منها أني لازلت أهفو إلى ما تظن أنه فات! يعضها قلبها ساعتها وتنتابها الحيرة، وتدفع براشيل ابنة خالتي في طريقي مرة، وتسوق عليَّ جدي مرة ثانية، وتتوسل بعينيها طول الوقت. وها أنا قد رجعت بعد عدة ساعات وقبل حتى أن تغيب شمس النهار، فلم تصدق، لم تستوعب أن الدنيا جبرت خاطرها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أنا الآخر كنت في دنيا ثانية..

كان قلبي فارغًا..

لم يعد فيه شيء.. أي شيء.. أو أصبح ينبض كما تنبض قلوب الناس.. صار يدق كالآلات، كساعة الحائط القديمة التي اشترتها جدتي بعدة فرنكات، أو المنبه ذي عقرب الثواني المكسور الذي يضعه جدي بجوار فراشه ليعرف الليل من النهار، مجرد آلة تؤدي وظائفها التي يفهمها الأطباء، وليست تلك التي يعرفها الناس عن القلوب.

تعطل..

أصابه العطب في المطار بعد أن عرف أنه لا سفر ولا طائرة، وأن الأمل في لقاء نادية ضاع.

مجرد الأمل ضاع..

كنت أطمئن نفسي وأقول إني سوف أعود، حتمًا سوف أعود وأبحث عنها وأجدها ولو أخفوها في آخر الدنيا، وينساب عبيرها في أنفي من جديد وملمسها الذي لازلت أشعر بطراوته إلى الحين..

غير أني تخاذلت..

والغريب أنه أصابتني رجفة عندما قالوا إن الطائرة أقلعت، أحسست لحظتها بأنها هي التي تركتني ولست أنا الذي تخليت عنها.

لو لم يكن قائد الطائرة هذا نافد الصبر لما كنت هنا الآن، لعلِّي كنت أنهيت إجراءات الوصول وعبرت ميدان العباسية، وتكاد تنحرف بى سيارة الأجرة في هذه اللحظة إلى بيتنا القديم. كنت بحاجة إلى دفعة، مجرد دفعة، لمن يأخذ بيدي إلى حيث تقف الطائرة، كنت سأستجيب، سأسلم له أمري كله لو كلف خاطره وفعل.. كنت على الحافة ولم أكن بحاجة سوى إلى دفعة.. لكلمة.. لقشة.. تعجلوا وتركوا الطائرة تحلق بدوني..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دفعت أمي خفيفًا كي تفسح لي الطريق..

استجابت وتقدمتني إلى الداخل، وسمعتها تعاود التمتمة وتناجي أبا حصيرة من جديد.

- الحمد لله.. الحمد لله.. لما طلبتك واترجيتك متأخرتش عليَّه، دا الرب ياما هيكرمك في رقدتك زى مارجعتهولي.

أبو حصيرة هذا ولي من أولياء الله في عقيدة أهل أمي، وعندما يستنجد به أحد منهم أعرف أنه في كرب عظيم.

وكانت للرجل صورة قديمة في حجم الكف مثبتة بأربعة دبابيس في الجدار الداخلي لضلفة تخص جدي بالدولاب الذي كان بغرفة نومه بشقة حي الظاهر، وإلى جوارها في أحد الأرفف نسخة من التوراه، وكتب عن الدين اليهودي وأنبياء بني إسرائيل، وكتيبات صغيرة بعضها مطبوع في مصر وبعضها الآخر في الشام ومكتوبة بلغة غريبة عرفت فيما بعد أنها اللغة العبرية، وأخبار ومقالات مقصوصة من الصحف اليهودية.. الكليم، وإسرائيل، والاتحاد، والصراحة، الصحف التي كان يصدرها يهود مصر في الثلاثينيات والأربعينيات.

كنت لا أحفل من كل هذا إلا بأبي حصيرة..

يبدو لي وجهه في الصورة ناعسًا مسالمًا، ولحيته بيضاء مدببة من أسفل ورأسه ملفوفًا بعصابة سوداء يعلوها شال شديد البياض. وعندما يطلب منى جدي أن آتي له بشيء من الدولاب، كنت أقول في سري: بسم الله الرحمن الرحيم، ولا أفتح باب الضلفة كاملًا، أحتاط.. أجعله مواربًا، وأتلصص على صورته بفضول ممزوج بشيء من المهابة والإجلال، ولا أجعل أصابعي تلمس صورته أبدًا، أخاف أن أفعل فيمد كف يده هو الآخر ويقبض عليَّ. ولم يكن قلبي يكف عن النبض وبمعدل أعلى من المعتاد، وكثيرًا ما كان يغلبني الخوف فأدفع باب الضلفة وأسرع إلى جدي خالي الوفاض، فيسألني عن النظارة أو ربما الساعة أو الشيء الذي أرسلني من أجله..

أتلعثم وأقول: ماذا؟ نسيت..

كان هذا أول عهدي بأبي حصيرة وشيئًا فشيئًا بدأت آنس له، غير أني لم أدع جانب الحذر أبدًا، أو جرؤت على فتح باب الضلفة على مصراعيه. وكنت في بعض المرات، خاصة عندما أدخل عليه في المساء، أشعر بأنه على وشك الكلام.. وكأن أصواتًا تتغشاني، مجرد أصوات وليس كلامًا يقال. تسري في أذني خفيضة رقيقة وبدأب كما لو كانت دوي نحل، وكان لها وقع، شيء أشبه بالنغم، ورغم أني لم أكن أعرف من أين أتلقاه، إلا أن شيئًا كان يقول لقلبي إنه آت من هذا الرجل الذي في الصورة. ويجيئني أيضًا وفي نفس اللحظات صوت آخر له مذاق طالما سحرني وأنا في سن أقل من السن التي كنت عليها حينذاك، صوت الشيخ الدمنهوري وهو يتلو القرآن، وتنتابني رهبة ويغلبني على أمري شيء لا أراه، وكأنما أتعلق به وهو يجوب بي في عالم آخر

غير العالم الذي تقف قدماي على أرضه الآن، وتختلط عليَّ الأشياء فأظل واجمًا برهة ليست بالقصيرة وواقعًا في التباس..

كنت صغيرًا وقتها، لكن ليس إلى الحد الذي أحسب فيه أن أبا حصيرة سوف يخرج من بين شفتيه شيئًا كالترتيل، كنت أعرف أن هذا لن يحدث أبدًا، ومع ذلك لم يكن يفارقني هذا الخاطر وتظل روحي أسيرة لشيء ذي نغم سماوي وتلاوة لآيات من القرآن الكريم. وعندما أفرغ من مهمتي - هذا إذا تذكرتها - كنت أغلق الضلفة عليه برفق على اعتبار أن هذا من باب الأدب والاحترام، وإذا جاء ذكره في أي حديث أتكلم عنه بالخير مثلما يفعل أهل أمي.

وطالما حسبت أنه النبي هارون الذي خرج إلى التيه، بصحبة أخيه سيدنا موسى ومعهما شعب إسرائيل.

كانت هذه هي الحكاية التي لا تمل أمي أبدًا من روايتها لي..

تحكي فيجيء سيدنا موسى في خيالي قويًا فتيًا صاحب بأس وعزيمة، وعندما يرد اسم النبي هارون على لسانها أتذكر وجه أبي حصيرة على الفور وأخالهما شخصًا واحدًا. جدي هو الذي أفهمني أنه ليس بهارون، ولا هو نبي من أنبياء بني إسرائيل، إنما هو عبد صالح ورجل مبروك له كرامات.

كنت أصغي إلى ما يقوله لي جدي باهتمام، وتأنس عيناي لقسمات وجهه التي تكسوها الطمأنينة والتسليم وهو يقول: إن سيدنا أبا حصيرة من أهل الخطوة الذين بينهم وبين الله أسرار، وعندما كان مرة في ضيق شديد وليس أمامه من سبيل ألهمه الله أن يفرش حصيرة على موج البحر، ويقعي عليها ويدعوه منيبًا خاشعًا بأن تسعى به في ملكوت الله، ففعل أبو حصيرة، وقد كان، سخَّر الله له البحر وسار به إلى حيث أراد!

ولما طال غياب خالي إيزاك جهزت جدتي سبتًا مملوءًا بالكعك والقرص والمِنِين، وارتدى جدي جلبابه الأبيض (أبو سفرة) وعليه الجاكت الكحلي والطربوش، وشدا الرحال معًا إلى حيث مقبرته في زمام قرية (دميتوه) القريبة من دمنهور.

وتقول جدتي: إن الأولاد الملاعين الذين يقطنون بالقرب من هذا المكان قابلوهما أول الأمر بالترحاب، وبعد أن أجهزوا على ما في السبت من خيرات بانت أخلاقهم السيئة، وأخذوا يسخرون من القبعة السوداء التي كانت ترتديها، ويتغامزون على هيئتها ومشيتها وشبهوها بالزير المقلوب. ولد منهم ينتعل حذاء (كاوتش) ويرتدي جلبابًا على اللحم وله شعر أكرت لا يكف عن الهرش فيه، هذا الولد الجربوع بعد أن أكل وشبع، وبلا سبب معروف، حذر الأولاد من جدتي على الخصوص صائحًا في وجوههم: بأنها جنية عجوز من

أولئك الجنيات المحنكات اللائي يظهرن في عز الظهر، وأن جدي ما هو إلا كلب طاعن في السن ومهدود الحيل التقت به نائمًا يلهث تحت شجرة فسحرته على هيئة رجل، وأخذته معها ليدلها على الطريق، بل وأقسم هذا الولد - عديم الأدب - بأنهم لو خلعوا جلباب جدي لوجدوه يخفي ذيله في السروال! وأن كل الذي كان مع جدتي وأكلوه في بطونهم طعام مسحور! فهب الأولاد مذعورين، بعضهم جرى ممسكًا ببطنه ويصيح، والشجعان منهم طفقوا يبحثون عن عيدان الحطب الجافة وأقحاف الجريد لينزلوا بها على أكتاف جدتي، فأسرعت بالتقاط سيخ من الحديد كان مُلْقىً في الجوار وأشاحت به مدافعة عن نفسها وعن جدي، ولولا ستر الله وأنها أخذت بنصيحته ولم تدخل معهم في شجار وأسرعا معًا بالانسحاب، لتطور الأمر وأصابهما مكروه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قلت لأمي مازحًا، ودمعة لم أتوقعها تفلت من عيني:

- يعني انتي بقى اللي سلطتي أبو حصيرة عليَّه يا ست ماما!

أجابتني بحزم:

- أيوه، أيوه، أنا اللي استسمحته واترجيته، وهو مين اللي رجعك غيره!

وباغتتنا جدتي من الداخل بصوتها العالي ورنتها الخنفاء:

- أيوه هو اللي رجعك يا ولد، وللا انت عندك شك في الحكاية دي؟

كنا لا نزال بالقرب من الباب بل وحتى لم نكن قد أغلقناه، فنظرت إلى أمي مدهوشًا وجلنا ببصرينا في الصالة وسائر الشقة بحثًا عنها إلى أن جاءنا صوتها ثانية:

- أنا هنا في الحمام وخارجه على طول.

لعنة الله عليكِ يا أم منقار..

هل تتابعيننا من مكمنك أيتها الحيزبون! لقد أعطب الله مثانتك منذ أن كنا في مصر وترين الويل كلما دخلتِ الحمام، ومع ذلك لا ترتدعين يا ابنة الأبالسة تناكفين وتستعدين للشجار وأنتِ في هذه اللحظات الصعبة.

وأحست أمي بالدماء التي تغيض في وجهي، فضغطت على كف يدي وعيناها على باب الحمام الذي سمعنا جدتي وهي تسحب ترباسه الداخلي، ثم رفعت أمي إصبع السبابة إلى فمها المزموم كي أتمالك نفسي ولا أكون البادئ

بالعراك. ولا أعرف لماذا أتت الفنانة نجمة إبراهيم على بالي في هذه اللحظة، وقلت لنفسي: أليس من الإنصاف لنا جميعًا لو كانت جدتي قامت بالتسوق في (زنقة الستات)، وتقابلت مع فنانتنا الكبيرة هناك أو حتى مع شقيقتها (سُكينة) وأخذتاها معهما، وتعاملتا معها مثلما تتعاملان مع باقي النسوة.

خرجت أخيرًا..

شعرها منكوش، وترتدي منامة بلون الدم ومزينة برسوم لحيوانات انقرضت منذ زمن بعيد، تنين وديناصور وحيوان له رأسان، وشيء آخر له فكّان يهرسان الحديد، بدت كالدُميةً التي يصنعونها خصيصًا لقهر الأولاد المشاكسين وبث الرعب في قلوبهم.

رفعت حاجبها الأيسر مثلما يفعل فريد شوقي في الأفلام، وتهيأت للقتال:

- إنت مش مصدق يا ولد إن سيدك أبو حصيرة وسيد اللي خلفوك هو اللي رجعك تاني؟

رددت بضجر:

- أنا مليش أسياد وملكيش دخل باللي خلفوني.

وتدخلت أمي، فأشاحت جدتي في وجهينا معًا:

- ملوش ملوش، وهو كان يطول!

وعندها لمحت القط الأعور وهو يطل برأسه من المطبخ وفي فمه فتفوتة لحم، ولما رآنا نتحدث ومشغولين عنه خرج يتهادى في مشيته وكأنما البيت بيته، ولا أدري لماذا توقف عند جدتي بالذات والتي كان ظهرها تجاهه، وأخذ يتشمم كعبيّ قدميها البارزيْن من مؤخرة الشبشب، وفاجأنا هذا المجرم بأن تقوس بنصفه الخلفي مرة واحدة وأخذ في التبول.

فعل فعلته كاملة وبتمكن وجدارة يحسد عليها، فعلى ما يبدو كان محصورًا وليس أمامه خيار آخر. بال الملعون بولًا متدفقًا وكميات كميات على سجادة الصالة، وكأنما هي آخر بولة له في الحياة الدنيا، والرذاذ يطال جدتي، طال الشبشب والكعبين، حتى بنطلون البيچامة أصابه البلل هو الآخر.

وطاش عقلها..

خاصة عندما لمحتني أكتم الضحك، وفي لمح البصر وبحركة من حركات الكاراتيه، دارت حول نفسها دورة كاملة وركلت القط ركلة متقنة أطاحت به

صوب الجدار، ثم عالجته بركلة ثانية أشد من الأولى وانحنت وأمسكته من ذيله وهو يموء من الألم وينزف من وجهه، أكيد فقد إحدى أسنانه أو انهرس عموده الفقري وصار مقعدًا، فضربات جدتي لا تخيب أبدًا.

والتفتت إليّ والغضب الذي يعلو وجهها يحذرني بأن أغرب عنها في الحال وإلا ارتكبت معي جريمة، وأسرعت بالقط إلى سلم العمارة، ألقته من أعلى، من الدور الخامس، وهي تلعن خاشه هو وأباه والشيخ منجي وزوجته الست زهيرة بوصاف وتونس وكل من يأتي من تونس، ثم عادت إليّ وهي تشمر أكمام البيچامة ظنًا منها أن المسألة مدبرة وأني أدخلت هذا الحيوان عمدًا إلى الشقة!

وخرج جدي مهرولًا من غرفته..

أشار لها بيده بأن تهدأ وتغلق فمها، فلم تبال به وخرجت مسرعة إلى زوجة الشيخ منجي التي يبدو أن الشتائم وصلت إليها، فوقفت لجدتي في بدروم العمارة ومعها بناتها الأربع، كلهن مستعدات وفي حالة استنفار.

وبدا الارتباك على جدي..

تهلل وجهه أول الأمر عندما رآني، ثم ما لبث أن اكتساه الـجدَّ وهو يشير لأمي كي تلحق بجدتي وتعيدها، وأسرعت أنا إليه فعانقني عناقًا سريعًا، وقال وعيناه على الباب ووجهه مخطوف تحسبًا مما قد تفعله جدتي:

- أنا كنت عارف إنك هترجع، قلبي كان بيقولّي كده، وتعرف لو كنت سافرت...

ربت على كتفه فتوقف عن الكلام وأراح كفه على يدي وهو يبتسم، ثم أردف والجدَّ يعود إلى ملامح وجهه ثانية:

- أيوه لو سافرت صحيح وسبتنا مكنتش هسكت، كتّ هطلع كل اللي جوايا، وبكره ولا بعده على طول على السفارة وأقولهم إبني سافر يا أولاد الحلال وعايز أروح له؟ يقولولي يعني عايز تأشيرة؟ أقولهم أبدًا ما ادخلش بلدي بتأشيرة! هو أنا طلياني ولا باكستاني ولا خواجة جاي من أمريكا علشان أدخل بتأشيرة! دا أنا مصري يا ناس! وأشاور عليهم وأقول يا أفندية يا بهوات ياللي قاعدين قدامي وحاطين رجل على رجل ولابسين بدل آخر موضة وعمالين تشربوا في قهوة وشاي، هو انتم فاكرين إني جاي استرجى تأشيرة! تأشيرة أيه؟ التأشيرة دي للأغراب إنما أنا مصري، مصري قبل أمهاتكم ما تولدكم، هو فيه حد يا ناس بيستأذن وهو داخل من باب بيته ويا يدخلوه يا لأه! يا ناس رجعوا كل حاجة لأصلها وادوني ورقة مختومة وممضية من البيه

السفير مكتوب فيها إني مصري وابن مصري، يا ناس عيب كده ومتكسفونيش قدام نفسي.

والتقط أنفاسه..

- وإن معجبهمش الكلام وكرشوني، هشد تلغراف للسادات، أيوه على السادات عدل وخبط لزق.

أشفقت عليه ودنوت منه معانقًا عناقًا حانيًا عطوفًا، وكأني أشعر بأن شيئًا ألم به خلال الساعات التي تركته فيها.

كما لو كان خفيفًا بين يدي، هشًا لا وزن له، ووجهه الذي عرفته طيبًا باسمًا بدا مطفيًا كابيًا ويتألم، وعيناه المستترتان خلف عدستي النظارة لا بريق فيهما وتقولان إنهما لرجل مريض، ولما رفع إطار النظارة إلى أعلى ليزيل شيئًا علق برموشه أحسست بأن جحوظًا خفيفًا أصاب عينيه. كان يعاني من الغدة الدرقية، وعندما كنت أنا وأمي في مصر اصطحبته جدتي إلى طبيب جزائري، فقال لها: إن حالته ستسوء وعينيه لا محالة سوف تتأثران أو إحداهما على الأقل، غير أن الأيام مضت ونسينا هذا الأمر..

- بس يا جدي أنا كنت عايز أقول...

فقاطعني:

- مش مصدق إياك! أيوه كت هبعتله تلغراف وأقوله يرضيك كده يا رئيس مصر! يرضيك ولد ينحرم من أهله اللي ربوه وكبروه! مفيش رحمة ولا إنسانية! هو في مطرح واحنا في مطرح! دا أنا مصري أبًا عن جد وكل أهلي لحد الجد السابع ويمكن أكتر كمان اتولدوا وعاشوا وماتوا في مصر. ومش بس كده يا سيدنا وتاج راسنا، أعمامي وأخوالي كلهم مدفونين في البساتين، لنا تسع ترب هناك، دا جدي كان صراف في دايرة إبراهيم باشا[2]، وياما سافر هو وزمايله علشان يجردوا حسابات الوقف بتاعه اللي في اليونان، وجدي اللي قبل منه...

وقفت حياله صامتًا حائرًا، فلا أنا قادر على فعل شيء له أو حتى تهدئته والتخفيف عنه، كان في حال من الغم والكمد لم أشهدها عليه من قبل، وطفق قائلًا:

- هحكي له حكايتي من أولها لآخرها، هقوله أنا زكي الأزرع اللي اتولد في مصر أيام الخديوي عباس[3] واتربى في خيرها وإذا كانت هيَّه نسيته هو عمره ما هينساها، كان هيصالحني ويقول أنا عارف يا زكي إنكم ملكوش ذنب

واتظلمتم وكان هيطبطب على ضهري ويقولي إرجع يازكي! لمْ أهلك وقرايبك وارجعوا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

واشتدت الجلبة على السلم..

سمعنا جدتي وهي تصيح في وجه أمي قائلة: بأنها لن تمتثل لكلام جدي وترجع للشقة، فجدي بطيبته وخيبته هو الذي جرأ هؤلاء الأوباش علينا، وأنه حتى لو خرج أبوها (سوارس) وأمها (زليخة) من قبريهما لن تحيد أبدًا عما في رأسها، وسوف تضع الآن حدًا لهذا الجزار الضلالي هو وأسرته، الجزار النطع معدوم الضمير، وأنها اليوم يا قاتلة يا مقتولة!

لم تكتف جدتي بذلك، بل خلعت فردة شبشبها وأطلت من منور السلم تهدد بها، ومن فرط انفعالها سقطت من يدها فتلقفتها الست زهيرة بوصاف، واعتبرتها حرزًا يدل على خرقها للهدنة القائمة بين العائلتين. وقالت لجدتي بصوتها الناعم السام: إن الشيخ منجي عالم الدين المطلع على كتاب الله يقبل أي شيء في الدنيا إلا النكث بالعهود، وإنه سوف يأتي حالًا ويقول كلمة الشرع فينا، وليس مستبعدًا أن يصعد إلى شقتنا ويصفينا جميعًا بالساطور، فازدادت النار في جوف جدتي، بدت كالهرة التي ديس على ذيلها وفعلت كل شيء تقدر عليه، بصقت من أعلى على كل الجمع الذي كان في الأسفل، وبرمية من يدها وتصويبة من عينها اليمنى أصابت الست زهيرة في رأسها بفردة الشبشب الثانية، ناهيك عن الشتائم ذات العيار الثقيل، شتائم لا تطال أسرة الشيخ منجي فقط، وإنما في حق تونس والجزائر والمغرب العربي كله.

والست زهيرة التي هبت بناتها للأخذ بيدها بعد أن انكفأت على وجهها من الرمية الماهرة التي صوبتها لها جدتي، قامت لتقول وبنفس النبرة:

- باهي يا عزوزة الشؤم باهي باهي (ماشي يا عجوزة الهم ماشي ماشي)، والله لنقول للشيخ منجي علشان يمسح بيكي الشارع، وبعد.. يرميكي في الزبلة (القمامة)، عائلة الشيخ منجي النظاف اللطاف العفاف تهبط عليها الشلايك (الشباشب) من فوق!! ومن أشكون (ومن مين) من واحدة منجوسة! عائلة الشيخ منجي!! الشيخ منجي الوقور الورع المصلي اللي يعرف ربي حق المعرفة ومن الدار للحانوت ومن الحانوت للجامع! آه يا وجه الفقر..

ثم أشارت إلى بناتها كي يدققن في البيچامة التي ترتديها جدتي، وهي تضيف بصوت عال ونبرة ساخرة:

- وشوف شوف ها اللبس اللي تلبسيه! راس تنين وديناصور وفحل وذئاب وأيش هذا الحيوان اللي له رأسين؟! أعوذ بالله تقولش عبيثة (عفريتة)! الله لا يربحك لا في الدنيا ولا في السماء يا وجه المصائب..

وجدتي هي الأخرى تكيل لها، والصاع بصاعين..

ولما استفحل الأمر، خرج جدي بنفسه ليسحب جدتي من أرض المعركة.

انتقل العراك إلى داخل شقتنا بين جدي وجدتي، هو يتهمها بالطيش والتهور، وهي تنعته بالجبن والتخاذل وكان الأولى به أن يأتي بعصا أو سكين ويؤازرها! ولم نفلح أنا وأمي في إسكاتهما.

الذي أفلح هو الشيخ منجي..

انخرسنا كلنا وانقطعت أنفاس جدي خاصة، لما سمعناه يصيح علينا من أسفل بصوته الجبار:

- ملا جيره وسخة (أيه الجيرة الوسخة دي)، إن عل بوها الأشكال هاذي، لعنة الله عليكي وعلى والديكي يا وجه البوم - يقصد جدتي - إتفو عليكي الله يسلبك (ياخدك) من هذه الدنيا إنتى وشيبة الكلب - يقصد جدي - الفاشل عديم الشخصية.

ووقف جدي مرتبكًا عاجزًا عن فعل أي شيء، وحتى أنا أصابني الضيق والحنق على الشيخ. جدتي هي أجرأ وأشرس شخص في البيت، اندفعت إلى المطبخ وأتت بسكين لترد عليه، إلا أن أمي وجدي أمسكاها باستماتة من طوق البيچامة.

وسمعنا الشيخ يصيح ثانية متحديًا جدي أن ينزل إليه ويصارعه، وعندما لم يجد صدى لصياحه أردف مخاطبًا جدتي:

- أحسن حاجة تعمليها يا وجه النكد إنك تلمي كراكيبك وتأخذي الشيوبة بتاعك وتقلبوا وجهكم من هنا (تفارقونا)، من يوم ما شفناكم انقطعت البركة من الحومة (الناحية)، والحمد لله إن جلال سمع كلامي وهج لبلاده، رجع لبلاده وارتاح من وجوهكم العكرة، هاذاك - يقصدني - ولِيد متربي، ولِيد تحفون (جدع) مش عارف أيش جابه ليكم يا كلاب!

فلم يكن الشيخ يعرف أني لم أسافر وأستمع لشتائمه، والتفتت أمي إليَّ غاضبة وهي تقول بصوت مكتوم، مخافة أن يسمعها الشيخ الذي في الأسفل:

- أيوه أيوه آهو كده الحكاية بانت! يعني الجزار الضلالي ده هو اللي كان بيسلطك علشان ترجع مصر، آه يا جزار الهم يا عديم الضمير، صحيح زي ما بيقولوا عدوك عدو دينك!

فنظرت إليها معاتبًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3

لم يجافني النوم هذه الليلة حسبما ظننت..

ظل انتباهي ينقص شيئًا فشيئًا وأنا أتابع أمي وهي جالسة على حافة السرير، ويروح ويجيء أمام عيني الثقيلتين الساهمتين جانب من وجهها في مرآة متوسطة الحجم تقبض عليها بكف يدها.. العين، مساحة من الجبهة، وحاجبها الأيمن الذي تتشابك أطرافه مع حافة الجانب الآخر، فلا يكاد يفصلهما شيء يذكر.

تقرب المرآة وتبعدها، ثم تديرها إلى جانبها الآخر الذي تبدو فيه الأحجام أكبر، ويلوح أمامي الشيء الذي تبحث عنه..

شعرة بيضاء!

تجذبها بملقاط بين أصابعها، وفي حركتها هذه يضطرب الحاجب وتبدو شعرات بيضاء أخرى مدسوسة فيه. تحاول انتزاعها وتقطيبة تعلو وجهها، وفي اهتزاز المرآة أرى انثناءات وتعرقات خفيفة على عنقها وصفحة وجهها، أشياء أشبه بالتجاعيد تجلو وتبرز كلما توترت..

وبرهة وجفلت عيناي من أزيز السرير واهتزازه المفاجئ، فيبدو أني غفوت عدة دقائق ثم استيقظت، واستدارت هي إليَّ وتبسمت بحنو، بادلتها أنا الآخر ابتسامة كسولة، وكان آخر ما شعرت به، وبشكل مشوش، حركتها وهي متجهة صوب الدولاب.

دفعني النوم بعدها من حالق..

جذبني إلى عالمه السحيق، عالمه السحري الذي نغدو فيه دُمًى لا حول لها ولا قوة..

وكأني جالس في قاعة امتحان..

قاعة غريبة الطراز..

عالية السقف ومعتمة قليلًا، فلا ضوء يأتيها من الخارج إلا من كوة بحجم كف اليد، والجدران ذات استطالة غير مألوفة، فالسبورة التي في نهايتها تبدو وكأنها في آخر الدنيا، ومن حيث العرض فبالكاد تتسع لاثنين يجلس كل منهما إلى طاولته وبينهما ممر يتسع لشخص واحد. كانت أشبه بعربة قطار طويلة، ومصمتة تمامًا، لا نافذة أو حتى رأيت لها بابًا، ورغم أن المراوح المتدلية من

السقف كانت كثيرة وتعمل بأقصى طاقتها، إلا أنها لم تأتِ بنسمة هواء واحدة أو بددت رائحة العطن التي تزم الصدر. وعندما وزعوا أوراق الأسئلة حدقت فيها غير مصدق، فالاختبار اليوم في مادة اللغة الفرنسية وليس اللغة العربية!

رفعت يدي محتجًا، فجاءني رجل طويل من أول القاعة ورهط من المراقبين يسير وراءه على هيئة طابور. كان واضحًا أنه شيخهم، تكلمت معه، أو هكذا ظننت.. فعقلي كان واعيًا ويدرك الخطأ الذي وقع، وأن عليهم إصلاحه واستبدال أوراق الأسئلة التي بأيدينا بورق جديد لأسئلة اللغة الفرنسية.

المشكلة كانت في لساني..

تعطل مني عندما هممت بالكلام، كان ثقيلًا والكلام يخرج من فمي بصعوبة، فالكلمة التي لا يمعقها حلقي وتفلت منه، تخرج متقطعة ومسمعها غريب كالأصوات التي تصدر عن شرائط الكاسيت عندما تدار بالبطيء. وأدركت أني في أزمة، كما لم يطمئن قلبي أبدًا لهذا الرجل الطويل ومن معه والذين بدوا وكأنهم يضربون حولي طوقًا، وظل لساني على حاله لا يسعفني بشيء أو تصدر عنه كلمة تُفهم.

ولما مل الرجل من محاولاتي الفاشلة للكلام، أشاح بيده في وجهي قائلًا:

- هل أنت أبكم يا ولد؟

انخلع قلبي عندما تكلم..

فالصوت الذي خرج من حلقه كان صوت أنثى لا صوت ذكر، وعندما تركني وقفل راجعًا انتبهت إلى أن الحذاء الذي ينتعله حذاء أنثوي هو الآخر، وله كعب ينقر به على بلاط القاعة، وكأن أحدًا يقول لي في الحلم: أنت لست في حُلْم، هو بالفعل امرأة، امرأة تعرفك حق المعرفة!

مكثت بعدها كالمقتول..

تيبس عقلي، وبدوت لنفسي وكأني في لحظة زمن غير الزمن الذي يخص هؤلاء القوم الذين حولي! لحظة تخصني وحدي..

الولد الذي كان يجلس إلى يساري هو وحده الذي انتبه إليَّ، ربَّت عليَّ بحنو عارضًا المساعدة. استكنت له، أسلمته أمري، وهو يقول بصوت عال وغير آبه بالمراقبين: تعالَ إليَّ ولا تخف، خذ مني العلم الذي تجهله.. وأخذ يملي عليَّ الإجابة كلمة بكلمة، وأحد المراقبين على مقربة عيناه ترمقاننا وتقولان: لا بأس.. لا بأس! وتشجعنا على الاستمرار، وعندما فرغ هذا الولد من مهمته،

قام مسرعًا لتسليم ورقة الإجابة التي تخصه. الذي أدهشني أنه لم يدون بها كلمة واحدة، سلمها بيضاء تمامًا، وعندها اكتشفت أن كل ما أملاه عليَّ غلط في غلط! وألهمني الله الإجابة الصحيحة، إلا أن الكراسة التي أمامي كانت قد امتلأت ونفد الحبر والورق!

سألت المساعدة، فصاح فيَّ الرجل الطويل من بعيد، من عند السبورة، وبذات الصوت الأنثوي: لا كراسة ولا قلم، هذه تعليمات الأطباء! وأشار عليَّ بأن أخرج وأدون الإجابة على السبورة، ففعلت، تذكرت منهاج اللغة العربية بأكمله، النحو والصرف والشعر والتعبير، فطفقت أكتب على السبورة وبعد أن فرغت استدرت حولي فلم أجد أحدًا، لا طلاب ولا مراقبين ولا أي بشر، ومكثت أسأل نفسي: من أين خرجوا؟ لا باب ولا فتحة ولا أي شيء! وما الذي أفعله الآن بكل هذا الكلام الذي كتبته؟

وأفقت من النوم..

كنا في أول الصباح والغرفة يتغشاها شعاع نور نحيل يأتي من الكوة التي على المنور، ولا حركة تأتي من الداخل فيبدو أن جدي وجدتي لا يزالان نائمين، وسرعان ما ألفت عيناي المكان وتبينت الأشياء.. الروب الساتان الذي كانت ترتديه أمي أول الليل مُلْقًى على المقعد، أكمامه مدلاة وتهتز هزات خفيفة بفعل نسمة هواء تأتي من زجاج الكوة الموارب، وفردة حذائي مكفية على وجهها، وصُرْصار صغير يبدو أنه تسلل من زجاج الكوة ويهبط على الجدار متجهًا نحوي، وكانت أمي نائمة إلى جواري، عيناها مغمضتان ووجهها ساكن مستريح..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

4

كان الشيخ منجي يقف على قاعدة خشبية بجوف المحل، فزادته طولًا على طول..

بدا عملاقًا بسترة الجزارة البيضاء المزمومة من عند فتحة الصدر، وزنداه المشمور عنهما كم السترة يقولان إنهما لبشر خرافي، وأعطته اللحية المهولة والسحنة التي لا تعرف الهزل مهابة في أعين الزبائن. وعلى يمينه صورة بحجم متوسط للحبيب بورقيبة[4] في برواز خشبي تآكلت حوافه، والصورة على ما يبدو هي صورة الغلاف لأحد أعداد مجلة (ليه بوا) الفرنسية، إذ كان اسم المجلة وشارتها مدونين في الأعلى، وعلى مقربة رف خشبي صغير يعلوه جهاز للتسجيل تنساب منه نغمة شرقية عذبة لفريد الأطرش، وشدو يقول:

بـلاد الحــور والغـلة والزيتـون..

تـونس آه ياخضراء ياحارقة الأكبـاد..

غـزلانك البيضاء تصعب على الصياد..

تأملت الشيخ وهو يهز رأسه مع وقع اللحن والكلمات، وقلت في نفسي: أكيد هفت نفس الرجل إلى صباه وأيامه الأولى، حيث وبالقطع كان يمرح في براري تونس وحقولها حافي القدمين عاري الرأس وفي يده عصا أو أية آله حادة يؤذي بها مخلوقات الله التي يطالها.

كان الشيخ منتشيًا بالفعل، يدندن مع (فريد) وبطانته ويداه تعملان بخفة، يمسح بمنشفة من القطن على سطح (الأورمة) الخشبية التي تقف أمامه مهيبة بجسدها المتين وأرجلها الغليظة، ويعيد ترتيب الساطور والسكاكين واحدًا بعد الآخر بعد أن يمرر عليها المنشفة بحركة خاطفة، واضعًا كل واحد منها في مكانه المعتاد ما عدا سكينًا كبيرة تأمل نصلها الحاد اللامع ثم وضعها في نطاق جلدي حول خاصرته.

وتنتقل العدوى إليَّ، يأخذني قلبي إلى حيث يصل الشدو إلى منتهاه، ويترنم (فريد) ويقول:

بساط الريح قوام يا جميل..

أنا مشتـاق لوادي النيل..

أنا لفيت كتير ولقيت البعد عليَّه يا مصر طويل..

وتنتابني دفقة حنين نحو بلدي البعيد وناسه الطيبين، وأشعر بحرارة تجتاح مقلتيَّ وكأن دمعًا سوف يفلت منهما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم ينتبه الشيخ إلى قدومي حتى هذه اللحظة، فلبثت واقفًا على زاوية عند باب المحل، أنتظره حتى يفرغ من الرجل الذي أمامه.

كان رجلًا من هلافيت الشارع الذين طالما رأيتهم يتسكعون جيئة وذهابًا، يضع قبعة متسخة على رأسه ويرتدي سترة أمسك الجرب بياقتها وضاقت عليه من عند فتحتي الإبط، أما البنطلون الجينز فيقول لونه وهيئته إنه أفنى عمرًا طويلًا في خدمة هذا المتعوس، ويبدو أنها خدمة شاقة ومؤسفة عانى فيها الأمرين، والرجل نفسه استحالة أن يكون إلا كناسًا أو جامع قمامة أو ممن يعملون في إحدى المهن الرذيلة.

ظل برهة طويلة يتنقل ببصره بين الأفخاذ والأكتاف وخيرات الله الكثيرة المعلقة هنا وهناك بخطاطيف من حديد والشيخ يرمقه في صمت، إلى أن عقد عزمه أخيرًا وأشار على فخذة عجل مدكوكة ولا تزال الدماء تتقطر منها، فيبدو أنها وصلت للتو من المسلخ واستبقاها الشيخ على حِدَةٍ لزبائنه المحترمين.

لم يعبأ به الشيخ أو التفت حتى إلى حيث يشير، سعل سعلة مبتسرة واستدار ناحية ثلاجة خشبية مزوية بركن المحل، أخرج له منها قطعة لحم داكنة اللون تكسوها طبقة كثيفة من الدهن والشغت، وواضح أنها لثور عجوز أو تيس هده الزمن والمرض، ومغروز فيها ماسورة عظم لا يفلها إلا الحديد.

بدا الانزعاج على وجه الرجل، وقال وهو يشير إليها بسبابته:

- يا شيخ منجي منحبش من اللحمة هاذي! إعطيني من الفخذة اللي شاورت لك عليها.

والشيخ لا يبالي به، أو حتى طرفت عيناه..

قلّب قطعة اللحم بين يديه وهو يتأملها بوجه عابس، ثم رفعها عاليًا في الهواء وألقاها أمامه ثانية، وعينا الرجل تتابعانها بقلق وهي تعلو وتهبط على سطح الأورمة. لا أعرف لماذا فعل الشيخ ذلك، هل لإقناع الرجل بأن قطعة اللحم جيدة ولا غبار عليها، أم لإفهامه أنه لن يأخذ سواها مهما قال أو فعل..

تجشأ بعدها وسحب السكين التي في خاصرته، أخذ يجريها عدة مرات على مسن معلق بدوبارة غليظة على الجدار، وما شاء الله كانت عيناه في قمة التركيز ويداه تعملان بمهارة وسرعة لافتة، والشرر لا يكف عن التطاير من حواف السكين، فالحق إنه كان حاذقًا في عمله ومتمكنًا من مفردات الصنعة، وبعد أن فرغ وصارت السكين حاسمةً قاطعةً لا حل لها أخذ يضغط بأصابعه ضغطات متتالية على قطعة اللحم استعدادًا للتقطيع.

والرجل يتململ:

- يا سيدنا الشيخ! يا سيدنا الشيخ! يا محترم يا سيد الناس!

ثم بصوت غاضب:

- يا سيدنا الشيخ، أراك تعرف أيش قال ربي وأيش قال الرسول.. أنا مطلبتش هاذا! أنا نحب اللحم الفرشك (الطازجة) اللي وريتهولك ومش اللي في يدك اللي عندها شهر مرمية في الثلاجة وأصبحت مثل ذيل الحمار!

واستمر يغمغم بأصوات يشوبها الضجر..

لم يتوقف إلا عندما أدار الشيخ عينيه تجاهه وأفحمه بنظرة روعته، ثم انهال بساطوره العريض على قطعة اللحم بعدة ضربات عفية، فتطايرت منها فتافيت عظم كثيرة في كل اتجاه أصاب بعضها وجه الرجل وزجاج نظارته الطبية، حتى إنها وصلتني أنا الآخر وطالت ثيابي رغم بعد المسافة، وارتد الرجل إلى الخلف يخلع النظارة ويمسح وجهه والحنق بادٍ عليه.

وعندها لمحني الشيخ..

علت الدهشة وجهه، وقطب حاجبيه محدقًا فيَّ ويقول:

- جلال! لا حول ولا قوة إلا بالله أيش تعمل غادي (عندك)، يا ولدي مارحت لبلادك! يا سبحان الله..

غير أنه عاد واستمهلني بإشارة من يده:

- لحظة ما تمشيش، استنى شوية حتى نكمل مع ها الموسخ هاذا (مع الرجل الوسخ ده).

التفت الرجل نحو الشيخ محتجًا، إلا أنه سرعان ما عاد إلى صوابه أول ما التقت عيناه بعيني الشيخ المتقدتين نارًا، ثم استدار نحوي أنا ووجهه مكفهر حانق من الإهانة التي لحقت به، فتبسمت له مشجعًا كيما أشد أزره؛ بيد أنه تجاهلني وانحنى على الحزام الملتف حول خصره. بدا وكأنه منشغل بإحكامه

رغم أنه كان مستقرًا في موضعه وليس في حاجة إلى إحكام، ثم رفع رأسه إليَّ وحاول التبسم غير أنه فشل! مسكين، معذور، فلا حول له ولا قوة أو يعرف ما الذي يفعله مع هذا الديناصور الذي أمامه! فأكيد له تجارب سابقة مع الشيخ، ويعلم أن الشجار معه أمر لا طائل منه ومغبته فادحة فآثر السلامة.

والشيخ في دنيا أخرى..

يجمع بكفيه ما قام بتقطيعه ويدفعه أمامه حتى حافة الأورمة، ويقوم بإسقاطه في كيس من النايلون، عدة قطع من اللحم الداكن في البداية، ثم قدر لا بأس به من العظم وكتلة دهن في حجم كف اليد، وفي الختام حفنة شغت من تلك التي يرميها القصابون عادة إلى القطط، ويعود بمنكبيه بعدها إلى الوراء واضعًا الكيس على قاعدة الميزان، وعندما تثبت حركة المؤشر يهز رأسه قائلًا:

- كاتر.. (أي أربعة كيلوات).

والرجل يتابع ووجهه أصبح في لون رماد الفرن، وعندما دفع له الشيخ بالكيس رجع خطوة إلى الوراء رافضًا أخذه وهو يقول بغضب:

- يا سي المنجي! يا مطلع على كتاب الله! يا سي المنجي ياللي تعرف أحكام الدين! حرام عليك اللي تعمله فيَّه، مرتي كل مرة نجيب فيه اللحم من عندك ترميه على وجهي..

ثم بصوت متوسل:

- براس يماك (أمك) إرحمني ها الخطرة (هذه المرة) واعطيني لحمة طرية يا أخي، نحبوا ناكلوا بوفتيك كالناس، شاهيين (عايزين) بوفتيك ياسي المنجي! ما نحبوا شحم ولا فرت ولا عظم (لا دهن ولا شغت ولا عظم).

رق قلب الشيخ فأخرج من الكيس قطعة عظم في حجم إصبع الكف، واستبدل بها قطعة لحم أقل منها حجمًا، وهو يقول بنغمة ودودة:

- يا أخي الشحم فائدته كبيرة للي كيفك (للي زيك) ضعاف كالمعيز المريضة! والعظم للشوربة، مابتطيبوش (مابتعملوش) شوربة في داركم؟ والفرت (الشغت) هاذا حاجة لابد منها لأمثالك اللي ما بيعطوني كاش..

لم يقتنع الرجل وعاود الإلحاح طالبًا لحمًا أحمر للبوفتيك، فزجره الشيخ:

- بوفتيك أيش يا رخيص! (يا تافه!)، تحشم على روحك لعنة الله عليك وعلى أمثالك، أيش دخلك في البوفتيك يا عديم الأدب! هاذا أكل الفرنسيس

(الفرنسيين) اللي كروشهم ديلكاتو (رقيقة)، أنت ديزيري (جزائري) جدودك عاشوا في جبال الأوراس وأكلوا اللحم نيئ! وأنتم من جيتم لهنا تنسونتم في ها البلاد البيظة (البايظة)، تحشم تحشم لعنة الله عليك وعلى والديك..

أجابه الرجل ساخطًا:

- اسمع يا سي الشيخ ياللي عارف كلام ربي وكلام الرسول! ما دام الحكاية ولت (أصبحت) بالذراع ما نأخذ منك شيء، نذهب لززار (لجزار) آخر.

- نعم! نعم! نعم! إيجه (تعالى) نقولك يا سي الكلب، أنا وزنت لك أربعة كيلو وسِي فِينيِ (وانتهي الأمر)، خذ اللحمة واقلب عليه وجهك (وامشي من هنا) إن عل بو النهار اللي شفتك فيه يا وجه الهم، ما يكفيش يا أخي إنك ما بتعطيني الفرنكات إلا لما تطلعلي روحي.

ازداد الرجل تصميمًا على رأيه ورفض أخذ كيس اللحم، فرفع الشيخ إصبع السبابة مهددًا:

- خذ اللحم ولا إنت داري باللي أفعله فيك!

وبحركة عفوية التفت نحو عصا إلى جواره معلقة بشنكل من الحديد، لا يقل سمكها عن سمك رجل السرير.

رمقه الرجل وهو يفعل ذلك، فضرب بيده على فخذه اليمنى وهو يقول متبرمًا:

- وربي هاذي آخر مرة نشتري فيها لحم من عندك! يا الله يا لطيف يا رحمن يا رحيم أيش هاذا! راجل الرحمة قاطعها من الدنيا!

صاح فيه الشيخ وهو يمد يده إلى العصا:

- أيش! أيش! أيش تقول يا سي الزفت؟ هاذي آخر مرة تشتري فيها اللحم من عندي، عاود عاود! سمعني مرة ثانية أيش تقول يا وجه الخنزير..

فقال الرجل وهو يخطف الكيس من فوق الأورمة، ويعطي ظهره للشيخ مسرعًا نحو باب المحل:

- لا. لا. يا سيدنا الشيخ! لا. لا. شي شي ما قلت (مفيش. مفيش. مقلتش حاجه).

أنا الذي شاهدته، بصق على الأرض (وسب الدين) لنفسه وللناس واللحم والبوفتيك وهذه الدنيا التي تأوي أمثال هذا الشيخ المجرم، واصطدم بكتفي

عامدًا وهو يرميني بنظرة من نار، ولو كنت فتحت فمي بكلمة لكان قد ضربني بكيس اللحم على وجهي واقتص مني بدلًا من الشيخ.

فأسرعت إلى الداخل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الشيخ محنيًا على ثلاجة صغيرة يخرج لنا منها زجاجتي عصير، استدار يكلمني ووجهه قَلِق:

- يا جلال يا ولدي أيش بيك! ليش ما رحت بلادك؟

وأشار بأصابعه مكررًا ما قال:

- ليش يا ولدي؟ ليش!

حكيت له ما حدث فزادت علامات عدم الارتياح على وجهه، وقال وهو يهز رأسه:

- مش باهي تخلي بلادك (مش صح إنك تترك بلدك) اللي اندفن فيها بوك وجدك علشان تعيش هنا مع الكلاب دول عليهم اللعنة!

وكلمة من الشرق وكلمة من الغرب، إلى أن تذكر القط الذي ألقته جدتي من بئر السلم، فقال:

- جدتك هاذي مش ناوية تقيلنا من راسها وتخلينا ترانكيل (مش عايزه تسيبنا في حالنا وتخلينا هاديين)، وربي لو كان مجتش امرأة كنت ذبحتها ورميتها للقطاطس (للقطط)، إتفو عليها وعلى منظرها، ويا ولدي لو كان جدك هاذا ميقدرش يوقفها عند حدها أنا أتدخل ونعلمه كيف يكون الأدب والاحترام مع الشيخ منجي وعائلة الشيخ منجي! إن عل بوها العيلة الكلبة دي..

رغم ما كان ينتابني من ضيق بل وضجر شديد أحيانًا كلما تكلم الشيخ بسوء عن عائلة أمي، غير أني كنت مشدودًا إليه ولم أكف يومًا عن الائتناس بحديثه وطلب مودته، وطالما غفرت له زلاته في حق جدي وجدتي وأنا أقول لنفسي: لعله يظن أني أقرب إليه من قربي لهما! كنت في حاجة إليه، حاجة شديدة وأتلمس فيه الشيء الذي ينقصني، العصب الذي من ناحية أبي، ولا أنظر إليه إلا على أنه قريب لي يحنو عليَّ، أو ربما عم، ليس عمي الذي في المنصورية بالطبع، والذي لا يحبني، إنما عم صنعته لنفسي يحبني وأحبه.

وعندما دعاني إلى تناول الغداء معه، أجبته على الفور.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قضيت معه أغلب الفترة المسائية هو وزوجته الست زهيرة وابنته الكبرى خديجة، وحولنا بناته الثلاث: عائشة وزينب وأم كلثوم محجبات ملتزمات، وولده الصغير (الحيلة) زين العابدين ممدد في حجر أمه يناغيها ويضربها بكف يده إذا انشغلت عنه. وكلما التفت إليه تبسم في وجهي فغارت عيناه في وجهه الدسم المستدير، أتأمله وأعود بقلبي إلى شقتنا القديمة في حي الظاهر.. الشرفة التي كنت أحبو على بلاطها الرطب، وأدخل رأسي بين قضبان سورها الحديدي كي أرى الشارع وأسمع ضجيجه، والصفارة القديمة وأغطية الزجاجات والفوارغ التي كنت أدحرجها أمامي على الكليم الصوف المبسوط أمام غرفة جدي، وتهفو نفسي إلى جارتنا القديمة أم حسن التي طالما أراحتني في حجرها وأرضعتني من ثديها، وأنا أناغيها ويروح إصبعي إلى حافة شفتها فتحتويه وتدغدغه مثلما تفعل الست زهيرة الآن مع ولدها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفتحت الست زهيرة موضوع جدتي..

قالت للشيخ بنبرة متوجسة محرضة: إن نشاط جدتي ازداد هذه الأيام على السلم، تهبط وتصعد وفي يدها عصًا غليظة من تلك التي تستخدم في المشاجرات! وأنها تخشى على زين العابدين منها..

طرقت له على الوتر الحساس، فهي تعرف أنه إذا وصل الأمر إلى زين العابدين سوف يحيل الدنيا إلى كتلة لهب، وهذا ما حدث بالفعل إذ صاح قائلًا:

- تعرف لو كان ها العجوزة تمس شعرة من شعرات زين العابدين إلا ما نطلع إليها وبالله العظيم الذي لا إله إلا هو إلا لما نوريها النجوم في عز القايله (الظهر)، هيَّه وسي تاته (العبيط) بتاعها - يقصد جدي - وكمان...

وأحجم عن الكلام..

أظنه أراد إدخال أمي هي الأخرى في زمرة المعاقَبين، غير أنه أمسك إكرامًا لي.

عاود الكلام ثانية، وإصبع سبابته إلى الأمام:

- لا والحكاية مهياش بأش تقف هنا (والحكاية مش هتقف لحد كده)، حتى ولدها شمعون اللي ساكن في العشرين[5] - يقصد خالي - إلا لما ندقدق عظامه ونوريه الرجال أيش تعمل!

وأرخى سبابته ضاربًا براحة يده على ركبته:

- ونعرفوا وين يسكن، نعم نعرفوا، تمشيش تقولوا (متفتكروش إني) أنا مش عارف حتى شي عن العيلة هاذي! لا. لا. لا، نعرفوا عنهم كل شي..

ثم تأوه ساخرًا واثقًا:

- أوه هوه هوه! أنا عامل عليهم تحريات من زمان وخليها على ربي هو اللي عارف الجير (الحرب) وقت أيش تحصل بناتنا، وبأش (ويمكن) تكون جير أكبر من جير (الإندوشين)[6] ووقتها ما يسلم مني حد، لا صغير ولا كبير ولا حتى اللي يدبو (يحبو) على الحصير، إلا ما نهرسها على بعضها الناس الكل (إلا لما نطربقها على الجميع).

نجحت الست زهيرة في إثارة الشيخ، فقد كانت تقاطيع وجهه تقول إن النار تأكل أحشاءه وأن ضبط النفس لم يعد مجديًا معه، خاصة وأن جدتي هي التي بدأت بخرق الهدنة يوم (واقعة القط). الذي أثار قلقي أنه أراد توسيع نطاق المعركة لتطال خالي شمعون، وأنه أجرى عمليات استخبارية وحدد مكان إقامته! الحي واسم الشارع ورقم البيت، وما أخافني أكثر وأكثر تحسبي من إقدامه على عمل عدواني إزاء جدتي لإجهاض مخططاتها، وساعتها سوف يكون وضعي محرجًا.. فهل أقف في صف جدتي بحكم القرابة والدم؟ أم مع الشيخ الذي يحبني؟ لذا حاولت تهدئة ثورته، وإفهامه أن قواها خارت الآن ولا أظنها قادرة على إلحاق الأذى بأحد، والعصا التي تتحدث عنها الست زهيرة إنما هي عصا تتوكأ عليها وليست للشجار، كما أنها تعلم أن هناك خطوطًا حمراء وأن رأسها في كفة وزين العابدين في الكفة الثانية، وهو ينصت إليّ ويهز رأسه ولا أظن أنه كان مقتنعًا بما أقول. وأنهى معي الحديث في هذا الأمر قائلًا لزوجته: إنني سوف أكون رسولًا بين العائلتين، وإن لم يقبلوا الوساطة ويفيئوا إلى أمر الله فلديه خطط أخرى.

وانتحت بي خديجة جانبًا تعلمني النطق الصحيح للغة الفرنسية، والشيخ يتابعنا بعينين مرتاحتين.

كانت في مثل عمري تقريبًا، وهالني قوامها الفارع الذي أخذته عن أبيها وصدرها المتكور المحبوك في ثوبها البيتي الخفيف. كنت أحدق في شفتيها وهما تخرجان الحروف بتأن ودلال، فبدت لي شفتها العليا رفيعة رقيقة على خلاف الشفة الأخرى المكتنزة والمسحوبة قليلًا إلى أسفل، وكان حاجباها على فطرتهما كثيفين ومتشابكين كأنما لم يمتد إليهما ملقاط من قبل. ومع ذلك كان وجهها مريحًا مطمئنًا بلونه الرباني الخالي من أي طلاء، وعندما انحسر الإيشارب قليلًا إلى الوراء بدت خصلات شعرها سوداء فاحمة فزادت وجهها فتنة، غير أني لم أهنأ به. عضني قلبي وأتى بنادية في بالي، وكأني أتلمس أصابعها وأشتم رائحتها من على هذا البعد..

سألتني خديجة عمَّ ألم بي.

قلت: لا. لاشيء.

واستأذنت من الشيخ صاعدًا إلى شقتنا مطرق الرأس..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5

اجتمعت الأسرة لتقرير مستقبلي..

كانت أمي مسترخية على أريكة بالصالة وساقاها ممدودتين أمامها، الفستان لونه رمادي بفتحة صدر عريضة، وعلى كتفها شال أبيض مكتوب على طرفه اسم الصانع (فيليب لاكروا). جذبتني بمزاح من كم البيچامة وأنا أمضي أمامها، ودعتني إلى الجلوس على مقعد من الخيزران إلى جوارها، ثم وضعت ما كانت تطالعه في حجرها، النسخة الفرنسية لمجلة (البوردا) المعنية بمسائل الموضة وتقاليعها وأجمل الملبوسات النسوية.

شدني مظهرها..

كان لافتًا بثيابها هذه التي اشترتها لها راشيل ابنة خالتي، والعطر، والمكياج الزائد (حبتين)، وقدميها البيضاوين اللتين تغوصان في شبشب من القطيفة السوداء، مزينًا برسوم وأشكال من بلاد المغول.

بدت كالغندورة، التي أتى جو باريس على هواها..

وخرج جدي من غرفته.

شعر رأسه منكوش شعرة هنا وشعرة هناك، ويخب في منامة واسعة أسفل منها شرز صوفي مثني على عنقه.

كان مزاجه متعكرًا على غير العادة، فالانطباع الذي لدينا أنه يكون نشطًا متوهجًا أول الصباح، يضحك ويمزح ويدير دفة أي حديث نحو زمان وأيام زمان ثم تخور قواه تدريجيًا، ولا يبدأ في الاكتئاب إلا عندما يحل الظلام.

أخلت له أمي الأريكة فجلس محلها، وهو يغمغم بكلمتين غير مفهومتين.

اعتبرنا ما قاله تحية الصباح ورددنا عليه بصوت عال، غير أنه لم يعبأ بنا وأخرج من جيبه علبة سجائر ماركة (چيتان)[7] ، وشرع في فتحها.

قلت له:

- هو انت بطلت السجاير الجلواز يا جدي وبتشرب چيتان دلوقتي؟

- جلواز وللا جيتان الاتنين أسخم من بعض.

وقالت أمي:

- تكونش وحشتك السجاير البلمونت يا بابا؟

- البلمونت! وفين هيَّه البلمونت دلوقتي؟

وكانت جدتي على مقربة من المطبخ تجثم على مقعد خشبي صغير ليس له مسند، مرتدية بلوزة بأكمام طويلة صدرها مزين برسم لرأس كلب فاغرًا فاه، ومنكبة على ساندوتش من السجق في حجم كوز الذرة.

أدار جدي عينه نحو أمي قائلًا بتأفف، وهو يهش بيده أمام أنفه:

- أيه الريحة الفاقعة دي يا كاميليا؟

- فاقعة!

ونظرت إلى جدتي، فلحقها قائلًا:

- يابنت الحلال أنا مش قصدي على البصل والسخام اللي في أيد الماما، قصدي على الريحة اللي إنتي حطاها!

التفتت إليه جدتي رافعة حاجبها الأيسر، وقالت أمي مدهوشة:

- حد يا بابا يقول على الريحة دي حاجة فاقعة! دا البارفا الجديد بتاع إيف سان لورا.

- أيه أيه! بتقولي مين؟

- إيف سان لورا! دا واحد من الكبار قوي يا بابا...

قاطعها قائلًا:

- واحد من الكبار قوي! طيب! أهلًا وسهلًا يا سي إيف مش عارف أيه! شرفت وآنست ياخويا!

وحرك شفته مخرجًا صوتًا ممطوطًا، ثم أردف:

- إياك تكونشي البت راشيل هيَّه اللي جابتهولك، أكيد هيَّه، هتخيبك إنتي كمان جاها ضربة في قلبها هيَّه وأبوها وأمها في ساعة واحدة.

فتوقفت جدتي عن الأكل واستدارت إليه مستاءة، وأشعل هو سيجارته على عجل وتهيأ للشجار.

الحمد لله..

لم يتطور الأمر، أسعفنا جرس الباب ودخل علينا خالي شمعون.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت المرة الثالثة أو ربما الرابعة، التي أراه فيها منذ أن أتيت إلى باريس.

وآلمتني هيئته..

مهموم شاحب ونحيل في كل مرة ألقاه فيها عن السابقة، وهندامه - والعياذ بالله - كهندام الشحاذين..

سلم علينا بوجه كابٍ وعينين لا تركزان في وجه أحد، قبضة يده هي وحدها التي كانت موفورة الصحة، وكأنما انتفخت أصابعه قليلًا وتحجرت حوافها من طول الإمساك بالمقشة والرمح بها في شوارع باريس، فخالي خريج كلية التجارة بجامعة الملك فؤاد[8] والذي كان رئيسًا لفرع داود عدس بشارع الأزهر، لم يوفق في اختيار عمل مناسب له هنا وتقلب في عدة مهن كل واحدة منها ألعن من الأخرى، إلى أن استقر به الأمر كناسًا في بلدية باريس بعقد موقوت.

طلبت منه جدتي الجلوس، غير أنه قال بصوت خافت:

- معلش يا ماما ورديتي قربت ومستعجل، أنا كنت عايز البابا بس في كلمتين على انفراد.

فأخذه جدي من يده ودخلا إلى غرفته، وقالت أمي بقلق:

- ماله شمعون يا ماما؟

تنهدت جدتي:

- تلاقيه يا بنتي على الحديدة وعايز قرشين من أبوكي يكمل بيهم الشهر.

- يكمل بيهم الشهر! دا إحنا لسه...

وبادرتني مستفسرة:

- هو إحنا كام النهارده يا جلال؟

لم أكن أعرف في أي يوم نحن! ولا أظن أن أحدًا في البيت كان يعرف! كنا نأكل ونشرب وننام، وكل يوم كالذي قبله.

قلت لها:

- مش عارف، يمكن يوم عشرة وللا اتناشر وللا تلاقيه يوم عشرين..

تنهدت جدتي ثانية:

- أول الشهر ولا آخره! كله من مراته المجرمة بنت المجرم، مخلياه زي الكلب الأجرب وداير يشحت من البابا مرة ومرة من خاله موصيري، دا غير السلفيات اللي بياخدها من البنوك.

وبنبرة متألمة:

- لا. لا. مش دا شمعون إبني! يا حسرة عليه! دا أنا ربيته على الغالي وآخرتها أشوفه قدامي مستني الإحسان واللقمة..

كان وجه جدتي متجهمًا منفعلًا، وتتكلم على نحو ينبئ عن مدى الخيبة التي ألمت بخالي شمعون.

تطلعت أمي إليها بقلق، ونظرت هي إليَّ قائلة بصوت آمر:

- روح يا ولد شوف لي علبة النشوق في درج الكومدينو ولا فين داهية.

رددت عليها ساخطًا:

- أولًا أنا مش ولد أنا ليَّه اسم! وثانيًا جدي قافل على نفسه أوضة النوم هو وخالي ومقدرش أفتح عليهم.

- أمال هتفضل قاعد كده في وسطنا تتصنت على سهاري الستات؟!

زفرت أمي قائلة:

- ماما! من فضلك خليكي معايا أنا وسيبك منه.

- هو صغير يا بنتي، مش يختشي ويقوم من نفسه يمكن الواحدة مننا عايزه تقول كلمة كده ولا كده.

إحساسي بأن جدتي تود طردي من المكان زادني تصميمًا على البقاء، فقلت لها بجفاء:

- يعني أعمل أيه يا نينة وإحنا لسه الصبح، أدخل واقفل على نفسي الأوضه ولا اقعد في الحمام!

فأشاحت في وجهي:

- خليك! خليك قاعد وكاتم على نفسنا!

والتفتت إلى أمي مكملة حديثهما الذي انقطع:

- النهاية يا بنتي مبتبطلش قولة هات الله يهد حيلها! وأخوكي يا عيني عليه ماهيته على قده، كناس! وهو الكناس من دول بيقبضوه أيه آخر الشهر.

وبانفعال ظاهر أردفت:

- هيَّه نسيت نفسها سارة بنت زكري! نسيت أصلها وفصلها دا أبوها اسم الله عليه كان بينضف المراحيض في معبد نسيم إشكنازي، وقال أيه كل شويه تقوله نفسي في الفستان ده يا شمشون! ويا سلام يا شمشون يا روح قلبي على الشنطة اللي شفناها في المحل الفلاني مش تليق على الجزمة بتاعتي أم فيونكة، وآهو كده على طول لحد ما نحلت وبر شمشون! منتش شايفاه خاسس وعدمان كده ليه ولو مسكتيه كله على بعضه تقدري تكوريه وتصريه في منديل وتحطيه في كفك!

- شمشون؟ شمشون مين يا ماما!

- بتدلعه الموكوسة!

فقالت أمي بصوت خافت ونبرة بطيئة:

- الله يخيبك يا سارة أيه اللي جرالك، إنتي افتكرتي نفسك واحدة ولا إيه! وأنت يا شمشون، يوه قصدي يا شمعون! الله يكون في عونك دا حالك في مصر كان أحسن من كده بكتير..

- لا تقوليلي مصر ولا مش مصر هو اللي عبيط، ولو كان سمع كلامي وسافر حيفا عند أخوه إيزاك كان زمانه النهارده حاجة تانية.

وأمسكت أمي بخيطٍ آخر للحديث مستدرجة جدتي:

- وهو البابا معاه فلوس علشان يساعد شمعون، دا على قد حاله ويا عيني...

وأمسكت وعيناها على فم جدتي، التي أسرعت قائلة:

- لا لا يا بنتي، دا معاه ومعاه وله حساب محترم في البنك، البركة في اللي بيبعته إيزاك وفي المقروضة راشيل، دي بتحط في حسابه يا ألف يا ألفين كل شهر دا غير فلوس الضمان الاجتماعي اللي بيقبضها أول كل شهر.

وأمي تهز رأسها:

- آه. آه. دي الواحدة على كده تتطمن على الآخر.

فثارت غدد الشك لدى جدتي، ورمقت أمي بتحفز:

- تتطمني؟ تتطمني على أيه يا بت!

فأسرعت قائلة:

- لا. لا. أبدًا مفيش حاجة.

- آه.. وتعرفي يا كاميليا إن بنت اللذينا دي قال أيه عايزه تروح البتاع ده اللي اسمه (الليدو)، وقالت لشمشون بتاعها يقول لراشيل علشان تتصرف له في تذكرتين، المضروبة عايز تروح (الليدو) زيها زي السواح والناس الأكابر! دي التذكرة بالشيء الفلاني والست من دول لازم تكون لابسة مش عارفة أيه وأيه وكلها بتلمع والراجل على سنجة عشرة، حاجات مش بتاعتنا يا بنتي!

وقلت أنا:

- أنا عارف الليدو يا نينة، راشيل وريتهولي لما كنا سوا في الشانزليزيه، دا مسرح فخم قوي والكرسي اللي فين، اللي في الآخر خالص تذكرته بالشيء الفلاني.

- آهو هو ده يا إبني، بقى سارة وللا حتى شمعون وش الحتت دي! عايزه بسلامتها تحط إيدها في إيده ويدخلوا (المرسح) المحترم ده مع أولاد الذوات، طيب يا بنت زكري طيب ولسه ياما هنشوف!

وانقطع الحديث بخروج جدي وخالي، الذي بقي معنا بإلحاح من جدتي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ثم بدأ الكلام ثانية..

عن خالي إيزاك الذي باع السوبر ماركت الذي يملكه في حيفا وتفرغ للاستيراد والتصدير، وهارون زوج خالتي بيلا الذي تحسنت أحواله وبان عليه العز فجأة.

قالت جدتي:

- ولا يدخل في دماغي كلمة واحدة من الكلام اللي بتقولوه، تقولوا شاطر، تقولوا بيفهم في البيزنس، تقولوا مش عارفة أيه! ولا أصدق، ومن الآخر كده دا راجل مشيه بطال وأكيد بيشتغل في البودرة..

فضرب جدي كفًا بكف:

- لا حول الله.. بودرة أيه يا إيڤون، بتجيبي الكلام ده منين! إحسني الظن دا جوز بنتك.

- إنت اللي على نياتك يا أبو إيزاك وكل الناس عندك ملايكة! طيب فهمني كده منين (أبو زلومة) ده يشتري شقة في الشارع اللي اسمه...

ونظرت إلى خالي طالبة المساعدة، فقال:

- اسمه (إنا) يا ماما.. شارع (إنا)..

- (إنا)! إلهَي تئن طول الليل يا هارون يا ابن فريحة، والشارع ده يا حبيبي حاجة كده زي الشارع بتاعنا؟

- بتقولي أيه! أوه هوه.. وأيش جاب لجاب! دا شارع أبهة وفي أحسن حتة ويدوبك خطوتين ويبقى الواحد في الشانزليزيه.

- آه يا ابن الكلب يا هارون! ودفع حقها كاش على كده؟

- أيوه كاش واسألي حتى راشيل.

- سمعت يا زكي! سمعت اللي بيقوله ابنك.

ومصمصت شفتيها، وهي تميل على البنسة التي سقطت من شعرها:

- ولا العربية اللي راكبها! واللبس والسهرات والمسخرة، زهزهت لك يا أبو زلومة ياللي أول ماجيت هنا كنت بتكمل عشاك نوم!

أصابت جدتي عندما أطلقت على زوج ابنتها هذا الاسم، فقد كان له بالفعل أنف خطير.

أنف مهول يندر أن تلقاه على وجه آدمي، وله نتوء من أعلى لا أعرف من أين أتى أو ما هي فائدته! وإذا لاح لك زوج خالتي، ولو من بعيد، كنت تلحظ أنفه على الفور وتقول في نفسك: بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله! واستحالة أن تقاوم نفسك من تأمله، أو تكف عن شكر الله على أنه لم يهبك واحدًا مثله.

ولما زل لسان جدتي مرة وقالت له في مشاجرة نشبت بينهما في مصر: إخرس يا أبو زلومة، ترك البيت غاضبًا وقاطعها سنة كاملة إلى أن تدخل أولاد الحلال، وبعد الصلح كان يتحسس كثيرًا من هذه المسالة (ويا داهية دقي) لو ضبط واحد منا يحدق في أنفه، فساعتها كنا ندخل في شد وجذب وأحيانًا خصام وحلفانات بأن الأمر أتى بغير قصد.

كانت زياراته لنا في شقتنا القديمة بالظاهر شيئًا مربكًا وكنا نعمل لها ألف حساب، حتى جدي هو الآخر كان يحتاط ويخفض مستوى بصره إلى مستوى

أقل من مستوى منخار هذا الهارون، لا يرفعه إلا لضرورة، ويشدد علينا بأن نحذو حذوه.

المشكلة كانت فيَّ..

فقد كنت صغيرًا أيامها، وعاجزًا عن ضبط إيقاع عيني والمرور بها خطفًا على أنفه كما كان يفعل الكبار، وكثيرًا ما ألهبت أمي أذني بالقرص منبهة عليّ بأن أقتصد في النظر إلى وجهه.

أمتثل وأومئ رأسي بالإيجاب، فتقول:

- إنت عارف لو بحلقت في وشه! الليلة مش هتعدي على خير والقعدة هتنقلب غم.

وتحتار في أمري برهة، ثم تقول:

- وللا أحبسك في الأوضة.. ها.. أحبسك؟ فاكر المرة اللي فاتت، كنت هتفضحنا! فاكر يا ولد لما زغدتك في كتفك ساعة لما أونكل هارون كان حاطط المنديل على مناخيره وعمال... فاكر. آه يا مضروب يا عديم الأدب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يرق لجدي كلام جدتي عن زوج ابنتها بالسوء فغير مسار الحديث، سألني وهو يتجهز لإشعال لفافة تبغ:

- وانت يا جلجل أفندي ناوي على أيه؟

تطلعت إليه بلا كلام، ففتح هو الموضوع..

وبدأت جدتي في الرذَالَة..

اقترحت أن أعمل كناسًا مع خالي، أو في كار الزبالة مع حبيب أصلان زوج قريبتها حنونة.

هببت من المقعد غاضبًا فأسرعت أمي إليّ، وأشار لي جدي بأن أبقى وهو يرمق جدتي بوجه عابس.

وتدخل خالي:

- زبالة أيه! وكناس أيه يا ماما! دا شغل قلة قيمة ويهد الحيل وطول النهار يا المطر يا السقعة بتلحس في قفا الواحد.

ثم ابتلع ريقه:

- إنتي بتتكلمي جد؟!

- جد وجد كمان! وفيها أيه مش يأكل نفسه! وهو أحسن منك في أيه ما انت يا حبة عيني ماسك المقشة وراضي...

قاطعها خالي:

- أنا وضعي مختلف واستاهل اللي أنا فيه بعد ما كنت (بيه) في مصر وتحت إيدى موظفين!

وغامت عيناه:

- ومن فضلك قفلي على السيرة دي اللي توجع القلب.

كان جدي يدغدع شفته السفلى بأسنانه وعيناه على جدتي، ولما فرغ خالي من الكلام رفع كفه في الهواء تجاهها:

- بقولك أيه يا إيڤون خلي النهار يعدي على خير! ويا بنت الناس يا تقولي كلام موزون ياتفارقينا مشكورة على أوضتك.

فانتفضت غاضبة واتجهت إلى المطبخ وهي تغمغم بكلمات لا تصلنا واضحة، وجدي يشيح بيده من خلفها ويقول:

- أيه الخبل ده! حضرتها عايزه العيلة كلها تبقى كناسين، مش كفاية واحد!

ونظر إلى خالي:

- متآخذنيش يا ابني.

لم يبال به خالي، أمسك بمعصم يدي وهو يقول بغيظ مكتوم:

- يعني مش كنت رجعت مصر أحسن وكملت تعليمك هناك، كنت ريحتنا وريحت نفسك، عجباك قوي البهدلة اللي أنا فيها!

ثم وهو ينفض يده من يدي:

- أنا عارف أيه بس اللي رجعك من المطار! تعالى يا فالح وأنا أشاور لك على عشرة وللا عشرين واحد يهودي مننا مستعدين يسيبوا أشغالهم ويرجعوا مصر من تاني! لا هم عايزين الكرواسون والباتيه وبنجور وهالو وبردون! بيقولوا كفاية علينا الكشري والجبنة البيضة والسميط وأهلا يا حاج وإزيك يا بيه.

واشرأب جدي بعنقه متابعًا خالي، الذي أخذته الحماسة وبدا كلامه كالهتاف:

- أيوه يرجعوا.. ومستعدين يعملوها النهاردة قبل بكرة وأنا أولهم، معايا الجنسية الفرنساوية آه، لكن كذاب اللي يقول إني مطمن وعايش بين أهلي وناسي! لا لغتي لغتهم ولا طبعهم طبعي ولا عيشتي عيشتهم، لا أنا منهم ولا همَّه مني، دا أنا عامل زى التايه اللي ماشي يتلفت يمين وشمال! فين لما كنت عايش في ميدان السكاكينى وعندي عربيه فيات 1100 وأروح وآجي كل يوم...

ولم يكمل، سمعنا جدتي تزوم من المطبخ، وأشاحت أمي في وجهه:

- إصحي لكلامك يا شمعون وابعد عن ابني، جلال هيفضل قاعد هنا في حضن أمه والناس اللي إنت بتتكلم عنهم دول همَّه الفاشلين اللي زيك!

- فاشلين! الله يسامحك..

وأخذ هو وأمي يتجادلان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يخف جدي امتعاضه من هذا الجدل الممض، ولما زاد الأمر صاح في الاثنين فسكت خالي وقامت هي إلى المطبخ بإيعاز منه؛ لإعداد أقداح الشاي.

ظل واجمًا بعدها يحدق في جرح قديم غائر بكلوة يده، ويتحسس ثنيات الجلد الخشنة المتراكمة حول مفاصل أصابعه. ولما دققت النظر فيه بدا لي وكأن دمعة تتكون عند حافة عينه اليسرى، تأكد ظني لما وجدته يمسح هذا الموضع بإبهامه. أظن أنه كان متأثرًا بكلام خالي، فما أن تأتي سيرة مصر في أي حديث حتى يجن شوقه إليها، ولو كانت الكلمة كلمته لقام من فوره وحزم حقائبه راحلًا إليها، أما خالي فكان جالسًا يتأمل فردة حذائه التي تدلى لسانها.

سألني جدي فجأة عن طربوشه القديم الذي تركه بمصر منذ ما يزيد على سبع سنين، وعن صورة أبي حصيرة!

هل أحضرناهما معنا؟

قلت له: لا أعرف، الماما هي التي كانت ترتب الحقائب.

- الماما!

قالها بضجر ونادى عليها فلم تجب، ومرة ثانية بصوت أعلى غير أنها لم تسمع أيضًا، فانثنى يعدل فردة شبشبه المقلوبة ثم مال على خالي شمعون يتحدث معه.

جهاز السمع لدي جدي كان معطوبًا بعض الشيء، ولذا لم ينتبه إلى أن أمي كانت مشغولة عنه بشجار مكتوم مع جدتي، فجدتي وإن كانت ممتعضة من حنين خالي لمصر، إلا أنها كانت تؤيد وجهة نظره في أنه من الأفضل أن (أنكشح) أنا من هنا وأرجع إلى مصر، وأمي لا تطيق منها هذا الكلام. ويبدو أن الشجار قد تطور وتلقت أمي ضربة من شيء في يد جدتي، إذ سمعنا أنا وخالي خبطة تلتها آهة مكتومة انقطع بعدها الكلام.

وأتت أمي تحمل صينية الشاي بين يديها، ووجهها في لون الكبدة النيئة من شدة الحنق، هذا غير الكدمة الطازجة التي بأعلى حاجبها الأيمن.

لم يلحظ جدي ما ألم بها، أما خالي فرمق الكدمة بنظرة خاطفة؛ غير أنه لم يعلق كي لا تتعقد الأمور.

أمسك جدي بقدح الشاي من يد أمي وتذوقه، ثم قال لها: ليس له طعم! من أين اشتريتموه؟

لم ترد عليه، ولم ينتظر هو الآخر كي تجيبه التفت لخالي وسأله: إن كان يزور أخته بيلا، فأجابه بأنه لم يعد يراها، فهز رأسه وقال:

- آه. طيب.

وطلب مني أن أذهب إلى المطبخ وآتي له بنتفة من ثمرة جوزة الطيب التي اشتراها بالأمس، ولما عدت بها وضعها تحت لسانه وهو يقول:

- آهو الواحد يغير طعم بقه مطرح الشاي المقرف بتاع الماما..

وهي ترمقه..

وبدأ في الحديث عن حلم رآه، ونسي أمر الطربوش وصورة أبي حصيرة.

قال: إن جده الأزرع الكبير أتى له في الحلم يتبختر في جلباب أبيض واسع ويخفي شيئًا وراء ظهره، فأسرع إليه معتقدًا أنه كيس حلوى كالأكياس التي كان يشتريها له في الأيام الخوالي، فإذا هي مقشة ليف نزل بها على رأسه ثم بصق عليه.

وسألنا عن تفسير لهذا الحلم؟

كل واحد منا قال شيئًا، وهو يتابعنا متأففًا من قلة مداركنا! وبعد أن فرغنا قال لنا: إننا كلنا جهلاء ولا نفهم شيئًا في تفسير الأحلام، والحكاية كلها أن الأزرع الكبير غاضب منه لأنه ترك بلده ووطنه.

قال خالي وهو يقلب كفيه:

- وهو أيه اللي دراه إننا سبنا مصر؟ دا متوفي بقاله ييجي سبعين سنة!

وجدي يرمقه بدهشة:

- دراه! بتقول دراه! وهو لو ميدراش كان جالي ليه وبهدلني في الحلم! معلوم عارف..

أخذته الجلالة بعدها وأشعل سيجارة من أخرى (وهات يا حكايات)، وكلها حكايات حدثت من ستين عامًا أو يزيد، أيام أن كان صبيًا في محل سوسو مزراحي بالموسكي.

يبدأ أولًا بحكاية ثم يدخل فجأة في حكاية أخرى، رغم أن الحكاية الأولى لم تكن قد انتهت ولاتزال في ذروتها، وحين يلفت واحد منا نظره إلى ذلك أو إلى خطئه في أسماء الأماكن والشوارع أو التواريخ، يصمت برهة وهو يحدق في وجوهنا ثم يقول:

- آه. آه. طب صبركم عليِّه بس..

ويبدأ في الحكاية الأولى من جديد، ونحن نتثاءب وخالي أكثرنا مللًا.

انتهزت أمي توقفه عن الكلام وانشغاله بإزاحة رماد السيجارة الذي سقط في حجره، وقالت له على الفور وبلا مقدمات:

- خلينا في المفيد يا بابا، أنا عارفة قد أيه جلال غالي عليك وأنا طمعانه في مساعدتك له علشان يكمل تعليمه هنا.

هبط قليلًا بعنقه وهو يميل نحوها برأسه، فأكملت بصوت خافت خجول:

- طب يعني وللا هندسة..

تصلبت ملامح وجهه ولم ينطق بكلمة، خالي هو الذي تكلم:

- يكمل تعليمه هنا؟ وطب وللا هندسة! إنتي باين عليكى مش عايشة في الدنيا ولا داريه بحاجة.

فصاحت فيه:

- ملكش دخل إنت يا شمعون.

غير أن جدي والذي كان بالفعل في مأزق، أشار لها بأن تهدأ وتنصت إلى كلام خالي حتى النهاية.

فقال خالي:

- اسمعيني يا كوكو، التعليم مش حاجة سهلة، التعليم عايز مصاريف وعايز لغة وعايز وعايز، دي حكاية كبيرة ومحدش فينا يقدر عليها.

وبعد شد وجذب صرخ فيها:

- فوقي بقى واتكلمي على قدك! هو إنتي فاكرة ابنك من عيلة سوارس وللا من أحفاد القطاوي باشا! دا البابا راجل فقير ويدوبك ماشي بالعافية.

وجدي يخفض رأسه ويتلصص بعينيه.

وأطلت جدتي من باب المطبخ، تساند خالي شمعون:

- عايزة تدخليه كلية الطب يا ست كوكو! طبيتي ساكتة إنتي وهو في ساعة واحدة! ومين يا عين ماما معاه فلوس يصرفها عليه، هو إحنا معانا حاجة، متقولها يا زكي إنت قاطع النفس ليه!

تسحبت مني عيناي إلى بنطال خالي الزيتي المتسخ وحذائه الكوتشي الكالح والسويتر الرخيص المليء بالجيوب، وطاف ببالي عم طلبة ببذلته الميري المهترئة، وهو يكنس شارعنا القديم في حي الظاهر.

خلت نفسي أنا الآخر أقبض على مقشة بيدي، سائرًا على هدي هذين الكناسين العظيمين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6

وبدأ جدي في الخروج من البيت..

فمنذ أن دخل علينا الشتاء وهو إما في غرفته متربعًا على السرير يقرأ في التوراه، أو جالسًا على مقعده الأثير في الصالة يدخن ويتصفح المجلات القديمة أو الجرائد المصرية التي كانت تأتي إلينا من المتفضلين، راشيل أحيانًا كثيرة وخالي شمعون إذا كنا في أول الشهر، أو واحد من معارفنا يكون عندنا في زيارة ومعه شيء مكتوب عن مصر فيأخذه منه جدي.

غالبًا ما ينتابه الملل فيطرح ما كان يقرأ فيه ويبدأ في التثاؤب، ويكون هذا مقدمة لدخوله في غفوات قصيرة تمتد معه حتى ميعاد الغداء، وبين كل غفوة وأخرى كان يستوقف كل من يمر عليه.

يسأله عن أي شيء..

عن ساعة الحائط، معتقدًا أنها معطلة، فيجيبه: بأنها سليمة، عقرب الثواني هو وحده المعطل والبندول مكسور كما تعلم، فيهز جدي رأسه مؤمنًا على كلامه.

تعرض كل أهل البيت لهذا السؤال من قبل، أنا نفسي سألني إياه مرتين، مرة بعد أن أتيت بأيام ومرة بعدها بشهرين..

وقد يستعلم عن رائحة شياط اشتمها أنفه، أو يخرج سريعًا من غفوته وهو يدعك عينيه وينادي علينا كي نفتح الباب.

نقول له: لم يدق الجرس، لم نسمعه.

يتهمنا بالصمم ويقوم هو بنفسه ويفتح الباب فلا يجد أحدًا، يرجع إلينا مندهشًا ويقول:

- غريبة! دا أنا سامع الجرس بوداني الاتنين.

نسكت..

ثم تأخذه سِنة من النوم، برهة ويستيقظ سائلًا عن الصوت الآتي من المطبخ، يظنه ناجمًا عن قطة تعبث بالأواني.

نقول له: ليس في الشقة قطط، إنما الهواء الآتي من شباك المطبخ هو الذي يحرك الأواني الفارغة.

يقول: أغلقوه.

نقول: المزلاج مكسور.

يسكت متحسسًا جيبه ثم يطلب منا إحضار علبة الثقاب، نشير له عليها، تكون قد انزلقت منه خلف وسادة المقعد وجزء منها ظاهر.

وإذا لم يجد شيئًا يقوله، يسأل المار أمامه عن وجهته.

يقول له: الحمام!

فيرد عليه جدي: الحمام! آه طيب..

ويظل يتابعه حتى يواريه باب الحمام.

وفي الأيام شديدة البرودة كان يغلق على نفسه باب غرفته بعد الغداء (وهات يا نوم)، لا يصحو إلا إذا أيقظناه لتناول العشاء معنا، وكنا نلاحظ عينيه المنتفختين من طول النوم، ونقول: حتمًا سيظل ساهرًا الليل بطوله، غير أنه كان يتعشى ثم يفاجئنا بالدخول إلى الفراش قبلنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أسبوع بأكمله ونحن نتابعه وهو يصحو مبكرًا متأهبًا للخروج، ومن يراه يحسبه ذاهبًا إلى بلاد الإسكيمو.

البنطال من الصوف الثقيل الذي نسميه في مصر (صوف العسكري)، وأسفل منه سروال قطني طويل، وشرز أسفل القميص وآخر أعلاه ثم سويتر من الجلد الصناعي لا مسام له.

ويضع البالطو فوق كل هذا!

البالطو، وحق الله، كان تحفة زمانه وليس له نظير، سواء من حيث الطول المفرط كبلاطي عساكر الهجانة أو الخفراء في الريف، أو في (موديل) الصدر أو (حردة) الكتف. لا أصدق أبدًا، ومهما حلفوا لي بأغلظ الإيمان، أن له أخًا في باريس، فأكيد من بواقي ومخلفات الحرب العالمية الأولى وليس الثانية. ولا لون له تقريبًا، ربما كان لونه في البدء أسود أو ربما اللون الفيراني، وله ياقة من الفرو الرخيص نحل وبرها وصارت خشنه كالليف، كان جدي يشتكي منها ويقول: إن وخزاتها كالمسامير.

ولا يكتفي بذلك، يمد يده إلى الشماعة ويسحب كوفية يلفها حول عنقه، ويبريه كحلي فوق رأسه.

ويخرج..

يعود بعد مسافة زمن، جريدة الأهرام تحت إبطه وجائعًا، وإذ لم يعدوا له الطعام في دقيقة واحده يتململ ويعلو صوته.

تسأله جدتي: أين كان؟

يداري ضجره من السؤال بسعلات متكررة، والانشغال بأشياء تافهة.

تعاود السؤال، فيجيبها بصوت كالتمتمة: مشاغل.

تقول له: هل مررت على البنك في طريقك؟

يرد متأففًا: نعم. ولم يرد شيء من إيزاك حتى الآن.

يسكت ويقول بعدها:

- راشيل هيَّه اللي مواظبة، حولت لنا شيك بألفين.

تقول: بنت حلال.

- طيب أنا داخل أنام.

- والأكل؟

- أمال فين جلال؟

- آهو قاعد تحت مع الشيخ زفت..

- يادي الشيخ زفت..

- الأكل!

- آه الأكل، طابخين أيه؟

- دقية بامية باللحمة.

- الحقيني بيها.

يتناول الغداء على مهل وباستمتاع، ثم يبدأ في روتينه المعتاد، يستلقي على الأريكة وسيجارة في أخرى حتى تتحرك أمعاؤه، فيهب مرة واحدة طالبًا من جدتي أن تلحقه بعلبة الحقنة الشرجية الصاج، يخطفها من يدها مسرعًا إلى الحمام..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وهلت علينا راشيل بعد طول غياب..

البنطلون چينز ومحكم على الجسد، والبلوزة بيضاء كالحليب بها نقوش بارزة في منطقة الصدر، وعليها جاكت كحلي مفتوح من منتجات (كريستيان ديور).

قوامها - صحيح - قوام غلماني؛ لكنها تجذب البصر وظلها خفيف، ولو فردت شعرها لكان من الصعب مقاومتها.

أرادت قضاء اليوم معنا..

قالت: إنه بعد انتهاء الخريف خفت الرجل عن باريس وأمامها عمل خفيف من هنا حتى احتفالات رأس السنة، كل عام وأنتم بخير رحل عرب الخليج ولن يعودوا إلا مع تباشير الصيف، أما القادمون للكريسماس فقليلون وأغلبهم شوام أو من مصر.

قالت لها جدتي:

- يبقي حرَّصي على نفسك يا راشيل من الناس دي.

فجدتي رغم تحفظاتي الكثيرة عليها، كانت امرأة جادة لا تسمح بقلة الحياء أو تقبل انحرافًا، وإذا تصادف ورأت مشهدًا ساخنًا على شاشة التليفزيون كانت تقوم بغلقه وهي تلعن خاش أبي الممثلة والممثل والمخرج والجميع، وقد يصل الأمر إلى (ڤاليري جيسكار دي ستا) نفسه الرئيس الفرنسي آنذاك. الذي كان يخلب لبها فقط ويجعلها متأججة من الداخل وكأنها شعلة نار هي أفلام الأكشن أو مباريات المصارعة الحرة، التي يقف فيها رجلان كل واحد منهما أفحل من الآخر ويظلان يتضاربان بلا رحمة.

ردت راشيل على جدتي قائلة:

- أحرَّص إيه يا نينة! دول هم اللي يحرصوا مني، أنا مرشدة سياحية وشغلي محترم، خدمة قصادها فلوس آدي كل الحكاية.

- برضه حرصي حَكَم دول ملاعين وخصوصًا بتوع الخليج، عاملين سهتانين وكل واحد منهم تندب في عينه رصاصة!

- لا. لا. يا نينة! دا فيهم ناس طيبين كتير، واللي بيطمع منهم أقدر أوقفه عند حده.

وبحركة تمثيلية تقمصت شخصية الفنان توفيق الدقن، وحاكت نبرة صوته الغليظة وهو يقول عبارته الشهيرة: أحلى من الشرف مفيش.

ملت برأسي نحوها مندهشًا، فقالت:

- أصل الأفلام العربي مزاج عندي يا جلجل، وكل يوم والتاني أشغل الڤيديو وأشوف لي فيلم ولا اتنين، هو انت فاكرني فرنساوية دا أنا مصرية أبًا عن جد.

ثم صلَّبت عنقها وشنَّجت كتفيها رافعة ساعدها الأيمن في الهواء، وهي تقول:

- دا أنا راشيل والأجر على لله..

نطقت هذه العبارة مثلما ينطقها أولاد البلد في الأفلام والمسلسلات، واستأذنت أمي في ثوب من ثياب البيت، ارتدته وخرجت علينا به.. ثوب زهري فاتح يصل إلى قدميها وأكمامه حتى الرسغين، وله ياقة لا تكشف العنق، ورغم كل هذا الاحتشام والأدب كان الثوب مفتوحًا من الجانب حتى منتصف الفخذ.

رأته جدتي، فصاحت في راشيل غاضبة:

- إيه المسخرة دي يا بت! ارجعي اقلعيه منتش شايفه ابن خالتك قاعد معانا.

ووبخت أمي:

- وانتي صغيرة يا كوكو علشان تلبسي حاجات زى دي!

كمشت أمي قائلة:

- أنا برضه بقول كده، وهشوف لي صرفة فيه إن شا لله حتى أرميه.

حلت المشكلة بثوب آخر، وجلست راشيل على المقعد المجاور لأمي ومالت عليها برأسها تتهامسان عن خالتي بيلا التي طفح بها الكيل من زوجها.

تقول لها راشيل بصوت خافت، وعيناها على جدتها المقبلة علينا من غرفتها وفي يدها علبة النشوق:

- دا بيغيب باليوم واليومين ومحدش عارف بيروح فين! وساعات يجيله ناس نجرو (أفارقة سود) شعرهم أكرت ومعلقين سلاسل في رقبتهم وفي أيديهم، يدخلوا بحاجات ويخرجوا بحاجات وأشكالهم أشكال المجرمين.

وأمي تنصت..

- دا مرة رجع للماما في آخر الليل واتنين ساندينه! عمال يعرج يا عيني وواخد حتة بونيه في مناخيره! قعد يولول منها شهر بحاله.

فيبدو القلق على وجه أمي، وتسأسأ بفمها..

- ومش كده وبس يا تانت دا لايف على واحدة تونسية! قضى معاها أسبوع في (نيس)[9] جري ولعب والماما هنا نواح في نواح.

وزاد صوت راشيل خفوتًا، وهي تقول: إن أمها أخبرتها بأنه لو كانت جدتها عاقلة لجاءت وشكت لها.

توقف الهمس عندما أخرجت جدتي صفيرًا مكتومًا من أنفها، كانت قد فرغت للتو من قذف غبارة نشوق في الفتحتين، ويبدو أن الجرعة كانت أكثر من المعتاد فألهبت جهازها التنفسي العلوي وجعلت عينيها تدمعان، ورغم ذلك سمعت كل ما حكته راشيل لأمي.

قالت وكفها يدفع الهواء ناحية أنفها، ليخفف النار المشتعلة به:

- بيروح فين يا بت؟ بيروح فين ابن فريحة أفندي أبو قميص مزيت! وأيه حكاية مناخيره دي اللي بتقولي عليها؟ دي عاملة زى مناخير أبو الهول ولو قعدوا يسكعوها بونيات من هنا للصبح ولا هيجرا لها حاجة.

مضت عينا راشيل على وجهي خطفًا، ورمقتها أنا الآخر دون أن تشعر. شحب وجهها خجلًا مما قيل عن أبيها وجدها (فريحة أفندي)؛ غير أنها لم تتجاسر بأي رد على جدتي؛ فهي تعلم ما الذي يمكن أن يحدث لها لو أقدمت على ذلك.

عضت شفتها مغتاظة وحاولت تغيير مجري الحديث، قائلة لأمي: إنها سوف تمر عليها باكر لاصطحابها إلى شارع ريڤولي، فقد افتتحت محلات (سي آند أيه) فرعًا لها هناك والتنزيلات على المشتريات حتى نصف الثمن بمناسبة الافتتاح.

غير أن جدتي المصممة على تقصي خبر زوج ابنتها، صاحت فيها:

- بيروح فين التيس ده؟ ما تنطقي؟

- يوه يا نينة بقى! ما أنا قلت لك قبل كده إن البت التونسية واكله عقله على الآخر والظاهر إنه بيروح عندها.

- يقطع تونس واللي بييجي من تونس! اسأليني أنا عنهم، واحد منهم اسمه الشيخ زفت منكد علينا في العمارة هنا وآدي واحدة تانيه وبرضه من تونس عماله تشرب بنتي المر هناك، طيب بس لما ييجي زكي وأنا آخده ونروح عند البابا بتاعك وليه كلام معاه أبو زلومة ده!

ازداد ضجر راشيل من جدتي، ضايقتها كلمة (أبو زلومة).. لكن ماذا تفعل؟ فهي تعلم أنها تتحدث مع جدة متهورة، جدة لا حل لها، صحتها كما الحديد رغم أنها على أعتاب الثمانين، ومن الممكن أن تباغتها بالقفز عليها لو ردت عليها بكلمة لا تعجبها (وتبرك عليها وهات يا ضرب)، أو تقذفها بأي شيء في يدها حتى ولو كان آلة حادة، مقص مثلًا أو غطاء حلة! فسكتت. حاولت إنهاء الموضوع بالحسنى طالبة من جدتي ألا تقلق، بل وقبلتها على رأسها قائلة لها كي تطمئنها: إنه لو زادت مضايقات أبيها لأمها، فسوف تأخذها لتعيش معها في شقتها بسان چيرمان.

- أيه! أيه! تسيب الشقة وتيجي تعيش عندك، تفوت الشقة الجديدة لابن فريحه علشان يبرطع فيها هو والوسخة بتاعته.

أيقنت راشيل أنه لا فائدة، فجدتي تود فتح الموضوع على مصراعيه وهي لا طاقة لها على الحديث معها، فاستأذنتنا في الانصراف، أوصلتها حتى باب السيارة وكالعادة أخذت هي زمام المبادرة وقبلتني.

لم تكن القبلة هذه المرة قبلة أخوية على الوجنتين وإنما في الفم، بل وقرصتني من ذراعي على سبيل المناوشة قبل أن تطير بالسيارة من أمامي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وعرفنا سر خروج جدي..

فبعد أن غادرتنا راشيل بحوالى الساعة، جاء لنا منهكًا وجائعًا مثل كل مرة، أكل وشرب ودخن لفافتي تبغ، ثم العلبة الشرجية الصاج وخرج لنا بعدها مستريحًا من الحمام.

قلنا له: إن راشيل كانت عندنا فلم يكترث، ولما حكت له جدتي عما قالته عن أبيها حذرها من مغبة الذهاب إلى أبي زلومة فهو قليل الأدب كما تعلم، وأنه سوف يعالج الأمر بمعرفته، وإن كان لا يعول كثيرًا على كلام فتاة تافهة مثل راشيل.

وقال لي أنا وأمي: إنه بعد رجاءات ووساطات من أقربائنا اليهود، دبر لي عملًا في محل لبيع الأقمشة.

نكست أمي رأسها، فأردف:

- دا عمل محترم يا كاميليا، وجلال هيشوف الناس ويكسب فلوس ويتعلم لغة.

ولما ظلت ساكتة، ازداد صوته حنوًا:

- متقلقيش يا أم جلال، وياريت تصدقوني لو قلت لكم إن جلال عندي أغلى منك ومن شمعون وحتى الغايب إيزاك، دا أنا اللي مربيه على إيدي وكان بيكبر كل يوم قدام عيني.

وتهدج صوته:

- كل أولادي كبروا واعتمدوا على نفسهم مفضلش إلا هو، نفسي أطمن عليه وحكاية التعليم دي مش ناسيها، نصبر بس شويه والتساهيل على الله.

انحنيت أقبل يده فتركني مستمتعًا بما أفعل، ثم أخذ رأسي على صدره ويده تمسح على شعري، وعندما خفت دفقة الحنان التي اجتاحتنا، رنت في أذني كلمة (أم جلال) التي قالها جدي.

يسمونها هنا (كوكو)، جدتي وخالي وخالتي وكل الذين بدأنا نعرفهم، عندما ناداها جدي باسمها القديم (أم جلال) أعادني إلى حي الظاهر في طرفة عين، وأتت على بالي أمي الثانية (أم حسن) عندما كانت تأتي لنا بثياب البيت وتدعونا إلى الإفطار عندها في أول يوم من أيام شهر رمضان وتختم كلامها قائلة: أوعي متجيش يا أم جلال وإلا هزعل وهيبقى حق عرب، وعندما كانت تدخل علينا حاملة كعك العيد، وعندما.. وعندما.. وأحسست بوخزة، فقد تركت مصر دون أن أسلم عليها، وها أنا حتى الآن لم أبعث لها بكلمة واحدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الليل وقبل أن يأتيني النوم، همت في راشيل.

تجرأت وفعلت معها، ما لا أتجاسر عليه في الصحوة.

لم أنشغل طوال فترة سهادي لا بالوظيفة الجديدة التي أنا مقدم عليها، ولا بوعود جدي عن استكمال دراستي.

استهواني جسد راشيل.

ولم تأت نادية في بالي لا هذه الليلة، ولا لياليَ كثيرة بعدها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

7

أصرت أمي على أن أنام مبكرًا..

وقال جدي:

- الماما عندها حق يا جلال، يللا يا حبيبي على السرير دا أول يوم لك في الشغل ولازم تصحى نشيط وفايق.

غير أني لم أنم..

بقيت مسهدًا أتقلب في الفراش مفكرًا في هذا الهم الذي أنا مقدم عليه، فمن باكر عليّ السعي في طلب الرزق لأؤكل نفسي بنفسي كما تقول جدتي.

من باكر سوف أصبح صبيًا في حانوت قماش..

وإن كان لا يزال ثمة شيء في رأسي عن جامعة سوف ألتحق بها.. إن كان! فعليَّ إزالته بممحاة، فما وعود جدي إلا فض مجالس وكلام في كلام.

صبي في حانوت!

كلمة غريبة على مسامعي، أو حتى طرأت لي من قبل على بال.

لقاء بقائي في حضن أمي، سامحها الله، سوف أدع بلدي وكليتي ودنيا جميلة كنت أتطلع إليها، وأغدو غلامًا من الغلمان الذين يقتاتون رزقهم بالعمل في المحلات والدكاكين، وربما أفشل فيلفظونني كما فعلوا مع خالي شمعون ولا أجد أمامي إلا المقشة أرتع بها في الشوارع والطرقات وهكذا الولد كالخال، أو أنظف دورات المياه كالمهمشين والأفارقة السود، أو ربما تستهويني الحياة تحت الأرض فأصبح كلوشارًا [10] وأعيش على الإحسان!

ما عاد للكلام فائدة الآن..

وعلى أيه حال، هذا ليس بغريب على خريجي مدرستنا الثانوية وفصل ثالثة عشر بالذات، ألم نسأل مرقص أفندي معاون المدرسة ذات يوم، فقال لنا: إنه لم يسمع عن واحد من هذا الفصل أكرمه الله والتحق بالجامعة. كل خريجيه وعلى مدار عقود يملؤون الشوارع، كوائين وبقالين وباعة في محلات فسيخ، ومنهم من أصبح له باع في مجال الممنوعات.

قل في كلامك أيضًا يا مرقص أفندي: إن من أبناء فصل ثالثة عشر أيضًا من حصل على مجموع عال يؤهله لأن يصبح في يوم ما طبيبًا، غير أنه أبى ورحل إلى بلاد الفرنجة، ولا تقلقوا أو يشطح بكم الخيال فهو مثلكم، وعلى العهد، بائع في محل قماش.

عندما أجلسنا جدي أمامه وقال لنا ما قال، أمي هي التى نكست رأسها أما أنا فمر عليَّ الكلام مرور الكرام.

لم أنطق بكلمة.. بحرف.. أو حتى اكتسى وجهي مسحة هم أو بدا عليَّ استياء، كأن الأمر لا يخصني! كنت مشغولًا بالقبلة التى منحتني إياها راشيل! ملهيًا بجسدها الفائر الذي استثار كوامن جسدي وخفاياه. أشياء صحيح أني أعرفها من قبل، لكن قلبي كان يذويها ويؤخرها، كنا أنا ونادية مهمومين بقابل الأيام، وليس بدفقات اللذة والتحام الأجساد، كنت أهيم في روحها وليس نهديها، تأسرني عيناها النفاذتان المغداقتان، لا خصرها وساقاها الملفوفتان. لم ننشغل بنشوة، إنما بحياة ذات أضلاع يكون لنا فيها آمال وأولاد وأحفاد، حياة عندما آخذها فيها بين ذراعي فلأني أنشد حنانها، ومثوى لي ألجأ إليه، وعندما أراها خجلى لا تتكلم فإني أعرف أنها تتكلم، ويوم تلحظ صمتي وأني لا أقول فهي تدري بأني أقول.

كنا نتكلم ونحلم، ولا نعلم أن الدنيا تعد لنا وتدبر..

فقد هبطت راشيل على سمائي، أعادتني إلى بدائيتي، إلى حيث الذكر والأنثى، ولبثت على هذا الحال يومين أو ربما ثلاثة، إلى أن قالوا لي: قم إلى الفراش فمن باكر سوف تتجه إلى الحانوت.

فكم أنا ولد تافه لا وزن له..

لم أفعل أي شيء، أو أفكر، أو أحلم حتى بمعجزة تنقذني قبل فوات الأوان، معجزة تعيدني على الطائر الميمون إلى مصر وتجلسني على مقعدي الخالي بطب الدمرداش.

سكت..

تغافلت..

انشغلت بسمانتي راشيل الممتلئتين وثدييها اللذين يدعوانني إلى التلصص عليهما، ومتابعة حركتهما كلما مالت أو انثنت.

ألست أستحق الرثاء، وعليَّ تقبل نصيبي صاغرًا كالأرامل والأيتام!

وحتى إن رضيت، فلا لغة تشد أزري أو تجربة أو أعرف أحدًا في هذا البلد الغريب سوى الشيخ منجي العياري وأهل أمي القليلين، والشارع الذي نسكن فيه وشارع أو شارعين آخرين..

هذا كل ما أعرفه، ومطلوب مني الآن أن أدخل في عداد الطبقة العاملة، أن أصبح واحدًا من أفراد البروليتاريا الكادحين..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

منذ أن دخلت إلى الفراش وحتى جن بيّ الليل، وأنا أشعر بأني على حافة شيء..

شيء يبتلع.. وخطوة واحدة وتنزلق قدماي وأهوي فيه..

في فراغ معتم وأكيد مهلك..

دنيا جديدة في انتظاري..

دنيا ليس فيها كتاب التشريح وسماعة الطبيب، إنما بالات قماش أحملها على كتفي من هنا لهناك، وتعال يا ولد! واذهب يا ولد! وما هذا الذي فعلته يا ولد!

دنيا جافة خشنة أصحو فيها (من نجمة) مهرولًا إلى محطة المترو، كي لا أسمع كلمة من الخواجة فلان أو يرمقني غاضبًا الخواجة علان.

أدخل في زمرة المهمشين والهلافيت وقليلي الحيلة الذين يملؤون محطة بارباس في هذه الساعة المبكرة، ولا يعرفون شيئًا عن الذوق واللياقة. يرفسون ويضربون بالكعب ويلكزون بالكوع عند الصعود إلى المترو، وعرق وروائح تهبش الأنوف ولا تقول أبدًا إنك في بلد النور والعطور.

وأقبض راتبي آخر الشهر، والذي هو بالقطع قليل، ألبس وآكل وأشرب وهكذا الشهر يجر شهرًا، ومهما كبرت صغير!

يا..الله!!

كنت ضائعًا ليلتها، مسكينًا، وجزء مني اسمه الأمل أعلنوا عليه الحداد!

كنت خائفًا من شيء على وشك الانقضاض عليَّ..

شيء لا قلب له اسمه المستقبل والأيام والليالي الآتيات..

شيء قاتم كريه يستهين بالضعفاء، وكأن له مخلبًا من حديد يمسك بكاحل القدم وليس لي منه خلاص..

شيء تفطن لوجوده غير أن حواسك لا تدركه! تظنه ساكنًا وهو يقترب! وأيقنت كل اليقين أن خيبتى أشد وأعتى من خيبة خالي شمعون.

وكما يقولون في الأمثال، تجر النوائب بعضها بعضًا..

فقد أخذتني نفسي من الهم الذي أنا فيه إلى هم آخر، الهم القديم؛ حيث كان بعض الأولاد الجُهّال الملاعين يتأففون من صحبتي ويعيرونني بأمي! في شارعنا القديم، وفي المدرسة، والإهانات والعراك، ونادية التي استكثروها عليَّ..

وانتابتني رغبة في البكاء، رغبة تغلف شعورًا عميقًا بالضجر من هذه الدنيا.. ومرارة تطفو في الشرايين، تقلل جريان الدم، تجعله آسنًا، لزجًا.. والجسد هامد، خائر، وتولد حنقًا وحقدًا لا أدري لمن يتوجهان؟!

لنفسي التي أبت الرحيل من هنا، عندما واتتها الفرصة..

أو لأمي التي أغوتني بها، وسلسلتني في أقدامها!

أم لأهل أمي كلهم، الذين هنا، والذين في كل مكان، الذين يتوجس منهم الناس ويحذرونهم!

أم لأبي الذي مات وتركني..

أما كان أفضل لو التفت لدروسه وكليته، أرسله أبوه الشيخ عبد الحميد المنشاوي ليلتحق بكلية الحقوق ويصبح محاميًا أو قاضيًا.

فليمكث اليوم بطوله على مقعد الدرس يتابع الأساتذة والمحاضرين! يأكل الكتب أكلًا ليحقق حلم أبيه! يستذكر دروسه ويكف عن هذا العبث! غرام! وحب! وزواج! وقع أسيرًا في شباك حسناء يهودية، هَوِيَها وهوته وتجرعت أنا المر! أما كان أولى لو لم يلتقيا وبقيت أنا محجوبًا في علم الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

8

وشاء الحظ ألا أذهب إلى محل (بوشار) للأقمشة صباح اليوم التالي، فقد ضربت باريس موجة صقيع مهلكة وقال جدي: ننتظر حتى يتحسن الجو فعمنا بوشار باق ولن يطير.

ندف ثلج كالفراشات تهبط علينا من السماء، لا تكل ولا تمل والحرارة أدنى من الصفر بعشر درجات، أما الرعد فكان يختلي بنا في الليل وكنت أنا وأمي خاصة نحسب أنه لن يطلع علينا النهار.

وانقطعنا بالطبع عن الخروج من البيت، أو حتى النهوض من الفراش إلا للأمر الضروري كالأكل أو الحمام، ولم تُجْدِ أجهزة التدفئة نفعًا فوضع كل منا على جسده أقصى ما يستطيع حمله من ثياب. أنا - نفسي - ارتديت ثلاثة أطقم من الملابس الداخلية الواحد منها فوق الآخر وشرزين أحدهما له رقبة غير البيچامة والجورب الصوف وتلفعت ببشكير، أما جدي فقد غلب الجميع ومن كثرة ما وضع على نفسه من ثياب بدا منفوخًا وأشبه برواد الفضاء.

وكانت فرصة له ليجمعنا حوله ويسمعنا الحكايات، استفتحها بواحدة وقعت له في شبابه الأول عندما كان يلعب كرة القدم في خط الدفاع ضمن فريق (شباب السكاكيني)، وتقابل فريقه مع فريق مغمور من الأقاليم على ملعب من ملاعب الساحات الشعبية التي كانت تعج بها القاهرة قديمًا. ولعب في لعب، والجماهير تهتف وتصيح إلى أن انتهت المباراة بهزيمة مؤلمة لفريق جدي، هدفين للا شيء، وبعد أن أطلق الحكم صافرة النهاية تجمع كل أفراد الفريق حول جدي وأوسعوه ضربًا وركلًا هم وبعض الجمهور، لفشله في اللعب ولأنه هو الذي أدخل بالخطأ هذين الهدفين في شباك الفريق!

وحكاية ثانية أيام طفولته بمدينة دمنهور، عندما ألقى أحد رفاقه حجرًا على كلب أزعر مشهور عنه كثرة النباح، فجرى وراءهما من شارع إلى آخر، إلى أن تعثر جدي وسقط على حافة بالوعة ماء. وحكاية في حكاية، ونحن قبالته أسناننا تصطك ولا نكف عن النفخ في أصابعنا التي أوشكت على التيبس، وغير منتبهين بالمرة إلى كثير مما يقول.

جدتي هي التي ذكرته بأنه سبق أن حكى لها حكاية دمنهور سبعين مرة، ولم يسقط على حافة بالوعة الماء كما يقول الآن، وإنما انحشر رأسه في مقلب للقمامة وأخرجوه بعد مشقة، وكان يومها فرجة ومضحكة للناس، فاحتد عليها غاضبًا ومصممًا على أنها بالوعة ماء وأنها تفتري عليه، فمن غير المعقول أن تكون أكثر علمًا منه بالذي حدث له في طفولته أو صباه.

ونظر إليّ أنا وأمي منفعلًا ويقلب كفيه فأيدناه بإيماءة من رأسينا، وبدا على وجهي أنا بالذات تعجبٌ من هذه الجدة التي تتجاوز الخطوط الحمراء، وتدعي بالباطل على عباد الله!

سرعان ما كان يتغير مزاجه ويشعر بالسأم منا، فيطردنا من غرفته متحججًا بأن رأسه ثقيل ويريد أن ينام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبتنا نشاهد على شاشات التلفاز صورًا مؤلمة لما تفعله الطبيعة بالناس، ونتابع الحوادث التي تقع للمركبات على الطرق العمومية المتجهة جنوبًا إلى (مارسيليا) و(تولوز) أو شمالًا حيث مدينة (ليل). ونسمعهم يقولون في نشرة الأخبار إن عربة نقل كبيرة أطاحت بعشرات المركبات هنا وهناك، وفي النشرة التالية يبلغوننا بأن مركبة في حجم الفيل أفقد الجليد سائقها السيطرة على المكابح، فانحرفت محطمة واجهة محطة وقود أو عدة أكواخ على الطريق.

وهكذا كل يوم، والموتى بالعشرات..

وغابت الشمس فلم نعد نعرف إن كنا بالليل أم النهار، وكسا الجليد كل شيء تقريبًا، السيارات الصغيرة والباصات، ومداخل محطات المترو وواجهات المقاهي والمحلات، بل وحتى المظلات التي يحمي بها الناس رؤوسهم والمعاطف (الووتر بروف) أو تلك المصنوعة من الفراء الثمين. غطت حبات الثلج كل شيء وتجمعت بالأكوام، حتى إنك تحتار.. فهل أنت قبالة شيء يمكن أن تأنس له يومًا أو على الأقل تتعود عليه، أم حيال خصم جبار، شيء بارد ميت، لونه الأبيض يذكرك بالأكفان.

موجة صقيع قاتلة لم تقع منذ خمسين عامًا كما يقولون، وكان حديث الناس لا ينقطع عن هذا الوحش الخرافي الذي اسمه الطبيعة بيده التي تبطش وقوله المسموع، لدرجة أن ثار النقاش في المقاهي والحانات وأحيانًا في محطات الإذاعة والتلفاز بين المؤمنين بالله - وهم كثيرون - وبين الملحدين - والعياذ بالله - عمن هو الفاعل الحقيقي.. الطبيعة وحدها؟ أم الإله.

وأشفقت قلوبنا على الكلوشار بالذات، فقد كانوا يعثرون عليهم كل صباح موتى وأجسادهم متجمدة على حواف الأرصفة وتحت البواكي وفي الأركان، مما اضطر بلدية باريس إلى إنشاء فرق طوارئ تقوم بتوزيع الأغطية عليهم والأطعمة وزجاجات النبيذ، وفتحت لهم محطات المترو كي يناموا فيها بدلًا من النوم في العراء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وعندما خفت حدة الصقيع، أخذني جدي إلى محل (بوشار).

كان الوقت مبكرًا وأنا لا أكف عن التثاؤب والبرد يلدغ أذني، وجدي بالبالطو - إياه - ومتخذًا كافة التحصينات من الكوفية إلى البيريه والقفاز، والبخار ينساب من فمه كلما تكلم أو أخرج زفيرًا.

خرجنا من باب العمارة واتجهنا صوب محطة (بارباس) بخطوات ثقيلة، ودون أي كلام، جدي ليس بيده حيلة بعد أن عجز عن تقديم خيار آخر لي فاستتر بالصمت، وأنا كالخروف الذي يجرونه من أذنه إلى المجزر وفات أوان الكلام بالنسبة له. وحام في بالي وقتها أول يوم ذهبت فيه إلى المدرسة الابتدائية، كنت خائفًا مرتبكًا مثلما أنا اليوم وثيابي أكبر من مقاسي بنمرتين على الأقل، كانت هيئتي كهيئة (ميكي ماوس)، وجدي إلى جواري بشوشًا لا يكف عن شد أزري، وليس خائرًا مستهلكًا كما أراه الآن.

ولجنا باب المحطة..

الزحام في هذه الساعة يكون في ذروته..

الناس تركض نحو أعمالها، وتبث الحياة شيئًا فشيئًا في شرايين باريس. أغلب رواد المحطة من البسطاء مثلنا، موظفون صغار وأصحاب حرف وعمال حديثو السن وكبار، خطواتهم سريعة ومناكبهم عريضة وطوال، يترقبون قدوم المترو بصبر نافد كأنما اللحاق بالعمل بالنسبة لهم مسألة حياة أو موت، فساعة الصبح هذه للجادين فقط ولا مكان للمتسكعين أو الكسالى ومن لا عمل لهم. وطلاب المدارس جماعات جماعات ويضفون البهجة على أرصفة المحطة، وجوههم خالية من أي مكر أو دهاء وأفعالهم ترسم الابتسامة على الوجوه وأحيانًا الضحكات وتذكر بالماضي اللذيذ، وروائح ورطوبة وصواريخ هواء تأتي من الفتحات، وسلالم كهربائية تئن بأحمالها من الناس.

والكلوشار - وقانا الله شرهم - عليهم الأغطية لا يبدو منهم إلا إصبع قدم أو كف يد ولا يزالون نائمين، قد يدهسهم أحد بلا قصد أو ينالون لطشة حذاء من رجل مسرع، وعندها يهب الكلوشار المجني عليه من رقدته لاعنًا أبا خاش الذي فعل هذه الفعلة، يكون الفاعل قد أفلت واندس بين الناس.

عمال النظافة بالمحطة وسائر المحطات غالبًا ما يكونون من عرب شمال أفريقيا ومعهم أفارقة وهنود ومن البرتغال، وكلهم منشغلون بإزالة الأوساخ التي خلفها هؤلاء الكلوشار الملاعين، زجاجات خمر فارغة بعضها مكسور وأكواب ورقية وعلب سجائر خاوية، ومعلبات وأشياء ملقاة هنا وهناك. وهم على ما يبدو يتحاشون المناطق التي احتلها الكلوشار خشية إيقاظهم، ومن

ثم نشوب المشاكل والشجار من أول النهار؛ فآثروا تركهم في حالهم مكتفين بمصمصة شفاههم أو صب اللعنة عليهم في سرهم، غير أن حالة اللاسلم واللاحرب هذه القائمة بينهم، سرعان ما تنقضي عندما يكتشف أحد العمال أن كلوشارًا آثر التبول أو التغوط في مكانه أثناء الليل بدلًا من الذهاب إلى دورة المياه. كان هذا العامل يصيح على زملائه فيسرعون إليه ويبدءون في تقريع هذا الكلوشار وشتمه بالأم والأب وبأقذع الكلمات ويظلون ينخسونه بالمقشات في ظهره أو رجليه، وعندما يفتح عينيه مذعورًا كانوا يشيرون له بتقزز على السوأة التي فعلها.

بعض هؤلاء العمال من العرب يعرف جدي، كانوا يتبسمون له أول ما يرونه هو وغيره من الركاب العرب، قائلين بنبرة مرحبة: "عالسلامة عالسلامة" و"مليح اليوم" أو "أيش حالك ياشيبة"، ويكون الرد عادة: "مليح مليح، أيش حالكم"، أو بعبارة "ماشي الحال"، وأحيانًا بالكلمة الفرنسية الشهيرة "ساڤا، ساڤا" وتعني: "تمام، تمام".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ومن محطة إلى أخرى حتى صعدنا إلى سطح الأرض، حيث ميدان (سان لازار) بأرصفته ذات الأحجار البازيلتية الكبيرة وباتساعه وامتلائه بالمحلات والفنادق من ذوات الثلاث والأربع نجوم. واستمرت السماء على لونها الرمادي وزخات مطر متقطعة بدأت في الهطول، ورغم ذلك لم تتوقف الحركة ولم يتراكم الماء. كانت البالوعات المزودة بآلات في داخلها تقوم بسحب المياه بشكل تلقائي، وظهر عمال النظافة بملابسهم البرتقالية وفي أيديهم مقشات بأطوال ومقاسات مختلفة وماكينات صغيرة وسوائل حارقة يزيلون بها الأوساخ التي علقت بجدران الأرصفة. والناس بالمعاطف والقبعات والشماسي ويسيرون بخطوات سريعة نحو أشغالهم، عشرات منهم خطواتهم أسرع ويكادون يهرولون صوب محطة سان لازار للقطارات، وهي غير المحطة التي خرجنا منها، وإنما محطة مخصصة لنقل الناس إلى الضواحي البعيدة كسان كلو وڤرساي.

انعطفنا أنا وجدي نحو مقهى بالميدان، جلسنا نتناول قدحي قهوة (إكسبريسو) ونتابع حركة الناس، وعندما انقطع المطر ولاح شعاع شمس في السماء انصرفنا.

الوقت لا يزال مبكرًا، فاقترح جدي أن نتمشى قليلًا..

بدأنا من شارع دي لاركاد..

شارع صغير، متفرع من ميدان سان لازار، وبعد عدة خطوات تقريبًا وإلى اليمين، يوجد فندق متواضع من ثلاثة طوابق ومسمى باسم الشارع.

استوقفني جدي قبالة هذا الفندق، ودخل هو ثم عاد مسرعًا وهو يقول متأففًا:

- خالك شاؤول دا راجل مش محترم! إداني ميعاد وملقيتوش، قالوا جاي آخر النهار.

قلت بدهشة:

- هو أنا ليَّه عم اسمه شاؤول!

- خالك يا ولد! خالك! خالك! صحيح إنت متعرفوش إنما هو قريبنا من بعيد من ناحية خالتك استر اللي..

كان جدي دقيقًا في مسألة الخال والعم هذه..

فكل من يمت لي بصلة قرابة من ناحية أمي فهو خالي، ولا يمكن وصفه بتاتًا بأنه عمي مادمت أنا من أب مسلم. فكلمة الخال في مثل حالتي تعني أني وهذا الخال من عصب واحد! دم واحد! فأنا يهودي، لدى جدي وغيره من اليهود المتدينين طالما أنجبتني واحدة منهم، يهودي! مهما صليت وصمت أو حتى حفظت القرآن كله، ولن يشفع لي عندهم ما هو مكتوب في شهادة ميلادي أو إقراري بالفم واللسان أو بالورق والقلم بأني مسلم! مسلم! مسلم!

وكانت جدتي وأمي على نفس العقيدة، وتظنان هما الآخريان أني يهودي، أما خالي شمعون وخالتي بيلا ومثلهما راشيل فقد كانوا أولاد حظ، وهذا الأمر لا يعني لهم شيئًا.

المشكلة بالنسبة لجدتي أنها لم تكن مقتنعة بي كحفيد لها، لا تشعر بأني أستحق أن أكون (ضناها) وتقول في السر والعلن: إن سبب (وكسة) أمي مرده تلك الزيجة التي تزوجتها من أبي، وثانيًا وهو الأهم أنها أنجبتني. أنجبت ولدًا عاقًا، لا لزوم له والدنيا من غيره كانت سوف تكون أحلى وأفضل للجميع. فمربط الفرس ليس في كوني مسلمًا أو غير مسلم، فأمر يهوديتي محسوم لديها مهما قلت أو فعلت، إنما المسألة مسألة نفوس وأرواح تتلاقى أو تتنافر، وشاء الحظ أن نكون أنا وهي من النوع المتضاد. وكنت أنا من جانبي لا أقابل نفورها هذا بتسامح ولين، فربما لو فعلت ذلك لكان الزمن طمس حنقها عليَّ وتقبلتني، إنما كنت أعاندها وأفعل معها كل فعلة وأخرى من الأفعال التي تلهب قلبها وتزيده سوادًا عليَّ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استمر جدي في سرد حكاية خالي شاؤول منذ أن ولد ببركة الرطل المتاخمة لحي الظاهر، حتى هاجر إلى فرنسا عقب حرب السويس مباشرة، ووصل به الحال إلى أن أصبح مديرًا لفندق دي لاركاد.

كان جدي يتكلم، وأنا أنصت لكلمة وتمر عليَّ عشر كلمات مرور الكرام.

ومن شارع إلى شارع حتى تخطينا مطعم (مكسيم) الشهير، كان لا يزال مغلقًا ورجلان لونهما أشد قتامة من البن الأسود وعليها (يونيفورم) المطعم وشارته يقفان أمامه، ويرمقان المارة من أمثالنا بنظرة تحفظ، لا - وحق الله - نظرة استعلاء كأنما نحن غير جديرين بالمرور على هذا الطوار والتطلع إلى حيث يأكل الأسياد. و(فركة كعب) وأصبحنا بحذاء كنيسة (مادلين)، كانت مغلقة هي الأخرى، فالدنيا يا حفيظ يارب برد.. برد.. بل ثلج! وأكيد القساوسة والشمامسة يغطون في النوم الآن، متدثرين بالأغطية ويأكلون أرزًا باللبن مع الملائكة. الذي كان موجودًا فقط امرأة عجوز بهلاهيل سوداء وحمراء ووجهها ملطخ بمساحيق فاقعة، وعلى رأسها قبعة كبيرة من الخوص، وتقعي بالقرب من درج الكنيسة. أظنها كلوشارة، بل وكلوشارة مزاجها رائق إذ كانت تنصت إلى موسيقى هادئة تنبعث من مذياع صغير في حجرها، وعيناها تائهتان في سحابات الدخان الخارجة من لفافة التبغ التي بين أصابعها، وغير آبهة البتة برجلَيْ أمن يحثانها بالحسنى على الرحيل من هذا الموضع الذي يؤمه السَّياح.

أخذتنا أقدامنا بعدها إلى شارع (هاڤر)، ثم شارع (أوبير)، فشارع (لوندر)، ولما أحس جدي بأننا ابتعدنا رجع بنا من طريق مختصر.

قلت له:

- يعني إنت متأكد يا جدي إنهم هيشغلوني شغلة محترمة مش الشغلانات إياها!

- قصدك المسح والكنس والحاجات دي! لا. لا. وهو احنا وش الكلام ده! دا أنا واخد وعد من خالك شاؤول إنك تبقى بياع قد الدنيا!

- يعني خالي شاؤول هو اللي..

- أمال! مش خالك من لحمك ودمك!

فهززت رأسي راضخًا:

- والمحل ده يا جدي بيبيع أيه؟ كستور وبفتة ورمش العين وحاجات زى كده..

- كستور أيه وبفتة أيه يا مُبارَك! الحاجات دي يا ابن الحلال مبتنبعش هنا، دا انت في صرة البلد وأحسن حتة فيها! الحاجات دي تلاقيها في المحلات اللي ورا الساكركير وللا في حواري بارباس أو في لوشاتيل، مش هنا يا جلال! بوشار دا تاجر مانيفاتوره كبير، ومتلاقيش عنده إلا الفرو الغالي والحراير وأقمشة السهرة بتاعة الستات والحاجات اللي بيلبسها الناس اللي فوق.

كنا قد اقتربنا من ميدان الأوبرا ولاحت لنا بمبناها العتيق، فجالت في بالي على الفور رواية الفرسان الثلاثة للأديب الفرنسي خفيف الظل (ألكسندر دي ماص)، عرفت أوبرا باريس من روايته هذه، التي اشتريتها -مترجمة- بقروش قليلة من على سور الأزبكية..

وصف لنا الأوبرا من الخارج والداخل: درجها، أعمدتها، مسرحها الكبير، البنوار الذي كان يجلس فيه الملك (لوي الثالث عشر) وحوله حاشيته بحللهم الفضفاضة وقبعاتهم الكبيرة وأحذيتهم المسحوبة من الأمام، والمؤامرات التي حاكها الكاردينال المحنك (ريشيلييه) للإيقاع بالملكة لولا الفارس الهمام (دارتينيا) الذي خاطر بنفسه وأنقذ الموقف في أحرج اللحظات.

وصفها لنا ألكسندر دي ماص بعبارات سريعة، وأكملت أنا الباقي من خيالي خالقًا أوبرا أخرى غير التي في الرواية أو الماثلة أمامي الآن، أوبرا من صنعي أنا! تخصني وحدي! بها قاعات أكثر فخامة من قاعات ألكسندر دي ماص، وقباب، وجوقة موسيقية بملابس مزركشة، وملك يجلس متجهمًا حزينًا، وكاردينال داهية ينظر بنصف عين ويضع فرنسا كلها في كف يده، وملابس وحركة وهمس وتوتر، وملكة نظراتها قلقة وعنقها جميل..

أشياء نسجها خيالي وأنا صغير، نسجها على مهل وبقيت حية في ذاكرتي إلى الحين كأنما وقعت بالفعل ورأيتها حقيقة لا خيالًا.

وأتت نادية على بالي فجأة..

ربما بسبب هذه الفتاة التي تعبر الطريق أمامي الآن وعلى رأسها إيشارب، لا أعرف لماذا ذكرتني بها رغم أن نادية لم تكن تضع على شعرها إيشاربًا!

هل لأنها تضم حقيبتها إلى صدرها مثلما كانت تفعل نادية بحقيبة المدرسة.. ربما!

أتت، فكدرني قلبي..

لم أتنسم عبيرها أو لاح أمامي طيفها منذ أيام، منذ أن تحولت بغرائزي نحو راشيل!

لعنة الله على راشيل! وعلى الأوبرا! وكل شيء!

مالي أنا والأوبرا! مالي أنا وفرنسا كلها! كنت مفتونًا بها وأنا صغير، وأهيم فيما كنت أقرؤه على ألسنة شخوص الروايات: مدام كوزيت، وجان ڤالجان، وأزميرالدًا، وسيرانو دي برجراك، وكوازيمودو الأحدب المسكين..

كنت أحفظ كلامهم، وأضيف عليه من خيالي وأنتقص.. وأهيم.

كنت أحب باريس وهي صماء لا تشعر بي، وعندما أتيت إليها أخذت مني نادية وأعطتني راشيل!

ولم تكتف!!

رشحتني لوظيفة خادم، فالصبي في حانوت ما هو إلا خادم أو يكاد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أمسكني جدي من يدي فجأة، ووجهه تعلوه النشوة:

- تعرف يا واد يا جلال أنا رجلي حفيت في ميدان الأوبرا ده..

وخشي أن يلتبس عليَّ الأمر، فأردف بنبرة عالية:

- مش الأوبرا دي، الأوبرا اللي في مصر، أصل كان فيه محل بتاع قطع غيار ساعات ورا جامع الخازندار وكنت رايح جاي عليه وسكتي ميدان الأوبرا. وأبص ألاقي بياعين الكتب مرشوشين رش على سور الأزبكية والناس إيه.. أمم أمم يا جلال! وبكام يا عم الكتاب ده؟.. بشلن يابيه! واللي هناك ده؟.. ببريزة يابا الحاج! طب وده؟ دي روايات الجيب، والواحده بنصف فرنك والاتنين بتلاته صاغ والأربعة بخمسة قروش، وخدلك جنب كده يا أستاذ وقلب براحتك..

ويلتقط أنفاسه.

- وللا تمثال إبراهيم باشا!

وأعاد على مسامعي مرة ثانية قصة جدنا الذي كان يعمل صرافًا في دائرة إبراهيم باشا، وسافر بالبحر مع رفاقه إلى (إيطاليا) ليحصي أملاكه التي هناك..

قلت له:

- قصدك اليونان يا جدي مش إيطاليا؟

- اليونان.. طبعًا اليونان! إيطاليا دا إيه.. مش تركز معايا وتفطن بقى للكلام!!

برهة وتأوه:

- هيه..

خرجت منه ممطوطة، متشوقة، ثم عاد إلى صمته الذي كان عليه أول ما خرجنا من باب العمارة، ومشينا مسافة كل منا هائم في واديه.

توقف فجأة:

- هو احنا فين؟

وتلفت حوله قائلًا بدهشة:

- يا خبر أبيض! مش هو ده برضك شارع (أوسمان)، أيوه أيوه هو.. دا على كده يبقى احنا عدينا محل بوشار!

وقفل راجعًا يبحث عنه، ثم لاحت في عينيه فرحة طفولية وهو يشير بيده:

- أهه..

وذكر لي اسم الرجل الذي سوف أقدم له نفسي، وهو يربت على كتفي بحنو.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما دلفت من باب المحل، أحسست بأن ساقيَّ خاويتان.

سألت بصوت خجول عن (مسييه رينيه)، فإذا هو مدير المحل وأدخلوني إلى مكتبه.

تفحصني بنظرة متأنية، ثم دعاني إلى الجلوس.

كان يتحدث ببطء لأفهم ما يقول، وعندما كنت أحدثه أنا بلغتي الفرنسية العرجاء كان يبدو على وجهه أنه يفهم بعض ما أقول.

نادى على رجل لبناني مهول الطلعة اسمه أكرم أبو الشوارب، وسلمني إليه.

وانقضت عدة أشهر وأنا أتقن الفرنسية يومًا بعد يوم، وأتعلم فنون التجارة وألاعيبها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

9

كنت عائدًا لتوي من محل بوشار ذات يوم، وعندما انعطفت تجاه البيت رأيت الشيخ منجي جالسًا على مقعد خارج المحل، ساقاه ممدودتان أمامه وعلى المقعد المقابل أحد زبائنه الأفارقة يلف شالًا مزركشًا على رأسه، ويتدثر بعباءة فضفاضة مزينة عند فتحة العنق بشريط من الساتان الأصفر، وعلى الأكمام وفي منطقة الصدر خطوط بكل الألوان.

عباءة غاية في المسخرة وهو نفسه معووج في جلسته، ويؤرجح بمشط قدمه صندله الذي هرسته الشيخوخة وفي أعلاه أبزيم صدئ، ناهيك عن سيره الخلفي المقطوع، والكلام - يا حفيظ يا رب - يخرج من طرف أنفه كأنما هو أحد آباء أفريقيا وشيوخها الكبار.

أعرفه..

اسمه (عبدو لاهي مامادو)، وكان فارعًا في الطول إلى حد يثير العجب، أما الوظيفة فكانت سباكًا في إحدى محطات المجاري، ولم أشاهده من قبل إلا (بالعفريتة) الكحلي وحذاء من المطاط يصل إلى منتصف ساقه، وساعتها كانت تجيء في خاطري حكاية الجني الذي خرج من القمقم. وطالما انتابتني الدهشة من حاله، فما وقعت عيناي عليه مرة وهو متوجه إلى عمله إلا وكان متعجلًا وينظر في ساعته كل دقيقتين كأنما وراءه هم كبير يود إنجازه، أما في أوقات الراحة فكان لا يكف عن الشجار مع غلمان الشارع المغرمين بمشاكسته، أو الوقوف أمام الباعة الذين على الأرصفة يتأمل المعروضات ويهرش في رأسه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كنا وقتها في موسم التنزيلات، محل بوشار كخلية النحل وأنا مهدود الحيل وكأن صافرة قطار تزعق في رأسي، فلم أشأ التوجه ناحية الشيخ منجي وهذا (المامادو)، أشرت لهما بيدي خطفًا وانحرفت صوب باب العمارة، إلا أن الشيخ استوقفني:

- جلال! إيجه (تعالى) يا ولدي.

أقلقني إيقاع صوته..

كان هامدًا محبطًا، ليس فيه شيء من حمية الشيخ وجلجلته.

أقبلت عليه فقام إليَّ مسلمًا ومسحة حزن تطفو على وجهه، أما المامادو فرجع بظهره إلى الوراء وأخذ يحدق فيَّ من أعلى لأسفل كأني عقلة إصبع وليس بشرًا.

وراعتني سحنته، فلم أكن أحسب أن وجهه عكر وأنفه مفرطح بهذا القدر، ولم أخف عنه امتعاضي من السنتين المذهبتين اللتين في مقدمة فكه العلوي واللتين تغير لونهما وطالهما الصدأ، ولا الجرح القديم الذي لا يزال أثره يغطي جانبًا لا بأس به من عنقه، أكيد رشه أحد الأشخاص عمدًا بسائل حارق أو كووه بالنار لفعلة فعلها!

تفحصني هو الآخر على مهل وأشاح بوجهه متأففًا، ثم أخرج من عبه منديلًا في حجم ملاءة الأطفال وأخذ يتنخم فيه بضجيج وصوت أعلى من صوت النفير، حتى إن الشيخ منجي بدا عليه التقزز ورمقه بنظرة غاضبة ليكف عن هذا الذي يفعله.

طلب مني الشيخ بعدها أن آتي لنفسي بمقعد من الداخل ففعلت، وقال لي فور أن جلست عليه:

- معرفتش اللي صار يا ولدي؟

وانطلق المامادو ثانية في التنخم على نحو أعنف من المرة السابقة، وألقى ببصقة على مقربة من أقدام الشيخ فثار في وجهه غاضبًا:

- أيش بيه خشمك هاذا! أيش بيه لعنة الله عليك، تقولش محرك طائرة ولا نهيق حمار! إمشي شوف حل لروحك، إمشي شوف طبيب أحسن من أنك تضر خلق الله، شنو الهم هاذا يا ربي! (أيه الهم ده يا رب!).

وسهمت أنا بعيني مفكرًا في هذا الذي صار، ويسألني عنه الشيخ.

أول شيء جاء في بالي هو أن جدتي فعلتها وخرقت الهدنة ثانية، هاجمت الشيخ نفسه! أو تربصت لزوجته الست زهيرة بوصاف على بسطة السلم وضربتها على رأسها بالعصا تنفيذًا للعهد الذي قطعته على نفسها يوم (واقعة القط). وبحركة عفوية درت بعيني دورة خاطفة على وجه الشيخ وعنقه ورسغيه عسى أن أجد أثرًا لخرابيش جدتي، ومال هو نحوي مهمومًا ويقول:

- عملها يا ولدي عملها! الله لا يربحه، الله لا يسامحه.

اشتدت حيرتي وقلت في نفسي: ليس في بيتنا (كوماندز) سوى جدتي، فإن لم تكن هي فلعل في الأمر شيئًا من الالتباس، فجدي لا يستطيع أن يفعلها كما يظن الشيخ، لا يفعلها ولا يفعل غيرها. جدي رجل غلبان واستحالة أن

يتهور ويلقي بنفسه إلى التهلكة، فهو يعرف إمكاناته قياسًا على إمكانات هذا الشيخ الغول، وحتى أحسم المسألة قلت له ونظرة استغراب تملأ وجهي:

- جدي يعملها! جدي راجل في حاله يا سيدنا الشيخ وميعرفش حتى..

فقاطعني متململًا:

- جدك! وأيش دخل جدك بكلامنا! هاذا كالعلوش (كالخروف) لا يهش ولا ينش، خلينا من جدك هاذا..

ثم ضرب بكف يده على ركبته ساخطًا:

- السادات يا ولدي، السادات هو اللي عملها!

سألته مدهوشًا:

- السادات.. السادات مين؟ السادات رئيسنا!

- أيوه يا ولدي السادات، سمعت اليوم في التي ڨي تروا (القناة الثالثة بالتليفزيون) إنه ماشي إسرائيل! حزم أمره خلاص وماشي إسرائيل! تيجي في راس إشكون؟ (تيجي في دماغ مين؟).

- إسرائيل؟

- إييه.. نعم.. إييه إسرائيل..

وقلب كفه، والغيظ يفجر تقاطيع وجهه:

- معقول هاذا يا رسول الله! معقول! والله ما صدقت الخبر في الأول، والملاعين هنا بيصفقوا ويهللوا ويقولوا خطوة جريئة! خطوة شجاعة! أيش جرى للدنيا يا ناس! السادات هاذا وقت ليمشي لإسرائيل مش معناه أنه مشي لوحده، مصر كلها كأنها مشت معاه، ومش بس مصر العرب والمسلمين معقول هاذا! لعنة الله على الظالمين..

واقترب برأسه مني قائلًا بصوت أخفت، وأصابع يده اليمنى المرفوعة قبالة أنفي منفرجة وتهتز هزات مرتعشة:

- وتعرف من ينتظره بالمطار؟ مناحم بيجن يا ولدي! مناحم بيجن!

قالها ونكس رأسه، والمامادو يذهب بعينيه نحونا ويتابعنا بفضول.

وقلت أنا وعيناي سارحتان، ومخيلتي تغوص في شيء بعيد:

- بتقول مناحم بيجن!

- إييه! مناحم بيجن!

ولما دخل المامادو معنا في الحديث رد عليه الشيخ منجي باللغة الفرنسية، ظلا يتكلمان برهة طويلة ويصبان اللعنة على اليهود، وجولدا مائير وليڤي أشكول وإيجال آلون وشمعون بيريز... وكل من مد يده بالعون يومًا لإسرائيل، غير أني لاحظت أن الشيخ كان متبرمًا من حديث الرجل ويود إنهاءه بأي طريق، وهذا هو الذي حدث إذ أغلق الشيخ الحديث صائحًا فيه والحنق بادٍ على وجهه:

- وأيش دخل (هرتزل)[11] هاذا بزيارة السادات لإسرائيل؟ هاذا صحيح صهيوني كبير لكنه مات من أكثر من سبعين عام يا سي البهيم! كيف تقول أنه عايش لحد الحين في ڤيلا بضواحي تل أبيب! وأن كل الخيوط في يده وهو اللي وجه الدعوة للسادات علشان يزوره ويجلس معاه هناك في إسرائيل! إنت ما عندك عقل!!

والتفت نحوي ساخطًا، ويقول:

- الرحمة يا ربي! ما في صاعقة تنزل من السماء وتأخذ هاذا الحمار من أمامي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هب الشيخ من مقعده عندما لمح امرأة من زبائنه مقبلة على المحل، وبقيت أنا والمامادو وجهًا لوجه.

تبسمت له فلم يحفل، نظر إليّ بامتعاض وشفته السفلى ممدودة إلى الأمام.

كان واضحًا أن لديه وجهة نظر وأنه ليس مرحبًا بهذه الزيارة، والذي أقلقني أني شعرت بأنه اتخذ موقفًا مني ويود إدخالي في مسألة كهذه تخص رؤساء الدول، وكنت أنا من جانبي حريصًا على ألا أدخل معه في حوار أثناء غياب الشيخ، فأنا أعرف هذا المامادو جيدًا ولست ندًا له فهو (شوارعي) وأستاذ في الشجار والصياح بكل اللغات! فرنسي وسواحيلي وعربي أحيانًا، ناهيك عن قلة الحياء والإشارات البذيئة التي يتقنها ويؤديها باليد والفم وكل شيء!

لكن ماذا أفعل؟

كز على أسنانه وهو يهرش بأظافره في الشعر الخشن الذي يملأ فوديه، ثم نطق اسمي بصوت حاد مرتفع رغم أن المسافة التي تفصل بيننا تقدر بالبوصات:

- زلال.. ولد يا زلال.

وما إن تطلعت إليه حتى صاح فيَّ مرة واحدة باللغة السواحيلي وهو يشوح بكلتا يديه في وجهي، ولولا لطف الله لدخل إصبعه في عيني وفقأها.

ولم أفهم بالطبع حرفًا واحدًا مما يقول..

كل الذي فعلته أني تزحزحت بالمقعد إلى الوراء لأطيل المسافة التي بيننا، فالاحتياط واجب وما يدريني ما الذي يفعله هذا الفحل الأسود معي بعد ذلك، خاصة وأن قبضة يده تضاهي خُفَّ الجمل.

وبكل أدب ولطف قلت له بالفرنسية:

- ساڤا. ساڤا.

يبدو أن هذا الرد أراحه بعض الشيء، فأظن أنه كان يعاتبني على زيارة السادات! أو لعله يشتمني، وأنا بهذا اللفظ اليتيم الذي نطقت به أكدت على كلامه في حقي فسكت.

ثم أخذني خاطري إلى بعيد، إلى حيث هذا الاسم الذي ذكره الشيخ.. مناحم بيجن!

كنت أعرف أنه رئيس وزراء إسرائيل، غير أني سمعت به من قبل في بيتنا، ليس هذه الأيام وإنما من زمن، أيام أن كنا في الظاهر.

وأذكر أني كنت أرخي رأسي على فخذ أمي مرة، وسألتها عن هذا الرجل الذي لا تكف جدتي عن الحديث عنه معها، فتبسمت وقالت: إن جدتي مغرمة به! نجمها المفضل! وتحتفظ له بصورة بين أشيائها. ورأيت جدتي بعدها وهي تقلب صورته بين أصابعها، ضمن صور أخرى.. صورة لشقيقتها التوأم (دلال) التي عاشت وماتت في شارع شيكولاني بشبرا، ولأبيها (سوارس) الذي بدأ حياته نجارًا في دمنهور، وخالها (حزان) الذي كان ناشطًا في أحد الأحزاب اليسارية[12] ولما ضجرت منه الحكومة زجت به في السجن.

كانت صورة مناحم بيجن، وفيما أذكر، مقصوصة من مجلة أجنبية قديمة، ويبدو فيها نحيلًا ووجهه ممصوصًا؛ حتى إنك تحسب أنه مريض بالسكر بل وفي مراحله المتأخرة. ولاحت أمام عينيّ وأنا جالس نظارته الطبية التي كانت تملأ نصف وجهه، وماسورة البندقية البارزة من أعلى كتفه والنجمة السداسية التي تزين (الكاسكيت) الذي يعلو رأسه، وقميصه المشمور إلى ما بعد الكوعين.

لم تسعفني ذاكرتي بشيء نطق به جدي أمامي عن هذا الرجل، أمي هي التي قالت لي يومًا في حضور جدتي: عسى أن تكون مثله عندما تكبر..

ولما استكنت لها بوجهي ملست على جبيني، وأردفت قائلة: إنه بطل من أبطال اليهود وضع روحه على كفه، وقاتل هو ورفاقه من أجل إيجاد مأوى لأهلنا المساكين النازحين إلى فلسطين، وأشارت إلى جدتي قائلة: إنها تخفي صورته عن أعين جدي لأن له رأيا آخر فيه، فمصمصت جدتي شفتها متعجبة من هذا الجد الذي لا يفهم، وحذرتني هي وأمي من النطق باسمه أمامه.

كنت صغيرًا أيامها فلم أعِ تمامًا ما كانتا تقصدانه، وصور لي خيالي وقتها أنه ربما كان لمناحم بيجن هذا علاقة بجدتي.. علاقة قرابة مثلا! علاقة حب وغرام ولهيب متبادل! أو كان أحد الذين تقدموا لخطبتها، وهما تحذرانني من البوح باسمه أمام جدي لأنه يغار منه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

غير أن الشيخ منجي أخذني مما كنت فيه..

أتاني صوته عاليًا وهو يتشاجر مع المرأة، ويقول لها: إنه لا يبيع قطع اللحم الممتازة لأمثالها هي وأراذل الناس، وإنما للناس المحترمين الذين يدفعون (كاش)، وأخرج لها من الثلاجة - إياها - قطعة لحم لو ألقيناها إلى كلب عابر لعافتها نفسه وتبول على باب المحل من شدة غضبه.

جاء الشيخ أخيرًا بعد أن أتم البيع وفقًا لشروطه، ودخل في الموضوع مباشرة، حتى قبل أن يجلس فوق كرسيه:

- إنت تعرف أيش عمل مناحم بيجن هاذا؟! هاذا اللي كان يذبح في الفلسطينيين ولا سلم منه كبير ولا صغير..

قلت وعيناي ساهمتان:

- عارفه يا شيخ منجي.. عارفه عارفه.

- إنت ما تعرف عنه شي لا هو ولا رفقاته الصهاينة! أنا اللي نعرف تاريخهم واحد واحد الصهاينه الملاعين دول من أول الرجل القصير بن جوريون لغاية إسحاق شامير..

ووكزني في ركبتي، قائلًا:

- إسحاق شامير هاذا اللي يقولوا عنه رئيس الكنيست الإسرائيلي مثله مثل مناحم بيجن، هو الآخر إرهابي كبير، أيوه يا ولدي قتل وذبح وشرب من دم

أولادنا ونسائنا في فلسطين، فعل كل شي يا ولدي واستباح أهلنا هناك، وبعد: بيمشي السادات للكنيست ويجلس معاه!

ثم أخذ نَفَسًا طويلًا، وتأوه بصوت ممطوط:

- إييه! إييه!

وأردف:

- وقتها كنا صغار في تونس ونسمعوا إن اليهود فعلوا الأفاعيل في العرب! ونقرا الجورنو (الجرائد) ونشوفهم في الصور مذبوحين كالعلاليش (كالخرفان) وها الرطسه الفرنسيس (والجماعة الفرنساويين دول) واقفين معاهم ويعاونوا فيهم! يا سلاح يا فلوس يا متطوعين!

كانت المرارة تأكل قلبه، ونبرة صوته خافتة وإيقاعها حزين. وخُيل لي أن وجهه هو الآخر أصبح داكنًا، وأن لحيته لم تعد جبارة، فقدت نضارتها، وربما كثيرًا من هيبتها. وعندما أرجع البيريه الكحلي الذي على رأسه إلى الوراء، بدت صلعته براقة متينة، صحيح أنها لرأس من فولاذ، لكنها في النهاية صلعة وصاحبها مأزوم.

كان بالرجل شيء، بل وشيء كبير، لم يستوعب الذي جرى، لا يصدق أن السادات سيلقى مناحم بيجن ومعه جنرالات إسرائيل بذراع مفتوحة، يسلم عليهم ويسلمون عليه! يسامرهم ويسامرونه! وربما يقبلهم ويقبلونه على الوجنتين!

شوش عليه الخبر، أخل بحساباته، فالشيخ منجي ليس كأي شيخ وكأي بشر في عدائه لأبناء عمومتنا اليهود، ومناكفاته مع جدتي ورهطها ليست مناكفات جيران وسحابات صيف مآلها إلى الزوال! فالمسألة عنده مسألة حلال وحرام ومبدأ ودين، وإذن لنا من الله بأن نقاتل من أخرجونا من ديارنا.

وعندما تسحبت بعيني ناحية المامادو، ضبطته يتلصص عليَّ هو الآخر. قلب شفته أول ما التقت نظراتنا، وبدا وجهه مظلمًا لا يوحي بالأمان.

قلت في نفسي: سترك يا رب، فأنا لا طاقة لي على الشجار مع هذا الإنسان، وبدأت أراقبه من باب الحذر والدفاع الشرعي وكي لا أتلقى الضربة الأولى وأنا غافل.

لم تكذبني هواجسي، فالرجل بالفعل كان فحمة متأججة بالنار، يتقلقل على مقعده ويثني عنقه ثنيات متوترة وفي كل اتجاه، ثم أخرج منديله الملعون مرة ثالثة وبدأ في التنخم مشوشًا على الشيخ، والذي توقف عن الكلام

ورمقه بنظرة محذرة، فأحجم المامادو وأعاد المنديل إلى مخبئه، غير أنه لم يتوقف عن ملاحقتي بعينيه الحمراوين، والغيظ بادٍ على وجهه كأنما أنا الذي فعلت هذه الفعلة وليس السادات!

ووجدت نفسي وبتصرف تلقائي أهب واقفًا حاملًا مقعدي ومغيرًا جلستي إلى موقع ملاصق للشيخ، فرمقني بنظرة خاطفة وأنا أفعل ذلك، ثم عاد إلى الكلام موجهًا حديثه هذه المرة إلى المامادو:

- مون فرير (يا أخي) مامادو المشكلة ليست في مناحم بيجن! فينا نحن! على أيش نروح للإرهابي هاذا! على أيش نفكك وحدتنا! ليش السادات يفسد النصر اللي حققه! السادات وإخوانَّا في الشام عملوا شيء كبير، رفعوا راسنا لفوق، أيش جراله السادات هاذا! تجنن!!

والمامادو ينصت وعيناه عليّ..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10

كلَّت همَّتي وأنا في هذه الغربة عن تقصي أخبار الوطن وقضاياه، أو حتى عدت أنشغل بأي شيء يجري في دنيا الغير وليس دنياي، انطويت على ذاتي مكتفيًا بهمي وترحالي وبلواي..

بت لا أعرف عن بلدي إلا من جريدة ألقاها عرضًا، برنامج إخباري على شاشة التليفزيون يصادف عيني، أو مما كانت تتناقله الألسنة هنا. ألسنة المحب والكاره ومن يدس السم في العسل، الشيخ منجي ورهطه، أقارب أمي اليهود، وكلمات عابرة مع العرب الذين يرتادون محل بوشار، وفرنسيين أحيانًا وشوام..

انزوت فلسطين هي الأخرى في جانب قصي من عقلي، ليس من مشاعري ووجداني إنما من عقلي وفعلي وقولي، فكم كان هذا العقل متوهجًا بها من قبل في مصر، وكم قال لساني إن حقي لدي الصهاينة حَقَّان! حق الوطن الذي ضاع، والأب الذي مات..

وإذا خرج عليَّ وقتها ولد طويل اللسان مازحًا مزاحًا أسود، ويقول: أليسوا أهل أمك؟

كنت أقول له: لعنة الله عليك يا جاهل! من قال هذا؟ أهل أمي يهود وهم صهاينة وليسوا يهودًا.

ومع ذلك كان الكلام يصيبني وأشعر بغصة في قلبي، وإذا لقيت أمي بعدها.. أمي التي أتت بي إلى هذه الحياة.. كنت أتأملها بصمت، أتأملها وقلبي يسأل ويجيب ويلوك أحيانًا بكلام لا يقال، إلى أن أهدأ وأفيق وكنت ساعتها أقترب منها اقتراب المذنبين، وأقبلها على جبينها وأحنو عليها وألثم يدها مرة واثنتين وثلاثًا وهي حيرى، لا تعرف سببًا لعزوفي عنها وصمتي هذا الطويل، أو لإقبالي عليها متزلفًا بعد طول إعراض.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انزوت مني فلسطين وانزوى معها كلام كبير، القومية العربية والبعد الاستراتيجي والوطن الذي من المحيط إلى الخليج.. و.. و.. مما كان يلهب مشاعرنا ونسمعه في مصر ليل نهار بوسائل الإعلام.

وآه من القومية العربية هذه!!

زرعها فينا الزعيم ونحن فراريج صغيرة فتشبثنا بها، مضغتها واستحلبتها قلوبنا على مهل! وكنت أنا، أو هكذا بدا لي، أكثر الأولاد تعلقًا بها.

كانت تخرج مني دافئة متدفقة، وكأنها شيء يُرى وله روح ونبض! تخرج من قلبي، من أعمق مكان فيه..

وكم من مرة دخلت في حوار بل وفي نقاش أشبه بالشجار بسببها، مع جيران السكن ورفقاء الشارع وزملاء المدرسة، ومن كثرة ما كنت أجادل أساتذتي بشأنها في قاعات الدرس، مدرسي اللغة العربية ومادة (الوطن العربي) على وجه الخصوص؛ أطلق عليَّ واحد منهم اسم (المواطن العربي الأول). لا زلت أذكر هذا الأستاذ! الأستاذ أحمد عباس الطويل بصلعته البراقة ووجهه البشوش، وأصبحوا كلهم ينادونني به! ولا أعرف إن كان هذا على سبيل الجد أم السخرية والمزاح!

يقولون: تعالَ هنا يا أيها المواطن العربي الأول.. أو توجه إلى السبورة.. أو أجب عن هذا السؤال؟ أو ما هذا الذي يجري؟ هل سمع أحد من قبل عن مواطن عربي أول يغط في النوم أثناء حصة التعبير..

وعندما بدر مني احتجاج في أول الأمر على هذا اللقب الذي خلعوه عليَّ، قالوا: هذا شرف لك يا عبيط! فلم يحصل على هذا اللقب من قبل إلا (شكري القوتلي)[13] رئيس سوريا، منحه إياه الزعيم إكرامًا له ولحسه القومي، فيزيدني هذا تعلقًا وفخرًا ومغالاة في الإيمان بالقومية العربية، وما كانوا يسمونه بالوطن العربي الكبير آنذاك.

غير أني لم أفهم وقتها إن كل هذا الذي كنت أقوله وأفعله، وإن كان من قلبي وعن إيمان، إلا أنه كان له وجه آخر.. وأن القومية العربية ودون أن أعي أو أدبر، كانت القشة التي أتعلق بها! الملجأ الذي ألوذ به لأثبت لمن حولي أن نصفي مصري ونصفي الآخر عربي وليس يهوديًا كما يظنون! كانت خط دفاع! شيء يقول لهم نيابة عني إني مثلهم وأكثر.. سلاح أقبض عليه بيدي وأصيح!

وها أنا بعد أن راح ما راح.. بعد أن راح الزعيم، ورحت أنا عن مصر، ولم يعد هناك أولاد ورفاق أحسب لهم حسابًا وأرتاب..

ها أنا بعد أن تغيرت بي الدنيا أجد نفسي شخصًا آخر، شخصًا ينصت للشيخ منجي ولا يعنيه ما يتألم منه..

وأقول له بنبرة محايدة وقلب بارد:

- هدي خلقك شوية يا شيخ منجي، وإيه المانع لما العرب يتصالحوا مع إسرائيل! دا الصلح خير زى ما بيقولوا.

وهو يجيبني بصوت مأزوم، وبريق عينيه قد خبا في خفق جفنيه:

- أنهو خير وأنهو شر يا ولدي! إنت مازلت صغير وما تفهم حتى شي! وبعد.. كيف تقول العرب يتصالحوا مع إسرائيل؟ هما العرب أعطوا السادات تفويظ (تفويض) من شان يتكلم عنهم! يا ولدي السادات على خلاف مع السوريين، هم يقولوا خذلنا ولم يطور الهجوم واكتفى بالكيلومترات اللي أخذها في سيناء، ورجاله في الإعلام يقولوا إنهم كذابين والخطأ خطأهم ونحن فعلنا ما اتفقنا عليه والمكتوب في الخطة، والفلسطينيين كمان ما مرتاحين للسادات، وبعد.. جاي تقول إنه ماشي يحل القضية الفلسطينية! لا.. لا.. يا ولدي هو ماشي من شان سيناء فقط!

واستمهلني دقيقة وهو يجفف عرقه، ثم قال:

- اللي يحل القضية لازم يشوف حل للفلسطينيين اللي مش لاقيين شوية تراب يندفنوا فيهم! اللي مرميين في الخيام وعايشين عيشة الكلاب! البنت تحب تعرس ما تنجمش (تحب تتجوز متعرفشي)، والولد يحب يتعلم ما يقدرشي، والأم مسكينة والأب مسكين، اللي يحب يحل يحل المشاكل هاذي ويرجعهم لديارهم وهاذا ما في دماغات السادات!

حاولت النقاش معه قائلًا: بأن هذا هو قصد الرئيس بالفعل، وأن الأشياء التي يتوجس منها هي في ذهنه بالتأكيد، غير أنه لم يتقبل كلامي وقال متململاً:

- سِي فِنِي (خلاص) كلمة العرب اتفرقت ويلزمهم خمسين عام ثماش (ويمكن) بعدها يتجمعوا مرة ثانية! امشي يا ولدي حل التي ڤي (روح يا ابني افتح التليفزيون) واسمع وكالات الأنباء أيش تقول: العرب رافضين! ومظاهرات في كل مكان من المغرب للعراق والخليج.

ومال نحوي مكملًا بنبرة متأسية:

- شوف يا ولدي، طول عمرنا نعتبروا مصر أم العرب لِحْنَّينه (الحنون) والفلسطينيين أمانة في رقبتها..

وتأوه:

- يا حسرة على أيام عبد الناصر! وقتها كان يقول الجولان والضفة أول وبعدين سيناء، هاذاك البو (الأب) وعليه الكلام، نحبك يا ولدي يا جلال تكون كبير وفاهم! ووِلْد لعبد الناصر مش السادات!

أنصتُّ إليه حتى فرغ، غير أني لم أشأ الرد عليه كي لا يطول الحديث،

المامادو هو الذي تكلم..

انفتح فيَّ مرة واحدة، وبكلام مثل شرر الكهرباء، حاد وسريع وبحنجرة قادرة على الانتقال من الجواب إلى أقصى القرار في ثانية واحدة، والحاجبان لا يكفان عن الصعود والهبوط، أما طاقتا أنفه فقد انفتحتا على آخرهما كأنما هو بغل في شجار، واندهشت من اتساع فمه حتى إني كنت أرى ضرس العقل وبداية البلعوم.

سلمت أمري لله ثم للشيخ منجي الذي كان يهدئ منه ولا فائدة، هزمنا نحن الاثنين وأمطرنا بكمية محترمة من الرذاذ، أجبرنا الملعون على الإنصات له حتى آخر كلمة، ثم تكور على المقعد مريحًا ذقنه على راحة يده منتظرًا ردي على ما قال.

ولم أجب بالطبع..

فلا أنا فاهم شيئًا مما قاله هذا الماما طين، أو حتى لي رغبة في الرد عليه.

أسعفني الشيخ منجي، قال وعلى وجهه ابتسامة ماكرة:

- عمك الأستاذ مامادو قال نقولك حقك تتحشم على روحك (تنكسف على نفسك) من الفعلة بتاع السادات!

- أنا..

- نعم أنت! وقال كمان لو جيت زيك (لو كنت مطرحك)، وجهي مَعدْتِش نوريه للناس ونسكّر الباب على نفسي لا نخرج ولا ندخل.

فهببت من المقعد حانقًا وتاركًا المكان، لولا الشيخ منجي الذي أعادني ثانية، وهو يضغط على كف يدي ويقول لي متخابثًا:

- ليش الغضب يا ولدي! أعذر عمك المامادو أصله أصبح الآن بني آدم ويفهم في السياسة، وأنت تعرف إنه رجل مسلم ويعرف أيش قال ربي وأيش قال الرسول وما معقول إنه ما يهتم بقضية أصحابها مسلمين، وإن كنت يا ولدي مشفتوش حتى مرة دخل الجامع أو سمعت إنه صام رمضان.

والمامادو يرمقنا بوجه مرتاح، فقد كان يظن أن الشيخ منجي يوبخني لصالحه.

ويستطرد الشيخ:

- هاذا يا ولدي ما عنده ضمير! ما يعرف من الإسلام إلا وقت توزيع الزكاة، ووقتها يقولّي أنا أولى من هاذا وهاذا، وهاذا وهاذا أيش يكونوا، عجائز وضعفاء! ويجينا في لجنة الزكاة يطلع لنا أرواحنا. ومرة من المرات يا جلال يا ولدي كان معانا في اللجنة شيخ ديزيري (جزائري) اسمه الشيخ (بو علام) لحيته طويلة ورجل وقور، مد له يده بالزكاة وكانت ناقصة شوية عن اللي في دماغ المامادو، يقوم هاذا الجرذ المعفن يشد بو علام من لحيته ولو كان مجتش أنا وحزيت عليه (وحشته عنه) وضربته كف على وجهه كان طلع روح بو علام! الله غالب يا ولدي، قولّي أيش نعمل فيه؟ هاذا مصيبة بلانا بها ربي في الشارع!

ولما علت الابتسامة شفتي تغير وجه المامادو ودس رأسه بيننا متوجسًا، فأفهمه الشيخ أنه ما زال مستمرًا في تأنيبي وأنه نقل وجهة نظره إليَّ، وأخذ مني عهدًا بأن أستحي من نفسي اعتبارًا من هذه اللحظة، كما أني أفكر جيدًا في مسألة غلق الباب على نفسي، فهز المامادو رأسه راضيًا مربتًا على ظهر الشيخ الذي كان يجاهد لكتم ضحكاته وأنا مثله، ثم طفق يقول:

- تعرف يا جلال يا ولدي السخطة (البلوة) هاذا طلع لي روحي، أيش جراله! من حوالي سنه انشغل بالسياسة ومرة يقولي إنه عايز يسافر كشمير ويصبح مجاهد إسلامي! ومرة عند المسلمين في الفيلبين! وساعات يفكر ينضم للجيش الجمهوري الأيرلندي علشان يعمل تفجيرات في لندن وهو ما فاهم شي! وأول أمس جاني هاذا الجرذ وقال لي إنه يريد يمشي للاتحاد السوفيتي يشوف أحوال المسلمين هناك ويكون منهم ميلشيات، قلت له: اتركهم لحالهم يا سي الصُرْصار ولو مسكتك (الكي جي بي) هناك انتهي عمرك ومؤخرتك هاذي يضعوها على خازوق!

وعندما انحرفت ببصري نحو المامادو وجدته متحيرًا متشككًا، وكأن قلبه يقول له إننا نلعب عليه.

والشيخ ما زال مستمرًا في الكلام:

- يجيني هاذا الماما زفت من خدمة المجاري دَيْرِكْت (مباشرة) ويشد جنبي (ويلزق جنبي) ورائحته يا ولدي كريهة! كريهة! وتظَل تضرب وتصرع فيَّه وأنا قابض على خشمي! لا حول الله! المهم.. يجيني ويقول إعطيني الجورنو (الجرائد) اللي فيها سياسة، نعطيه الجورنو القديمة اللي نلف فيها اللحم علشان يقراها، جورنو اللوموند والفيجارو والأيومونتيه، وكلها قديمة، اللي عندها عام أو عامين وخمسة، قديمة قديمة يا ولدي! يقراها هاذا البهيم ويجيني يمرجلي قلبي (يتعب قلبي) بأحداث انتهت من زمان. ومرة من المرات قرأ جورنال عندي فيه تحليل عن حرب الهند والباكستان اللي جرت

عام 71 وماشي في باله السخطة هاذا إن الحرب مازالت مستمرة حتى التو، وأول ما شاف راجل إندو (هندي) ماشي في الشارع اتعارك معاه وخنقه لأنهم بيحاربوا المسلمين في الباكستان وهاك الإندو المسكين يصيح ويقول له: يا أخي الحرب انتهت من زمان! من ست سنوات! واتصالحوا خلاص! إنت ماكش (مش) عايش في الدنيا! وأنا كمان مسلم كم توا (زيك) واسمي غلام عبد الرسول، وما فكيته منه إلا بطلوع الروح! أيش أعمل في هذا البهلول(العبيط) يا ربي، دا فروج الدجاج عنده عقل وفهم أكثر منه!

لم أملك زمام نفسي انطلقت في ضحكة عالية، فأدرك المامادو أن شكوكه في محلها وأننا نسخر منه، وهب نحوي إلا أن الشيخ قبض على رسغه مهدئًا:

- اسمع يا ماما قطران ننبه عليك جلال مدخلكش فيه (ملكش دخل به). جلال هاذا كيف (مثل) وِلْدِي وهاذا مسكين خاطيه (مسالم وليس له دخل بأحد)، واللي فيه مكفيه، إذا درت بيه (حبيت تضايقه) راني نتفاهم معاك، تتذكر البنت السورية اللي عاكستها قدام محطة ارباس يا سي الموسخ.. تتذكر! تتذكر أيش عملت فيك هاذا الوقت ولا نسيت! نسيت الطريحة (العلقة المحترمة) اللي أكلتها يا سي الحمار! وحتى الأولاد الصغار وقتها عملوك كراكوز (أراجوز)، تريد طريحة ثانية اليوم!

ثم التفت إليَّ:

- سيبك منه يا جلال، تافه هاذاك ومتهمش وفي سوق الرجال ما يسواش بصقة.

وانصرفت أنا تلبية لإشارة من الشيخ، وتركتهما ملتحمين في نقاش حاد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

11

اتصل بنا خالي إيزاك مهنئًا..

كنت صاعدًا لتوي من عند الشيخ منجي بعد أن ابتعت منه خروفًا وعهدت به إليه لتوزيع ثلثيه من خلال لجنة الزكاة، وأن يرسل الثلث الباقي لنا هنا في الشقة مع أحد صبيانه.

كان الجميع متحلقين بجهاز التليفزيون، حتى إنهم لم ينتبهوا لقدومي. أمي وجدتي ملتصقتان ببعضهما تتوشوشان، وجدي مائل بنصفه العلوي وبصره مشدود، والشقة (هس. هس.) اللهم إلا صوت المذيع الفرنسي الذي كان يجلجل بحرارة كأنه يوم الدين.

وحطت طائرة الرئيس..

فندت آهة ارتياح عن جدي، ودارت الكاميرا دورة سريعة على كبار المستقبلين.. جولدا مائير التي كانت خارج إسرائيل واستدعوها على عجل، موشيه ديان، إسحاق شامير برأسه الذي يزن نصف جسده ووجهه الذي لا يريح، وحاييم هيرتزوج، ووايزمان، وأبا إيبان، ووزراء ورجال أحزاب وچنرالات.. وقد اصطفوا كلهم بهيئة أشبه بهيئة الطابور.

اتجهت عدسات الكاميرا بعد ذلك إلى مناحم بيجن، تتبعه أينما يذهب. كان واضحًا أنه ذو مهابة وحضور من دون الجميع، ربما للمنصب الذي يتقلده فهو رئيس الوزراء، أو لذاته نفسها التي يجللها الصمت والغموض. يمشي بتؤدة وكلمته قانون وعيناه الكليلتان لا تعرف أين هما أو في ماذا تدققان، وجدتي تتبعه بعينيها وتهيم في وجهه الذي بدا كوجه ثعلب عجوز حنكته الدسائس والأيام.

اقترب بخطوات رزينة من سلم الطائرة رافعًا رأسه نحو بابها الذي لا يزال مغلقًا، أما أنا وبلا قصد مني كانت عيناى تروحان نحو جدتي الهائمة في مناحم بيجن! ويبدو أن أمي كانت تتوقع مني ذلك فقطعت عليَّ الطريق، تصلبت عيناها عليَّ محذرة أن تبدر عني كلمة أو تعليق أو شيء يثير جدتي أو يلفت نظر جدي؛ كي تمضي الجلسة على خير.

وظهر الرئيس على باب الطائرة..

مهندمًا، واثقًا، يختال كالغندور..

صفق له جدي بحرارة وهو ينظر نحونا متوقعا أن نجاريه إلا أننا لم نفعل، فكلت همته وتوقف غير أنه قال بصوت حار:

- راجل! والله راجل يا سادات وقد الفعل! أيوه كده يا أبو قلب كبير!

وترك التلفاز والتفت إلينا منتشيًا ويحكي عن الاضطهاد الذي لاقاه المسلمون واليهود في الأندلس على يد القوط، وتمسكهم ببعضهم البعض ونزوحهم مطرودين إلى سواحل المغرب وتفرقهم في الأمصار.

أشارت له جدتي بأن يصمت، ويتابع ما يجري على شاشة التلفاز.

وعدت أنا الآخر إلى الشاشة أتابع بفضول، وكأني أمام مسرحية أو فيلم من أفلام الأكشن، إلى أن قالت جدتي:

- آهو كده السادات يبقى راجل عاقل وبتاع سياسة صحيح، راح هناك يحايلهم علشان يرجعولوا سينا لأنه عارف ومتأكد إن مصر على قد حالها، بلد مغلوبة يا عيني وكل اللي قدرت عليه إنها عدت القناة! طب وبعدين! لا بعدين ولا قبلين وقفوا مطرحهم ومكملوش!

نظر جدي نحوها مستغربًا، غير أنها لم تكف طفقت تقول:

- مش كده برضه يا زكي، آهو السادات يبعد بقى عن غزة وفلسطين وسوريا ومش عارفة إيه وإيه، الحاجات اللي جابت لبلده الكافيه وهناك في إسرائيل يمكن يسامحوه بعد ما يشدوا ودنه ويفهموه..

خرج جدي عن طوره:

- يا دي النهار اللي مش فايت! يفهموه إيه وزفت إيه، هو إنتي مفيش فايده فيكي! مالك إنتي ومال السياسة؟ ومصر أيه اللي اتغلبت ياعامية العين، إنتي مش عايشة في الدنيا! ما بتقريش جرايد! ما بتشوفيش تليفزيون! يا ساتر يا رب! أحط صباعي في الشق منك وللا أعمل أيه!

وأبدت أمي استياءها، أما أنا فجن جنوني..

انفجرتُ غاضبًا موبخًا قاذفًا بكلام كثير، ولاعنًا إسرائيل بل وحتى السادات الذي ذهب لهؤلاء الناس! واليهود الذين في كل مكان! اليهود الذين هنا، والذين في أمريكا أو في بريطانيا والأرجنتين، ويملؤون زوايا ومخابئ الأرض كالصراصير.

لا أعرف على وجه التحديد ما الذي حاق بي في هذه اللحظات، ونقلني من حال إلى حال.

ما هذا الشيء الكامن بداخلي وفجرته هذه الحيزبون!

الشيء الذي كان خاملًا وأنا أتحدث أول أمس مع الشيخ منجي وهذا الهلفوت الذي اسمه مامادو، بل وكان خاملًا قبل دقيقة وتركني أرتشف من قدح الشاي بالحليب الذي بيدي، هانئًا مستمتعًا بالذي يجري أمامي وكأني أشاهد مسرحية من المسرحيات التي كانوا يقدمونها لنا بمصر أيام العيد.

ذلك الشيء الذي في العميق ووخزته جدتي، فأطبق على صدري وأخذني في خفقة جفن إلى أبي ورفاقه الذين أبحروا ذات يوم ومعهم سلاح وعتاد قاصدين بورسعيد إبان حرب السويس، فأمسكت بهم تيارات الماء التي لا تعرف الرحمة، تقلبهم ذات اليمين وذات اليسار ولم تدعهم إلا غرقى موتى بلا حراك.

لطالما تذكرت أبي في أدعية الصلوات، وكم طاف ببالي عند الضيق واشتداد الحاجة إلى سند ومعين..

لم أر وجهه من قبل، فصنعته بنفسي.. العينان والحاجب والجبهة وشعر أسود غزير.

لم أعرف له قامة أو هيكلًا أو نبرة في الحديث فأنشأهم قلبي إنشاءً، حتى إن عقلي الذي في الباطن صدق أن هذا الذي يلوح أمامي هو أبي، وأصبح يأتيني به هو الآخر في الرؤى والأحلام على نحوه هذا نسيج الخيال.

الشيء الذي لم يجل بخاطري أبدًا أو تجاسر خيالي على صنعه هو مشهده وهو يموت، إلى أن قالت جدتي ما قالت فغضب قلبي، وكنت أتشاجر معها وأصيح وأبي يدنو مني.. أنفاسه في خواتيمها وروحه تصعد.. لباس الحرب الذي يرتديه حُلَّت أزراره وانفرج.. والمياه القاتلة استوفت غرضها وتلهو به..

وهببت.. والدمع يطفر من عيني.. تاركًا لهم المكان..

لحق بي جدي إلى غرفتي وأنا أجهش بالبكاء، فواساني واحتواني بل ومال على يدي يلثمها حتى أرضى، وهو يقول لي حانيًا صادقًا: لا تُعِرْ بالا لكلام زفتتك! فقد أعيتني الحيل معها وأنت من أهل البيت وتعلم، آخر ما كنت أتوقعه يا ولدي أن تزج بنفسها فيما تجهله وتتكلم بالسوء عن الأوطان! ولو كان بها ذرة عقل أو بصيص نور في القلب، لعرفت أن مصر وليس إسرائيل التي تتباهي بها هي الأرض التي ولدت على ترابها وبها رفات آبائها وأجدادها، وكم تنعمت هي وأولادها بزادها وخيرها!

فقلت له: ليس هذا كل الأمر يا جدي، فقد تذكرت أبي.

قال: أعرف فالشيء بالشيء يُذكر.

وبعد أن هدأتُ، قال:

- كل اللي قلته بره أنا مسامحك عليه، جدتك صحيح غلطت وغلطها كبير، لكن إنت كمان شطحت وقلت في حقنا كلام كتير! متظلمش اليهود يا جلال! اليهود زيهم زي خلق الله فيهم الصالح والطالح، فيهم اللي قلبه عامر بالعدل والخير زي ما علمنا سيدنا موسى، وفيهم اللي خرج عن الملة والدين وبيستحل مال وأرض الغير، وقريب قوي ها خدك في مشوار وأوريك اليهود اللي هنا إزاي بياخدهم الحنين لما بتنفتح سيرة مصر..

وربَّت على كتفي:

- النهاية يا ابني، يللا بينا وأمري وأمرك على الله!

فقمت شاعرًا ببعض الذنب عما قلت، وأخذني هو من يدي وأجلسني إلى جواره.

رمقتني جدتي ووجهها به شيء كأنه ندم، وقالت:

- متزعلش يا جلال، سامحني يا حبيبي.

فهززت رأسي وسكت، وعدنا إلى التلفاز.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبدأ الرئيس في مصافحة كبار مستقبليه، توقف دقيقة أمام موشيه ديان بعينه المطمورة خلف عصابة سوداء، تكلما كلمتين وتبسم كل منهما للآخر، وبإشارة من مناحم بيجن هرول آريل شارون بجسده البدين فوق البساط الأحمر الذي يتهادى عليه الرئيس ورأيناه وهو يومئ له برأسه محييًا، والرئيس يتلقاه بشوشًا ويُسِّر له بعدة كلمات، وهو يرفع سبابته أمام وجهه.

استدار جدي إليَّ قائلًا:

- تعرف يا واد يا جلال، السادات دا بلوة مسيحة أنا أول مرة أسمع عنه يوم قضية أمين عثمان[14]، وكان ساعتها إيه! واقف في القفص بتاع المحكمة ملو هدومه ولا على باله...

وبدأ جدي في حكاويه عن السادات، ولما أطال ولم تُجْدِ أية وسيلة لإيقافه انحنت جدتي بحثًا عن الشبشب لتترك له المكان كله، وأمالت أمي رأسها على حافة المقعد (وهات يا تثاؤب).

جرس التليفون هو الذي أنقذنا منه..

كان خالي إيزاك يتحدث من إسرائيل، فهبوا كلهم لتبادل التهاني معه.

لم أره من قبل فقد ترك مصر قبل أن أُولد، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها صوته، وفي لمح البصر وأنا أقبض بيدي على السماعة، لاحت له صورة في مخيلتي: سمين وقصير مثل جدتي، شاربه حليق وحول فمه بقع بيضاء وصفراء من أثر بهاق قديم، أما كف يده فأملس وينزلق من يدك إذا صافحته.

تكلم معي بلغة عربية عرجاء مثلما يتكلم الخواجات، وبصوت أشد نعومة من الماء الجاري:

- جلال يا حبيبي، والرب نفسي أشوفك وأتملى منك، لك خلقة شكلها إيه، حلو شكلك مثل الماما، أكيد كده إنت..

وأنا لا أجيب..

- جلال يا حبيب قلبي...

فسعلت عدة سعلات وراء بعضها.

وسمعنا طرقًا شديدًا على الباب.

كان (بو سعيد) ابن أخت الشيخ منجي وصبيه في ذات الوقت، طول بعرض وواقفًا كالأسد مثل خاله وفي خاصرته سكين وبيده أكياس اللحم، فتحفزت جدتي للدفاع عنا ظنًا منها أنه يريد بنا مكروهًا، ولما أفهمتها انسحبت من موقعها وهنأوني كلهم بعيد الأضحى.

كانت المرة الأولى التي أساهم فيها بشيء من احتياجات البيت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي مساء اليوم التالي أتت راشيل..

لم يكن هذا الحدث يعني لها شيئًا، غير أنها كانت متأففة من هؤلاء العرب الذين لا يفهمهم أحد.

قالت: إنهم طلبوها في إحدى شركات السياحة لتكون مرشدة لفوج من السيَّاح العرب الآتين من العراق، كانوا بسطاء وأكيد دبروا تكاليف هذه الرحلة بشق الأنفس، فأشفقت عليهم وأخذت تلف بهم باريس من شرقها إلى غربها، وترشدهم إلى المطاعم الرخيصة ومن أين يشترون الملابس بثمن

زهيد، وتحول دون أن يستغلهم أحد. كانت تتعامل معهم بقلب - كما قالت - ومراعية أصول المهنة وأكثر، ورغم ذلك فوجئت بهم اليوم يراجعون شركة السياحة طالبين استبدال مرشدة أخرى بها!

- وليه يا بنتي؟

- علشان زيارة السادات يا نينة! تصوري! طب وإيه دخل ده في ده! دا أنا شغاله معاهم بقالي أربع تيام وكلهم عارفين إني يهودية أبًا عن جد..

- آه يا ولاد البرطوشة!

وعندما همت بالانصراف أمسكت بيدي، ونزلنا معًا على سلم العمارة.

قالت:

- إنت فرحان بالمبادرة دي زى جدك وللا...!

- مش عارف..

- تلاقيك افتكرت البابا الله يرحمه.

فضممتها إلى صدري ممتنًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فوجئنا بعدها بقدوم خالتي بيلا ومعها (أونكل) أبو زلومة، يبدو أن المياه عادت إلى مجاريها بينهما، أو ربما كانا في حالة هدنة.

أبو زلومة بعقليته التجارية أراد أن يسبق الجميع، وظن أني وأمي سوف نكون كنزًا يغرف منه المعلومات عن مصر.. المشروعات التي تدر ربحًا سريعًا، ومن أين تؤكل الكتف وأشياء مثل هذه، لكننا خيبنا ظنه، فقد كنا (أنظف من الصيني بعد غسيله) وليس لدينا شيء نقدمه له.

لفت الانتباه أول ما دخل، ليس بأنفه، فأنفه أصبح مسألة قديمة، وإنما بطقم الأسنان الذي احتل فمه.

ادعت جدتي قلقها عليه:

- ألف سلامة يا هارون يا ابني، دا انت لسه صغير على الكلام ده! دا عمك زكي لسه أسنانه زى الحديد ولا بيرحم! عيش ناشف، سوداني، مكسرات، اللي يلاقيه في وشه..

نظر إليها جدي بضجر، وقال هو:

- ما انتي عارفة يا تانت إن عندي السكر من زمان، الله يلعنه بقى بهدل سناني والدكتور قال لي مفيش حل إلا طقم السنان.

فأومأت برأسها مؤَمَّنة على كلامه.

كان موقعي في الجلسة هو الأقرب إلى جدتي، فسمعتها تهمس في أُذن خالتي بيلا متشككة في كلام أبي زلومة وتلح عليها لمعرفة الحقيقة..

هل أسنانه راحت بالفعل من جراء السكر؟ أم من خلال مشاجرة وفعل فاعل؟!

وهي تجيبها إجابات متقطعة وعيناها على زوجها، حذرة من أن يلحظ شيئًا. وعندما تركنا وذهب إلى الحمام، ارتفع صوت خالتي، قالت: إن مسألة الطقم هذه أربكت زوجها هارون أول الأمر، ومن غيظه منه كاد أن يرميه في صندوق القمامة، وعندما يخلعه عند النوم أو لأي سبب آخر، فإن فمه يغور منه إلى الداخل ويتدلى أنفه حتى قرب ذقنه، وإذا المسكين تكلم أو حتى تبسم تحسب أنه يتهيأ للبكاء.

وأتي أبو زلومة..

وتَحَوُّطًا عدلت خالتي بيلا من جلستها، انتقلت إلى جواره وحلت أمي محلها.

انهمك هو وجدي في الحديث عن مبادرة السادات، وبدأت جدتي ثانية في الوشوشة، قالت لأمي بأن الاحتياط واجب مع أبي زلومة؛ لأنه ولا شك يخطط للقيام بأعمال غير مشروعة في مصر: حشيش، هيروين، نصب، احتيال، وما شابه، وبالحرف الواحد قالت: "إلهي يمسكوه هناك ويعدموه العافية ويترمي على برش ما يقوم منه".

يبدو أن أبا زلومة أحس بأنه محور الوشوشة، والخطأ في ذلك خطأ جدتي فبلا وعي منها أدارت عينيها تجاهه وهي تختم همسها لأمي، ولسوء الحظ كان هو منتبها فباغتها قائلًا:

- إن شالله خير يا تانت وميكونش الكلام عليَّه؟

فأجابته بثقة:

- وأيه اللي بينا وبينك علشان نتكلم عليك، دا انت راجل محترم وسيد الناس! إحنا بنتكلم عن الدنيا وبلاويها.

والتقطت أنفاسها:

- إلا قولّي يا هارون يا ابني، إنت صحيح ناوي تروح مصر؟

أخرج علبة سجائر (دانهيل) من الجيب الداخلي لسترته، فض غلافها وأخرج منها لفافة تبغ ثم دق كعبها على باطن العلبة كما يفعل الأسطوات وأولاد البلد، وقال بعد أن أشعلها:

- وليه لأه، آهي سوق وبكره تنفتح.

- وهتعمل أيه ساعتها يا ابني، هتفتح شركة ولا هتبني مصنع ولا ناوي على إيه؟

- مصنع!

وتبسم:

- طيب ما أروح أبني مدرسة أحسن ولا دار للأيتام! مصنع إيه يا تانت! أنا نظامي نظام الحدَّاية يعني أخطف وأجري.

امتعض جدي، أما أنا فانجرف مني لساني وقلت:

- والله يا خالي هارون أنا أول واحد يرجع معاك لو فكرت صحيح تفتح مصنع ولا أي مشروع هناك.

فنظرت جدتي إليَّ:

- بس يا جلال، بس يا حبيبي! ملكش دخل انت بالحاجات دي وخليك في حالك أحسن!

أحسستُ لحظتها بأن جدتي تخشى عليَّ من أبي زلومة، ففي اعتقادها أنه مجرم ولا تود أن تكون لي به ثمة علاقة.. فهل أنا أقرب وأعز عليها منه! لا أدري.. فقد احتار عقلي في هذه الجدة!

وقال جدي وهو يمد ساقيه:

- أما أنا بقى فمن بكره هروح السفارة المصرية.

فقالت جدتي:

- ليه كفى الله الشر!

لم يرد عليها، التفت إلى أمي قائلًا:

- هقولهم إني راجع لبيتي وشقتي، مش مفاتيح الشقة معاكي؟

فحدقت أمي فيه بدهشة:

- شقة الضاهر، يللا قومي هاتيها أحطها في الشنطة من دلوقتي.

فصاحت فيه جدتي:

- حيلك حيلك يا زكي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12

أخذني جدي ذات ليلة إلى شقة الأستاذ يعقوب أبي السعد.

كنا في مساء يوم من أيام السبت حيث عطلة الأسبوع، وطلب مني مرافقته إلى شارع (چي موكيه) الذي يقيم فيه هذا الرجل.

كان أصغر من جدي بعشر سنوات تقريبًا، ووجهه أول شيء يثير الانتباه، ربما لأنه تشوبه حمرة ودموية على خلاف من عرفت من اليهود المصريين، أو لأن عينيه الزرقاوين تطيلان النظر في عينيك عندما تتحدث معه، فتضطر إلى خفض بصرك. وأثار انتباهي أيضًا شعره الفضي الذي يملأ رأسه بأكملها متموجًا في شكل ثنيات، ناهيك عن جسده الممشوق والثياب التي التقانا بها.. كانت راقية وأنيقة بشكل لافت، أشبه بزي السهرة: قميص من الحرير الأبيض بأساور مذهبة، وبنطال وحذاء أسودان، والبابيون والچيليه. وكنت قد عرفت من جدي أنه كان أحد كبار مُصدَّري البصل في مصر، وكان يقطن (بجاردن سيتي) بعمارة خلف فندق شبرد إلى أن أتى إلى هنا مع موجة الهجرة الثانية لليهود، ويعيش وحيدًا الآن بعد أن قضت زوجته وتفرق أولاده ما بين الأرچنتين وإسرائيل.

عندما دخلنا من باب الشقة استرعاني فخامتها، فشقة جدي، وبأي مقياس، تُعتبر فضيحة إذا قورنت بها.

الأنتريه به عدة مقاعد متقابلة من الحديد الزخرفي (الفير فورچيه)، وبأعلاه نجفة مودرن تتدلى منها ثلاث لمبات حسناوات ينبعث منها ضوء لا هو بالخافت أو الساطع، وثمَّة مشجب علق جدي عليه البالطو والبيريه، وجذبتني المرآة المستطيلة التي بزاوية المدخل فحدقت بها، فإذا بي أطالع سنكوحا أرزقيًا بمحل بوشار ليس على بدنه سوى بنطلون چينز وسويتر رخيص.

تقدمنا الأستاذ يعقوب بعدها إلى صالة مستطيلة الأضلاع، بها أربعة أعمدة من الرخام الأسود كل واحد منها يقف في اتجاه، والأرائك والمقاعد من الطراز الاستيل، وكذلك الثريتان المتدليتان من أعلى، والبيانو العتيق الذي أُغلق غطاؤه وظهرت تعرجات خشبه الثمين، أما المزهريات الكريستال فقد توزعت في الزوايا والأركان.

وشدني بصري إلى صورتين بالحجم الكبير معلقتين في الصدارة..

الصورة الأولى لسيدة في مقتبل العمر، على رأسها قبعة صغيرة مدببة من الأمام وفي أذنها قرط، عرفت من جدي فيما بعد أنها لزوجته المتوفاة

(ليليان) التي كانت من عائلة (نادلر) العائلة اليهودية الثرية التي كانت تعيش بالإسكندرية، والصورة الثانية للأستاذ يعقوب أيام الشباب، يرتدي ملابس البحر وحوله ثلاثة من الأولاد، أحدهم مشغول ببناء قصر في الرمال.

وفي الأركان صور أخرى لعبد الوهاب وأم كلثوم وليلى مراد والفنانة اليهودية كاميليا فاتنة السينما في الخمسينيات، وكلهم في سن الشباب، والصور بأحجام واحدة وفي براويز خشبية مطلية باللون الرمادي الفاتح. وثمَّة صورة أخرى لم ألحظها أول الأمر، رغم أنها كانت معلقة أعلى البيانو بقليل.. كان حجمها أكبر من الأخريات، وبالأبيض والأسود لرجل في عقده السابع يرتدي حُلَّة من حلل زمان وعلى رأسه طربوش، وعينه اليمنى يغطيها (مونوكل) تتدلى سلسلته حتى جيب الصديري البارز قليلًا من خلف الجاكت، ولم تكن وقفته مستقيمة إنما مَحْنيّ ويتكئ على عصا في رأسها بروز أو شيء يشبه العقفة.

تأملت الصورة..

فقال لي الأستاذ يعقوب: البابا، صروف أبو السعد.

ولحقنا جدي، قائلًا:

- صروف (بيه) أبو السعد، دا كان بيه رسمي يا جلال، خد البهوية أيام السلطان حسين، ناس أفاضل، أهل عز ومحترمين.

وقبل أن نجلس انحنى الأستاذ يعقوب على جهاز تسجيل يعلو منضدة صغيرة سطحها من الرخام، أداره فأتانا شدو أم كلثوم مترنمة بالرباعيات:

غدًا بظهر الغيب واليوم لي

وكم يخيب الظن في المقبلِ

ولست بالغافل حتـى أرى

جـمـال دنيـاي ولا أجتلـي

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يبدو أننا بكَّرنا في الحضور، فقد قال لي جدي أثناء الطريق: إننا ذاهبان للقاء أصدقاء له في جلسة أشبه بالحفلة، غير أني لم أجد أحدًا ومكثت برهة أتطلع حولي وآكل ببطء ثمرة تفاح من طبق الفاكهة الذي قدمته لنا خادمة فرنسية عجوز، تلاه قدح (كابتشينو) وغمرني إحساس بأن ثمة شيئًا يجري بين جدي

وهذا الرجل، ربما أتى هذا الإحساس من نظرات تبادلاها من ورائي، أو من كثرة ما رمقني الرجل بنظرات تحتية معتقدًا أني غافل عنه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبدأ الضيوف في التقاطر..

ثيابهم تدعو إلى الرثاء!

سويترات وبنطلونات غير جديرة بالاحترام وأحذية الواحد منها كالمركوب، وياقات قمصان تآكلت حوافها وطواقي صوف وأغطية للرأس لا تربطها صلة بالزمن الذي نعيش فيه، أما المعاطف فعلى غرار معطف جدي، لا لون لها أو موديل، ولو أدخلناها في مسابقة للقبح لحازت على أعلى الدرجات.

وجوههم أقرب إلى السمرة والهم والكآبة يخيمان عليها، يخلعون القفازات أول ما يدخلون ويلقون بأبدانهم المتعبة على المقاعد، ومنهم من كان يسترخي برأسه على حافة المقعد وهو يلهث، فقد كانوا كبارًا في السن وبعضهم يأتي من أماكن بعيدة (سان كلو) و(ڤرساي) وأحيانًا (فونتنبلو).

كلهم من اليهود الذين كانوا يعيشون بمصر ورحلوا عنها، الذي كان يسكن في حارة اليهود ببلبيس، أو بالقرب من وكالة اليهود بدمياط، والذي كان يعمل صيرفيًا في دمنهور، أو صاحب ورشة أو محل للمانيفاتورة بالمنصورة أو رشيد...

جمعتهم الغربة فلم يعرفوا بعضهم البعض إلا هنا، والفضل يرجع إلى الأستاذ يعقوب، التقطهم واحدًا بعد واحد، وجعل من شقته ملاذًا لهم يأتون إليها ليلة السبت الأول من كل شهر يتذكرون الأيام الخوالي، ويرمي كل منهم همومه على الآخرين. وكان الرجل يعد لهم وجبة عشاء فاخرة ولا يبخل على الفقراء منهم بالأعطية، نقود وثياب قديمة أو ما يتبقى من طعام بعد العشاء.

لم تؤثر فيهم الحياة التي عاشوها هنا، على سجاياهم وطباعهم التي كانوا عليها في مصر، يتحدثون بصوت مرتفع ويقاطعون بعضهم أثناء الكلام، ويلوحون بأيديهم في وجوه بعض ويقهقهون أحيانًا بلا سبب، ويفسدون السجاجيد بأحذيتهم المتسخة، ويتنخمون بأقصى عزمهم بلا لياقة أو مسحة من ذوق، بل وواحد منهم كان يجلس في مواجهتي طرأ عليه خاطر وهو يتنخم فتوقف وأخذ يتكلم والمنديل على أنفه، ولما فرغ عاود التنخم من جديد.

كان الله في عون الأستاذ يعقوب، إذ كانوا يجعلون الجلسة أقرب ما تكون إلى جلسة على مقهى من المقاهي الشعبية في الزاوية الحمراء أو بولاق

الدكرور، وكانت الخادمة الفرنسية تتأفف منهم وترطن وتلعن الظروف التي جعلتها تخدم هؤلاء الأوباش.

ويتداخل الحديث..

الذي يروي آخر نكتة سمعها من أحد القادمين من مصر، ويكون المتكلم عجوزًا لا أسنان فيه وقطع الرجاء من الدنيا، والنكتة بالغة الفحش وقلة الأدب مما يجعلني أستحي! والذي يلعن عبد الناصر فجأة لأنه سبب (الوكسة) التي هم فيها، فيشوح في وجهه آخر قائلًا: ليس عبد الناصر وإنما إسرائيل (بنت الكلب) هي السبب، فقد كانوا يعيشون مع أقرانهم المصريين في وئام ولولاها ما حدث لهم ما حدث، ومن يتأوه ويقول: إنه كاد أن يموت وحيدًا في فراشه ليلة الأمس لولا ستر الله، والذي تدمع عيناه وهو يترحم على صباه في حي الجمرك بالإسكندرية أو شارع كامل صدقي بالفجالة، أو يتحسر على شقته بالظاهر المكونة من خمسة مطارح ولا يتعدى إيجارها أربعة جنيهات!

الأستاذ يعقوب (مايسترو الجلسة) يهدئ من روع هذا، ويلفت نظر الآخر كي يذهب إلى الحمام ويغسل يديه بعدما أكل بدلًا من مسحهما في قماش المقعد الذي يجلس عليه، ويذكر ثالث بقواعد الأدب واللياقة وأن يخجل من نفسه ويلقي برماد سيجارته في المطفأة وليس على السجادة الكاشان، وكان يحتد أحيانًا ليمسك بزمام الجلسة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وعندما انفتح الكلام عن مبادرة السادات لاحت الأحلام الوردية، ظن أكثرهم - وأولهم جدي - أن المسألة حُلَّت وأنهم راجعون إلى بلادهم خلال أشهر قليلة، بل وأشغالهم ومساكنهم التي كانوا فيها.

يتنقل الأستاذ يعقوب ببصره بينهم، ثم يسأل واحدًا منهم:

- مش إنت بعت بيتك وورشتك اللي في رشيد يا معلم نسيم!

ينظر إليه المعلم نسيم دون أن يتكلم، فتزداد نبرة الأستاذ يعقوب حدة:

- بعتهم ولا مبعتهمش؟ بعتهم! طيب هترجعهم إزاي؟!

فيهرش المعلم نسيم في رأسه:

- أشتريهم تاني..

- يا سلام! وهيَّه الناس تحت أمرك لما تحب تبيع ولما تحب تشتري! وبعدين تعالى هنا هو انت تحتكم على فرنك واحد، دا أنا أول واحد عارف ظروفك.

فيسكت..

يحدق الأستاذ يعقوب في عينيه، فيهبط الرجل ببصره.

- ومين لك هناك! إبنك يوسف في كندا وآديك مشفتوش بقالك عشر سنين! وبنتك متجوزة في اليونان، ولا لك أخ في مصر ولا ابن عم أو ابن خال، هترجع لمين بقى يا أبو يوسف! لمحمد ومحمود وخليل الرشايده اللي انت متعرفهمش ولا همَّه يعرفوك! إصحى يا معلم نسيم! واعرف إن ناسك هناك بتوع زمان معدش لهم أثر، تلاقيهم ماتوا وشبعوا موت.

ويقول رجل آخر:

- بس دي بلدنا يا أستاذ يعقوب! اتولدنا وكبرنا فيها، عمرك سمعت عن شجرة عجوزة قلعوها من مكانها ونفعت لما زرعوها في أرض تانية! يمكن عيالنا وعيال عيالنا ميفهموش الكلام ده لأنهم متولدوش في مصر واللي اتولد فيها فاتها وهو صغير لا عرف شارع ولا جار ولا قعد على قهوة أو كان له صاحب، دي بلدنا يا ناس ولما الواحد يختلي بنفسه ويشغل الكاسيت ويسمع أغاني زمان يقعد يبكي زى العيال..

كانت مصر بالنسبة لهم أشبه بالفردوس المفقود..

فلا علاقة لهم بالدنيا التي يعيشون فيها الآن، غريبة عليهم وهم عنها غرباء، لا يعرفون عنها إلا وجه صراف البنك الذي يقبضون منه منحة الضمان الاجتماعي عندما يحل اليوم الأول من كل شهر، ومحل البقالة الذي يتسوقون منه حاجاتهم، وشقة الأستاذ يعقوب التي يسرعون إليها كلما دعاهم.

ذبلت علاقاتهم بأولادهم، هاجروا وخلفوهم، ساحوا في بلاد الله ولا يسألون عنهم إلا لمامًا.

لم يعد لهم إلا هي..

هي السلوى والحنين، وخزة الألم وطيف الأمل، هي الشمس التي غربت، ولا دفء عادوا يشعرون به..

تأتي إليهم عندما يكونون فرادى في بيوتهم، تكلمهم ويكلمونها، تغويهم فيصدقونها، تشير إليهم وإذا هي سراب!

يهيمون فيها مثلما يهيمون في أصحابهم الذين ماتوا، يناجونها مثلما يناجونهم، يعرفون أن الزمن فات عليهم ولن يطالوها أبدًا، ومع ذلك لا يكلون من الوجدِ

والتفكير، العقلاء منهم أدركوا أن الجهد قل، والعمر ولى والأمل خاب، فاكتفوا بأن تعيش فيهم ماداموا عاجزين عن العيش فيها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ودق جرس الباب..

ولما تبين أن القادم هو إبراهيم أبو كف هللوا له جميعًا، حتى أن الأستاذ يعقوب نفسه خرج عن وقاره وصفق له، ثم أسرع إلى الداخل وأحضر له آلة العود.

كان أمره مختلفًا عنهم، إذ كان عوَّادًا شهيرًا بالفرق الشعبية بالإسكندرية، وبعد أن ماتت زوجته أغواه أحد اليهود بالرحيل فترك مصر وله فيها ابنة متزوجة يعودها بين الحين والآخر، ويقتات في باريس حاليًا بالعزف على العود في علب الليل الرخيصة التي يؤمها عرب شمال أفريقيا خاصة، وقد فتح الله عليه فألف عدة قطع موسيقية متوسطة القيمة أو ربما أقل، إلا أنها لاقت قبولًا وذاع صيتها في أوساط العرب المهمشين والبسطاء باسم (مقطوعات أبو كف)؛ لما بها من شجن مبالغ فيه وحسرة على الغربة وحنين إلى ما فات.

احتضن أبو كف العود وبدأ في تجربة أوتاره بأصابع يده اليمنى، فكانت تستجيب له مخرجة له نغمات بعضها رفيع وبعضها كالأنين، وكانت المفاتيح الخشبية للعود تئز هي الأخرى تحت أصابع كفه الأخرى المشغولة بضبطها والتأكد من ليونتها.

وعم السكون، حتى الخادمة الفرنسية الغضوب والتي تعمل لهذه الليلة ألف حساب دخلت على أطراف أصابعها، ووضعت أمام أبي كف صينية صغيرة عليها فنجان القهوة وقدح من الينسون، وتأدب الحاضرون لا صوت ولا نَفسَ، تعلقت أبصارهم به هو والعود.

كانوا يعرفون ما سيشدو به، فالأغنية الأولى لا مجال فيها للاختيار، إنما هي تقليد يبدأون به حفلاتهم الشهرية منذ زمن طويل.

وتنحنح أبو كف مثلما يفعل عبد الوهاب، وانسابت منه الكلمات تناجي الجالسين وتقول:

حـب الوطن فرض عليـه أفديه بروحي وعنيه..

ليه بس ناح البلبل ليه فكرنـي بالـوطن الغالي..

قضيت أعز شبابي فيه وفيه حبايبــي وعذالي..

وإن شاف هوان ولا أسيه أفديه بروحـي وعنيه..

وتوقف ليرتشف من قدح الينسون، ثم انشغل لحظة بضبط وتر مشاكس كاد أن يصدر عنه نغم شاذ عندما هم بالغناء، والحضور عيونهم نصف مغلقة من النشوة، بعضهم يهز رأسه وبعضهم يقول: الله.. الله.. أو يميل على جاره يسر في أذنه شيئًا، ووضعت الخادمة الفرنسية - والسيجارة في فمها - مقعدًا من الخيزران أمام باب المطبخ، وجلست تتابع هذا الهوس عن قرب.

وبدأ أبو كف ثانية:

يا مصر أنا رضعت هواكي من الصبا وجري في دمي..

أحب نيـلك وسمــاكي إنتـى أبــويا إنتـي أمـي..

مليش يا مصر حبيـب غيرك أميل إليـه في الدنيا دي..

دا أنا اللي متربي في خيرك وإزاي راح أنسى هوا بلادي..

ونيـلك الحـلو الصافـي أفــديه بــروحي وعنيـه..

وبعد أن فرغ صفقوا له كلهم، وقام إليه بعضهم يقبله على وجنتيه، وشجر الخلاف على الأغنية الثانية إلى أن استقروا على أغنية (سواح) للعندليب.

وبدأ الشدو من جديد:

سواح وماشي في البلاد سـواح..

والخطوة بيني وبين حبيبي براح..

وأستأذنا أنا وجدي، تاركين القوم في لهوهم وأحزانهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الطريق سألني جدي، عن رأيي في الأستاذ يعقوب..

كان الرجل يبدو أمامي كما لو كان محسنًا ومنانًا، عطوفًا ومتعاليًا، فقلت لجدي:

- آهو كويس..

- كويس.. دا كويس وكويس! راجل محترم وابن ناس طيبين.

وكلمة في كلمة حتى وصل جدي إلى مأربه:

- أصل بصراحة يا ابني الراجل متقدم للماما.

كنا قد دخلنا محطة بارباس ونهم بالوقوف على السلم الكهربائي، فعدلت ورجعت خطوة إلى الوراء وأنا أقول له مدهوشًا:

- الماما! ماما مين؟ الماما بتاعتي!

- أيوه يا ابني.

- وهيَّه عارفة؟

- أيوه عارفة وشافته مرة واتنين وموافقة على شرط انك توافق.

- آه يا يعقوب يا ابن الكلب!

فرمقني جدي بنظرة لائمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

13

ونشب القتال بيني وبين أمي..

لم أعقل أنها يمكن أن تتزوج، لا طاف في بالي هذا الخاطر أبدًا، أو تحسبت من يوم يغلق فيه باب عليها هي ورجل آخر.

ومع من؟!

مع هذا المتعاجب فاقد الصلاحية الذي كنت ضيفًا عليه قبل أيام، فهل هذه أصول الضيافة وإكرام الضيف يا أستاذ يعقوب؟ يا ابن الأكابر وسليل البكوات! تضيفني بتفاحة وقدح من القهوة وتتركني خالي البال بين رفاقك المهاويس، وأنت تخطط وتدبر للسطو على أمي (يا خرَّاب البيوت).

طار بها المجرم إلى مخدعه بشارع (چي موكيه) لتسري عنه وتدلك أطرافه المتيبسة، وتدخل وتخرج بأطباق الفاكهة وكؤوس النبيذ على أصحابه التعساء بدلًا من الخادمة الفرنسية العجوز.

غافلني تاجر البصل هذا، ولا أقدر على فتح فمي بكلمة! ففي يده ورقة اسمها (الكاتوباه)[15] ، وبكفه صافح جدي واتفق معه على ذلك الذي يسمونه في شرعهم (الشطار تنائيم)[16].

وأصبحت أمي طعامًا يلوك فيه..

وكلما جن الليل اختلطت أنفاسه بأنفاسها، وتسللت أصابعه إلى حمالة صدرها..

أليس هذا نهشًا بمخلب؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وأنت يا جدي أليس لك قلب يرحم؟!

أكنت تدبر الأمر من ورائي، وأنا الذي أحبك! أطاوعتك أصابعك ووقَّعت على هذه (الكاتوباه)، ألم يقل لك قلبك إنها صك باستحلال أمي! باستحلال أم جلال!

فمالي أنا يا جدي وهذا المسخ الذي تزفونه الآن إلى الأستاذ يعقوب، مالي أنا وهذه المرأة التي صار اسمها مدام يعقوب!

لا أعرف هذه المرأة الجديدة يا جدي، ولا أريدها..

ليست أمي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وأنتِ يا أم جلال، أين الذي بيني وبينك؟!

الكثيف. العميق. الرؤوم. الرحيم. المبهج المفرح. الصامت المتكلم.

أين كل هذا؟!

أكأنه لا وقع ولا كان..

طالما قلتِ لي يا أمي إن كل ما فعله أبي، هو أن ألقى في أحشائك نطفة وذهب.. مجرد نطفة! عمياء. صماء. لا قوة لها أو عقل يفهم! وأنتِ من صنع وربَّى وطبَّب وأحب وأعطى..

فأنا قطعة منكِ كما تقولين..

قطعة منكِ سواءً أكنت ضائعًا في أحشائك، أم راقدًا في حجرك، أو حتى كبرت ورزقني الله بشارب وأولاد..

وأنا أصغي..

كنتِ تستغربين عندما أصوم وأصلي، ففي ظنك - سامحك الله - أنني يهودي مثلك، وتتعجبين من قلة وفائي إذا خرجت ولو قليلًا عن طوعك.. فإلى الحين لم أعِ أننا - عفوًا أنتِ أولًا ثم أنا - عقل واحد. قلب واحد. دين واحد.

العقل بالطبع هو عقلك، والقلب قلبك، والدين دينك، فأنا النوتي وأنتِ القبطان..

هذا ما كنت أفهمه إن لم يكن بالتصريح فبالتلميح، تقولينه في صفوك وغضبك، وكأنَّكِ بقدر ما تعطين بقدر ما تملكين وتتملكين!!

وأيضًا أصغي وأحيانا أشفق..

وأقول في نفسي: هل هو المعتقد الديني؟!

لا أظن..

هل لأن قلبها فرغ قبل الأوان؟!

ربما..

ويأخذني الشيطان تارة إلى بعيد، وأقول: لا حل مع أمي هذه، وأكيد هي في حاجة إلى طبيب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هذا الذي كنت أحسبه في أمي وأرثي لحالها منه، لم أكن أعرف أن بعضًا منه كان يقبع في أعماقي أنا الآخر، يقبع صامتًا، مستكنًا، لا أدري بوجوده.

فعندما قال لي جدي ما قال عظم عليَّ الأمر، ليس لأنها سوف تدعني وتتزوج وحسب، إنما الأشد والأنكى أنها سوف تتزوج رجلًا ليس من ديننا ولا ملتنا!!

فشيء في داخلي كان يظن أنها مسلمة مثلها مثلي!

مسلمة لا يحق لها أن تقدم على هذه الفعلة!

كنت أجهل أني أفكر مثلما تفكر، كنت بالفعل أجهل.. لكن من قال إن الجهل بالشيء ينفي وجوده..

فيبدو أن كُلاًّ منا، ودون أن يدري، كان يصنع الآخر على هواه.

أراها مسلمه، وتراني يهوديًا..

أراها أمي وحالي ومالي وخاتمًا في بناني، وأنتِ الأخرى (يا ست الحبايب) مثلي.. عفوًا مرة ثانية، فأنا صنيعتك وأنا الذي مثلك وما حسبتِني يومًا إلا عضوًا من أعضاء جسدك.

أتحمل مكنونات أنفسنا أشياء لا نعلم بها؟

أشياءً لا تفصح عن وجودها إلا عندما نُستثار..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الحق إنها حاولت مرارًا حثي على الكلام، أنا الذي لم أستجب..

فقد كان ما بصدري لا يقبل الأخذ والرد والتبرير، أو تصلح معه أنصاف الحلول.

وبدأت تشعر بالضجر مني، وأنا بالسخط، وشيئًا فشيئًا لم نعد نتكلم إلى أن دب بيننا القتال.

قتال بالأعين وليس باللسان..

تكون جالسة أمام المرآة أو ترتب أشياءها في الدولاب فأرمقها من الوراء، تشعر بي وتستدير برأسها نحوي فأترك عينيَّ تجوسان في عينيها إلى أن تخفض بصرها، وعندها أتركها وانشغل بأمر آخر..

وتكون عائدة مع جدتي من الخارج، وخلفهما راشيل.

ترمي جدتي الكيس الذي في يدها على أقرب مقعد وتلهث مسرعة إلى الحمام، وتئن هي وراشيل من كثرة ما تحملان: أكياس بها ثياب، علبة من الورق المقوى بها قبعة، وأخرى مستطيلة بها فستان، وأشياء قابلة للكسر ولوازم للعرسان..

أتابعهما وهما تضعان أشياءهما، وعندما تفرغان وتتأهبان للكلام معي أقوم تاركًا لهما المكان.

وإذا اجتمعنا كلنا على مائدة أو سهرنا معًا بالليل، كنت أتحاشى النظر إليها إلا إذا كانت غير منتبهة لي، وكنت ساعتها أدور بعيني مع القُرْط الذي في أذنها ويهتز كلما مالت بعنقها صوب اليمين أو اليسار، وشعرها الذي أصبحت تصففه كالبنات الصغار، وأحمر الشفاه الدامي الذي يحاكي الأنواع التي تستخدمها الغانيات، وحاجبيها اللذين رقا على غرار موضة هذا الزمان..

وعندما كانت تقول شيئًا يستحق الضحك لا أضحك، وإن تبسمت لي لا أتبسم، وإن اضطررت فبالمقاس.. بالملليمترات..

لاحظ جدي، غير أنه لم يقدر على فعل شيء، أما جدتي فكان لديها تعليمات مشددة بأن تلتزم الحياد.

لم أجد السلوى إلا عند راشيل..

كانت تقلني بسيارتها وتجوب بي باريس طولها وعرضها، أو تأخذني ونجلس في أحد المقاهي بالشانزليزيه أو مونمارتر أو سان چيرمان، ثم نسهر في صالات الديسكو ونرقص طوال الليل كالمجانين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ورحلَتْ عن البيت..

خلَتْ غرفتنا إلا من أشيائها القديمة، وصورة لها معلقة على الجدار.

لم يفلح غضبي مما فعلت من إطفاء وحشتي وشوقي لها، وأحسست بالفقد وبيتم جديد..

وعندما ينام أهل البيت كنت لا أكف عن الكلام مع نفسي، وأسألها هل أنا ظالم أو مظلوم؟

وفي أثناء صفوي أقول: ألا تستحق أمي وبعد كل هذا الذي فعلته لي أن تعيش، أوَليس جدي معذورًا هو الآخر عندما يرتب لها مأوى قبل أن يموت..

ورغم ذلك لم أفكر يومًا في زيارتها ببيتها الجديد، أو طقت النظر في وجه هذا اليعقوب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

14

وجاءني خطاب من مصر.

من حسن أخي في الرضاع..

استهل خطابه بالشتائم وواصفًا إياى (بقليل الأصل)، وأنه لولا أن والدته أجبرته على كتابة هذا الخطاب ما كتبه، فقد هانت علينا العِشْرَة وسافرنا فجأة دون أن نكلف أنفسنا بإبلاغهم أو حتى إلقاء السلام. ولم نكتف بذلك، فها قد غبنا أربع سنوات وأكثر (ولا حس ولا خبر)، فلا سماعة تليفون رفعناها أو كلمة في خطاب أرسلناها.

وطفق يقول معاتبًا: "طيب تانت كاميليا والدتك على عيني وراسي ومقدرش أتعرض لها بكلمة، إنما إنت متقولناش! دا ماما صعبان عليها منك إنت بالذات وبتقول: دا أنا مرضعاه وياما شلته على حجري، يقوم يمكر علَّيه ويخبي ويسافر من غير ما يقول، قلت لها: يا ماما أصل فيه عرق يهودي وعمره ما بيدي الأمان لحد، راحت هشاني بضهر ايدها وقالت: عيب عليك يا ولد، احفظ لسانك وأحسن الظن بجلال".

لم أستسغ الدعابة التي قالها حسن، واستغربت من أنه لم يذكر كلمة واحدة عن نادية، وأمسكت بالقلم على الفور وحررت له خطابًا، أستحلفه فيه بالله أن يبلغني بأي شيء عنها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جاء الرد سريعًا وموجزًا..

قال: إن نادية عادت للعيش ثانية في شقتها القديمة هي والرجل الذي تزوجته، وإنه يراها كل يوم تقريبًا غير أنه لم يشأ إبلاغي بذلك في الخطاب الأول كي لا يتعكر صفوي في الغربة.

وحثني على الاهتمام بنفسي وعدم التفكير إلا في مستقبلي، فنادية أصبحت من الماضي والتفكير فيها لن يجلب لي إلا التشتت والشقاء، خاصة وأنه لا أمل في الأفق، فهي امرأة الآن، وعن قريب سوف تصبح أمًا، فهي حامل وعلى وشك أن تلد..

توقفت أمام كلمة (امرأة) هذه التي قالها حسن..

وملت بعيني على صفحة الخطاب مستغربًا متوترًا رافضًا، كما لو أن عزيزًا لديَّ يقولون عنه: ياليت بالموت أنهوا حاله، بل يعبثون بجسده ويمثلون!

نادية..

أخت النسيم.. ابنة القمر والورود..

نادية..

ذات الضفائر.. والحقيبة على الصدر.. والقلب الريان..

امرأة الآن؟!

وتمكث الليل بطوله مع رجل عن قلبها غريب!

وعلى وشك أن تلد..

أليس لدنيانا هذه خُلُق..

ألا تخجل من نفسها؟!

هل من المروءة والإنصاف أن تجند لي رجلين، أحدهما هنا يعبث بأمي والآخر هناك بعيد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ومضت أيام وأنا أروح وأجيء من محل بوشار كما الآلة، وألبي طلبات جدي وجدتي أو أجيب على الهاتف، مرة خالي شمعون ومرة راشيل ومرة امرأة من صاحبات جدتي اسمها (سمكة) ريحها ثقيل ونبرة صوتها غليظة كالرجال.

أفعل كل هذا واجمًا والكلمة على قدر الكلمة، فلا حرف زائد أو خلجة انفعال إنما حاضر وطيب وشكرًا، وكان المسييه رينيه مدير محل بوشار يتأملني أحيانًا ويقول: لماذا أنت حزين هكذا يا ولدي!

أقول له: لا شيء لا شيء، شكرًا يا سيدي.

وأومئ له برأسي، أو أتبسم إن استطعت.

وطالما واساني الأستاذ أكرم أبو الشوارب رئيسي المباشر في العمل، كان يربت على كتفي ويقول:

- يازلمة مالك زعلان، شو عملت الدنيا معك؟

فأرد عليه بكلمة أو كلمتين وأعود إلى عملي.

مشكلتي كانت في السَّرَحان وعدم التركيز، والأطياف التي كانت تأتيني بلا استئذان.

طيف نادية.. وهذان الطيفان اللعينان اللذان كانا يطبقان على أنفاسي ولا أستطيع منهما فكاكًا، الأستاذ يعقوب زوج أمي، وهذا البشري الذي تزوج من نادية..

أدفعهما عن بالي وأنشغل بعرض قطع الأقمشة على المبتاعين، إلا أنهما لا يفارقانني وإن فارقاني فدقيقة ويعودان. أجلس مع الشيخ منجي ويكون معنا أحيانًا المامادو الذي يحيل الجلسة إلى شيء أشبه بالمسخرة، فيعتدل مزاج الشيخ ويقهقه بأعلى صوته ويهتز بجسده حتى يكاد يميل به المقعد، وأفعل مثله وأنا أتأمل سحنة هذا المامادو إلا أنهما يقطعان عليَّ الطريق فجأة، فيتبدل حالي وأهب واقفًا ومغادرًا المكان بين دهشة الجالسين. وعندما ألزم غرفتي كانا ينفردان بي، لا أتخلص من إلحاحهما إلا إذا سحبت المصحف الصغير الذي أضعه أسفل مخدتي وأجلس لأقرأ فيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الغريب أنني لم أر من قبل هذا المخلوق الذي تزوج من نادية أو سمعت عنه وصفًا، ورغم ذلك بدا ملمحه وهيكله دقيقين أمام عينيَّ.. الأنف، الحاجبان، العينان الزرقاوان، صيوان الأذن الذي تكمن فيه (حَسَنة) في حجم رأس الدبوس، وقامة عفية مدكوكة يكسوها بنطال وقميص وشرز ضيق من عند الإبط طرازه قديم.

حدث هذا في طرفة عين ودون أن أتخيل أو أفكر أو أقصد، رأيته أمامي في ذات اللحظة التي قرأت فيها قول حسن في الخطاب: إن نادية أصبحت امرأة رجل آخر الآن، وطالما وقفت أمام نفسي حائرًا بعدها، وأسألها من أين أتت بهذا الوجه وهذه القامة والثياب؟!

جاءت الإجابة بعدها بأكثر من شهرين..

كان جدي عائدًا من زيارة أمي ومعه ألبوم صغير، أخذ هو وجدتي يطالعانه وهما يحتسيان الشاي.

أكثر الصور لأمي وهذا اليعقوب، واحدة وهما في ساحة (التروكاديرو)[17] أمي ببنطلون چينز وصدرها مكشوف، وهو بقبعة وملابس (كاچوال)، وصورة ثانية، وعديم الأدب هذا، يقبلها في الشارع وأمام الناس، وثالثة أمام مبنى (البانثيون)[18] ، وصور أخرى أثناء نزهة قصيرة أمضياها في مدينة (كَانْ) بالجنوب، وفي الورقة الكرتونية الأخيرة من الألبوم صورة قديمة (أبيض وأسود) لرجل نحيل القوام بقميص نصف كم وبنطال يقف أمام مبنى الجمرك بالإسكندرية، واضعًا سيجارة في فمه ويشير بيده إلى شيء بعيد.

قلت لجدي: من هذا الرجل؟

تبسم وقال: ألا تعرفه؟ إنه الأستاذ يعقوب عندما كان شابًا.

قلت في نفسي: يا سبحان الله! هو بالفعل، وتذكرت في الحال أني رأيت وجهه هذا - وبكل هذه الملامح والتقاطيع - في الصورة التي كان يجلس فيها مع أولاده على شاطئ الإسكندرية.. الصورة التي كانت معلقة على جدار الصالة بشقته، ورأيتها خطفًا عندما قمت بزيارته أول مرة مع جدي..

وسهمت لحظة متسائلًا..

أليس هو أيضًا الوجه الذي يأتيني على أنه زوج نادية؟!

يكاد يكون هو إلا شيئًا قليلًا..

لا حول ولا قوة إلا بالله! غفلت عن صورة الأستاذ يعقوب التي كانت معلقة على الجدار، إلا أن شيئًا فيَّ لم يغفل، التقطها واختزنها بعد أن أضاف إليها بعض الرتوش، وجعلها تلوح لي بين الحين والحين لتؤلمني وتكدرني، بعدما أفهمني أن صاحبها هو غريمي اللدود الذي فاز بنادية وأنا قابع هنا.. تافه غريب!

غير أن القامة ليست قامته! فالأستاذ يعقوب له قامة طويلة ونحيل، والطيف الذي يأتيني قامته قامة رجل مدكوك ومتين..

وعندها لاح أمامي طيف الشيخ مصطفي خال نادية، الذي قالوا عنه في مصر حتى وأنا هناك وقبل أن أجيء، إنه يسعى لتزويج أحد أولاده من نادية!

كثيرًا ما التقيت بالشيخ مصطفي هذا أمام باب عمارتنا في الظاهر، أو وهو صاعد على درجها أو هابط عليه. كان يجيء لزيارة شقيقته مدام السبكي والدة نادية كل أسبوع تقريبًا بعد صلاة الجمعة، ويمكث معها إلى ما بعد أذان العصر.

يا الله! يا الله! قامته هي بالفعل قامة الرجل الذي أراه!

ولبثت تائهًا في هذا الطيف اللحوح الذي استعار من رجل عجوز وجهه الذي كان له في الشباب، والقامة لشيخ من الشيوخ علق في بالي لأمر ما..

ما هذا الذي بداخلنا..

ما هذا الصامت الجبار الذي يسكن أجسادنا، ومع ذلك يفكر ويخلق ويصور ويفعل بمعزل عنا! بل ويمكر بنا ويؤلمنا إذا شاء!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبدت الأيام كئيبة كالحة لا معنى لها..

وذات ليلة انتبهت جزعًا لمن يلكزني في كتفي، ويناديني بصوت مرتفع.

كان جدي..

قال: إنه سمعني من غرفته وأنا أزوم، وأتكلم مع نفسي بصوت مسموع..

وجلس على حافة السرير إلى جواري، يجس حرارة جبيني ويتحسس أسفل صدغي ملتمسًا اللوزتين.

قلت له: لست مريضًا يا جدي! أنا بخير، مجرد كابوس..

فقرأ لي بعض الأدعية، ثم قبلني على وجنتي وأحكم عليَّ الغطاء وقام.

قال وهو يهم بإغلاق باب الغرفة: هل أترك لك النور مضاءً؟

قلت: نعم.

قال: سوف أذهب أنا وجدتك غدًا مساءً لزيارة أمك، هل تجيء معنا؟

قلت: لا.

وأنا أشد الغطاء على وجهي.

قال: استعذ بالله من الشياطين قبل أن تنام كي لا تدهمك الكوابيس.

هززت له رأسي بالإيجاب من أسفل الغطاء، ورغم ذلك جاءني كابوس آخر.

فكأني أمشي متوجسًا في طريق مترب تحده سيقان زرع كثيفة متشابكة تحجب ما وراءها، ولاح لي عن بعد ومن بين أشجار الزرع طيف لرجل على رأسه قبعة، وكأنه يميل على الأرض ويدفع أشياءً تجاهي. أشياءً لم يكن متيسرًا لي رؤيتها من مكاني؛ غير أني كنت أسمع خشخشة أوراق الزرع الجافة تحت وقع دبيبها، وفي اللحظة التي انشغلت فيها بهذا الطيف خرج عليَّ جمع من الديوك الرومية رافعة مناقيرها في وجهي وتقوقئ، وكل واحد منها له لغد أحمر كبير يترجرج أمامه..

كنت في حال مزرية، فلا أنا قادر على هشها بيدي أو حتى الصياح طالبًا المساعدة، ومن مسافة قريبة يتأملني رجل قامته مديدة وعليه إزار غريب الشكل وفوق رأسه طرطور، كان أشبه بالدراويش، لم يكن خائفًا مثلي من هذه الديوك أو حتى مكترثًا بها، ونظراته تشي بأني استحق ما تفعله بي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

15

وازددت قربًا من الأستاذ أكرم أبي الشوارب..

أول ما لفت نظري إليه حجمه الكبير سواء من حيث الطول أو العرض، كان أشبه بدولاب الملابس، وله شارب أبيض ذوائبه مصفرة أو بلون قريب من لون الكهرمان، من طول اختلاطها بسحابات الدخان التي تصعد من لفافات التبغ التي لا تفارق أصابعه. أما شعر رأسه الكثيف فكان مربط الفرس أو بيت القصيد كما يقال، مفروق من المنتصف بالضبط (بالحساب والمسطرة) ومن كثرة الزيوت الموضوعة عليه - ويبدو أنها من نوع مخصوص - لم يكن الشعر منفصلًا عن بعضه كسائر الناس، وإنما مجتمع على هيئة جُزَم أو كتل، وبحيث لا تستطيع نكشه أو إزاحة شعرة هنا أو شعرة هناك، فالكتلة كلها كانت تتحرك معك، ومن الخلف خصلة كبيرة متدلية إلى أسفل وملفوفة بمقبض من البلاستيك وأحيانًا (ببنسة) كما هي الموضة في باريس وقتها. وبالنسبة لتقاطيع وجهه فهي الأخرى تدعو إلى التأمل: الأنف، الأذن، الفم، والعينان، فكلها كلها من الأحجام اللامعقولة، وقبضة يده تضاهي قبضة يد ذَكَر غوريلا يافع.

كان على أبواب الستين إلا أن مظهره يقول غير ذلك، إذ كان يبدو فتيًا ووجهه متوردًا بالدماء، ورغم أنه يعيش في باريس منذ ثلاثة عقود؛ غير أن ثيابه كانت من الطراز القديم، طراز الخمسينيات على أكثر تقدير. وكان، ولا حسد، مصدر جذب للمحل خاصة بالنسبة للسيدات الفرنسيات المسنات، كن يسألن عنه بالاسم أول ما يدخلن من الباب، ويتأملنه أكثر مما يتأملن قطع القماش، ويشترين منه بتأثير سحره وجاذبيته وليس بالضرورة لجودة القماش أو اعتدال السعر. ولهذا كانت له منزلة خاصة عند الخواجة بوشار صاحب المحل، طلباته مجابة وأجره في ازدياد وأيقونة المحل، وبالرغم من ذلك لم يكن راضيًا عن حاله، ويقول: إنه أفنى عمره في خدمة هذا المحل ولا يحصل إلا على الفتات!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أول ما عهد مسييه رينيه بي إلى أبي الشوارب هذا كنت متحفظًا من هيئته الملفتة ولهجته اللبنانية التي لم آلفها من قبل، غير أنه سرعان مازالت الحواجز بيننا، ولم يبخل هو عليَّ بأسرار المهنة حتى إني أتقنتها في أشهر قليلة، واكتشفت أن له قلبًا ريانًا كقلب ثمرة الخس، ويومًا بعد يوم توطدت صداقتنا رغم ما بيننا من فارق في السن وبدأنا في الخروج معًا..

ولكونه المُعلم أو الأستاذ في كار القماش وأنا الصبي، كنت أستجيب له وأسير على هواه وليس على هواي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان مغرمًا بالموسيقى والغناء الشرقي، فقلت لا مانع من أن أنهل مما ينهل منه أبو الشوارب.

كنا نذهب مرات كثيرة إلى ساحة (كليشي) بقلب باريس، فنجد مجموعات من شباب وشابات شمال أفريقيا قد افترشوا الأرصفة وفي حجورهم آلاتهم الموسيقية، العود والدفّ والدربكة والناي، وأخذوا في العزف والغناء، وأغلب أغنياتهم حنونة وذات إيقاع. كانوا يغنون لفريد الأطرش وعُلَّيَّا التونسية وعبد الوهاب الدوكالي، وأغاني (الراي) الجزائرية التي كنت أطرب لها دون أن أفهم معناها، ولا تنتهي الجلسة بالطبع إلا بمقطع أو مقطعين من إحدى أغاني أم كلثوم.

ويتجمع المارة ومنهم فرنسيون وسيَّاح أجانب استفزهم الفضول، يتحلقون في دائرة حول الفرقة الموسيقية التي تعزف (وهات يا غناء وتصفيق)، وكانت النشوة تستبد بإحدى الفتيات فجأة، فتخطف شالًا من أي أحد وتعقده على خصرها (وأيضًا هات يا رقص وانسجام)، ويزداد المرح والصخب فتنالني العدوى وأعيش معهم اللحظة ناسيًا زوج أمي الأستاذ يعقوب، وقرينه اللئيم الذي طالما تلاعب بي وأفهمني أنه غريمي اللدود الذي فاز بنادية ويلعب ويرتع معها الآن.

ويُستثار أبو الشوارب..

أفاجأ به ينزع سترته ويلقي بها في أي مكان، ثم يميل إلى خصره خالعًا الحزام المعقود عليه ومطوحًا إياه إلى أعلى بين صرخات المعجبين الذين يعرفونه من طول تردده، وتباعًا تباعًا يعطي الناس ظهورهم للفرقة الموسيقية ويبدأون في التصفيق له وهو يتمايل ويتثنى، وتقبل عليه إحدى الفتيات وتحزم له خصره فيزداد غليانه، ويشير للناس كي تزيد من التصفيق!

وتتوقف الفرقة الموسيقية لتعيد حساباتها وتقدم له لحنًا يتناسب مع حجمه هذا الذي يباري حجم الفيل، ويقترب منه حامل الطبلة حتى يكاد يقعي بين قدميه، ويزيد من ضرباته مضرمًا فيه النار، فيعطينا أبو الشوارب من فنه ولا تقل لي بعدها تحية كاريوكا أو سامية جمال!

أجمع متعلقاته، سترته وحزامه وأشياءه الصغيرة التي سقطت منه، سلسلة المفاتيح وحافظة النقود وبعض الفرنكات، وآخذه على ناحية بعد أن يفرغ وأجفف له عرقه كالولد الصغير.

وإذا ظهرت على أحد الأرصفة فرقة لبنانية كان النشاط يدب فيه من جديد، ويشدني من ذراعي لنركض نحوها ويقف حالمًا سابحًا فيما يغنون من أغانٍ لوديع الصافي، وفهد بلان، وصباح فخري، وفيروز، والشحرورة صباح..

كانت جلساتهم ممتعة هي الأخرى، ولا يفضون احتفالهم إلا بعد أن يرددوا ونحن معهم أغنيتهم الفلكلورية الشهيرة..

يا مال الشـــام يللا يا مالي طال المطال يا حلوة تعالي..

يا مال الشام على بالي هواكي أحلى زمان قضيته معاكي..

ودعتينـــي وعاهدتينـي مـــا تنسينـي ولا إنساكـي..

وساعات كنا نذهب لتجمعات أخرى بسان چيرمان وقبالة متحف اللوڤر وعند ساحة السان دوني، تجمعات وجماهير كثيرة أغلبها من الفرنسيين تحيط بفرق موسيقية، بعضها عاقل وناضج يعزف التانجو الهادئ اللطيف أو الڤالس الراقي الرفيع وجمهورهم من المسنين المحترمين، أو الذين يعزفون الموسيقى الصاخبة أو يغنون الروك؛ ناهيك عن فرق الجاز وموسيقى الغجر والمارتينيك، والذي انفرد بنفسه ممسكًا بآله الجيتار أو قابضًا على الكمان، يظن نفسه فرقة! ويستقطب الناس ليلتفوا حوله.

نتابعهم ولا نشارك بل وكانت المتابعة ذاتها خالية من الحمية والفضول، كنا نشعر بأنهم بشر ونحن بشر آخرون..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي إحدى عطلات الأسبوع اصطحبني أبو الشوارب مرة - هي الأولى والأخيرة - لعلبة من علب الليل بحي بيجال، اسمها (لو سيرميلو) أي الجرز أو الفأر الصغير.

(كباريه) غير محترم برأس مال عربي وإدارة لبنانية، يؤمه عرب بسطاء خاصة اللبنانيين الذي هجوا إلى باريس فرارًا من الحرب الأهلية التي تدور ببلادهم، ونجد المسيحي واسمه توني أو ريمون إلى جوار المسلم أو الدرزي محمد أو رفيق أو وليد، يصفقون ويطربون (ويفرتكون المصاري) وإخوتهم في لبنان يسفكون دماء بعضهم البعض ويتقاتلون من زقاق إلى زقاق، وعلى الموائد المجاورة بعض الجنسيات الأخرى: أفارقة وبرتغاليون ومن الهند والصين وفضوليون من الفرنسيين البسطاء الذين لا يقدرون على شراء تذكرة في ملاهي الطبقة البورچوازية (المولان روچ) أو (الفولي بيرچيه)..

وسقاة يدورون بيننا بكؤوس النبيذ، وفتيات (مسلوعات) عربيات وبرتغاليات وأفريقيات شبه عرايا رغم البرد الشديد، ويبحثن عمن يقضي معهن الليل لقاء

وجبة عشاء وبعض الفرنكات، ومذيع أصلع كاذب معدوم الضمير يصيح فينا بين الفينة والأخرى، قائلًا: إليكم الراقصة النارية ذات السيقان المرمرية والجسد اللولبي الممشوق...

فنتطلع بأبصارنا فإذا بنا أمام امرأة كما الخرتيت تتصبب عرقًا ووجهها مليء بالمساحيق والحذاء الذي في قدمها، وبلا مبالغة، مقاسه أربعة وأربعون، والسكارى يصفقون لها ويتمايلون وعندما يلسع النبيذ جوفهم يتجشؤون. واحد فقط من إخوتنا اللبنانيين هو الذي كان منتبهًا لها، أقسم هذا الرجل بالدنيا والدين وشبابه الذي أفناه في (الخبص واللبص والشجار)، أن التي ترقص أمامه الآن ليست امرأة أو تمت بصلة لجنس الحريم وإنما هي رجل، رجل - والله العظيم - ألبسوه ملابس امرأة، وأنه مستعد للكشف عليها وإثبات ذلك أمام الحضور.

ويعلو صوت المذيع ثانية: وإليكم الآن مطرب البوادي والجبال والسفوح والوديان...

ويفتح الستار..

فإذا به رجل له أنف كأنف البغل، ويصلح لأن يكون عتالًا أو مجرمًا ممن يقطعون الطريق!

والمصيبة أنه (تبغدد) علينا أول الأمر ظنًا منه - هذا التيس - أنه بذلك يشوقنا إلى سماع صوته الرخيم، فأخذ يغمز بعينه للفرقة الموسيقية كي تطيل في المقدمة، لدرجة أن صرخ فيه واحد وأيضًا من اللبنانيين:

- ما تبلّش يازلمة (ما تبتدي يا رجل) بلا حركات خلصنا طلعت روحنا ولا بنقوم نفل (نسيب لك المطرح)، فاكر نفسك يا خي وديع الصافي ولا فهد بلان! بلش بلش يخرب بيتك وبيت إمك.

وعندما بدأ، نزلت الطامة على رؤوسنا..

فقد رشقنا بموال قلب حال الجلسة، ما بين رجل ينادي من جوف (الكباريه) مصممًا على إسدال الستار على هذا الخروف في الحال، وإلا ذهب إليه بنفسه واقتص منه نيابة عن الحاضرين، وما بين مندد بهذا الصياح وقائل: بأن الرحمة فوق العدل ولا مانع من إعطائه فرصة أخرى لمدة دقيقتين وبعدها يبدأ الحساب، وأبو الشوارب كأس في كأس ووجهه في لون الدم وأحواله تقول إنه فقد صوابه أو يكاد.

أحسست بأنه على وشك ارتكاب جريمة، خاصة لما بدأ يدق بقبضة يده على المائدة مطالبًا مدير هذه (المخروبة) بالقدوم إليه في التو واللحظة!

أقول له: اهدأ يا أبا الشوارب! اهدأ ولا تفضحنا!

يقول: لا. في التو واللحظة.. في التو واللحظة..

يرددها عدة مرات ثم تقع منه رأسه على المائدة، ألكزه كي يفيق فيرفع عينيه الحمراوين إليَّ صائحًا بلسانه الثقيل: في التو واللحظة.. في التو واللحظة.. بل وعليهم أن يدفعوا لي تعويضًا عن التلف الذي أصاب أذني من هذا المطرب (أبو خيشوم)..

دفعت أنا الحساب، وجررته من يده خارجيْن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

16

ودخلت عالم التجارة..

كنا نتسكع أنا وأبو الشوارب بحديقة (اللوكسمبورج)[19] وكل منا بيده قطعة (آيس كريم) يستحلبها على مهل، وبعد برهة صمت استوقفني قائلًا: أيعجبك الحال الذي نحن فيه؟ إلى متى سوف نظل هكذا؟ ماذا نحن؟ مجرد عمال عند (الخواجة) بوشار! أُجراء يقبضون حفنة فرنكات آخر كل شهر ولا تكفينا إلا بالكاد، نحن الذين نكد ونعرق وهذا البورچوازي مصاص الدماء هو الذي يجني الأرباح!

للوهلة الأولي حسبت أن لأبي الشوارب أفكارًا اشتراكية، أو ربما من أنصار (چورج مارشيه)[20] الذي كان صيته ذائعًا في فرنسا تلك الأيام، ولا يكل ولا يمل من الصراخ كل يوم في وسائل الإعلام من الظلم الذي يعانيه الأجراء والعمال، متوعدًا ومنذرًا بسوء العاقبة لملاّك المصانع والمحلات الكبيرة وأصحاب رؤوس الأموال..

غير أني لم أعلق، اكتفيت بحك أنفي والتحديق فيه.

وطفق هو بإيقاع مؤثر:

- أيوه يازلمة بَدَّي صير غني ويصير معايا مصاري كتير مثلي مثل الناس الريش (الأغنياء)، ما بدي أظل فقير ومش قادر ساعد أهلي، بَدَّي مصاري، فرنكات فرنكات، ما بتعرف الفرنكات؟

ويبدو أن شيئًا ما لاح على وجهي واستفزه، فضغط على كتفي بشده:

- آني مش عم أمزح معك، ولمن نقولك إني بَدَّي مصاري كتير هودي (هذا) مش لأهلي هُونْ، إذ بتفتكر لمرتي وولادي إنت غلطان! وكماني أنا مش عم بقصد أمي وَبيّ (وأبويا) اللي قاعدين ببنت جبيل، آني والحمد الله ببعتلن مصروفن كل شهر، آني عم بعني الشباب ياللي ببنت جبيل ومارون الراس ودبل عين والعديسه وكمان شبعا[21]، بَدَّي أرسل لهم مصاري وساعدهم.

كنت أعرف أنه من جنوب لبنان، من قرية (بنت جبيل) بأقصى أقصى الجنوب وفي خط التماس مع إسرائيل، وطالما حكى لي عن أهلها الطيبين بشواربهم الكبيرة وسراويلهم السوداء المنتفخة من عند الأفخاذ وعلى رؤوسهم العقال، طوال حياتهم هم وآباؤهم وأجدادهم يعيشون في سلام لا يشعرون بأحد أو يشعر بهم أحد إلى أن جاورتهم إسرائيل، وأخذت منهم بعض أراضيهم بعد

حرب سبعة وستين، فحاربوها وحاربتهم تقتل منهم وتخطف الشباب والشيوخ وهم يردون. خيبوا ظن جيش الدفاع ورجال سعد حداد[22]، فقد صنفوهم على أنهم فلاحين ورعاة أغنام لا قدر لهم أو يحسب لهم أي حساب، فإذا هم أشداء لا يقبلون الضيم، والموت عندهم أهون من أن يستبيحهم صهيوني أو نفر من أنفار هذا الحداد.

خفتت نبرة أبي الشوارب قليلًا، وهو يميل عليَّ ويقول:

- فيه زلمة إجه من الجنوب وحكالي عن حالتهم هونيكي (هناك)، تعبانين يا جلال تعبانين! ومحتاجين لحدًا يمولن (يمولهم) بسلاح حتى يحاربوا اليهود وميليشيات سعد حداد، انت ما بتسمع في وسائل الإعلام عن مجموعة الشباب اللي اسمن (اسمهم) حركة أمل؟

هززت رأسي بما يفيد أني أعرف، فبدت الحماسة على وجهه:

- لا.. وفيه أخبار جديدة عن شباب تانيين[23] عم يجهزوا أنفسهم لمحاربة حداد وإسرائيل! شباب مؤمنين دمهم على كفهم وحاملين أكفانهم، وياللي مثلنا هلَّا اللي مسافرين هون وللا بأميركا وللا بالخليج لازم عليه يناضل معاهم ويجاهد إن مكنش بروحه على القليل بمساعدة مالية من شان يشتروا بيها سلاح.

وسكت، ثم تأملني قائلًا:

- مش هيك مليح؟

- أيوه مليح..

قلتها من كل قلبي، وطفقنا في السير ثانية.

خطوتان ولاح لنا عن بعد مقعدان خشبيان وفتى وفتاة يقتربان منهما، فأمسك بمعصمي وركض بي تجاههما:

- يللا يللا بسرعة نجلس هونيكي قبل ها الأزعر والصبية تبعه ما يسبقونا.

وجلسنا..

التقط أنفاسه، وقال مغيرًا مجرى الحديث:

- بتعرف ها الخواجة الأزعر ياللي بنشتغل عنده كان إيه؟! كان بياع شيال (بائع متجول) بحواري مارسيليا أيام حرب هتلر وشويه شويه كبر نفسه وإجه هون بباريس وقعد يشتغل فيها بالليل والنهار لما كون نفسه وصار عنده ثلاث

محلات، واحد في الديفانس والثاني في مونبرناس والثالث في السان توان دا غير المحل ياللي بنشتغل فيه.

وتوقف ليشعل لفافة تبغ، ومدد ساقيه إلى الأمام وهو ينفث دخانها باستمتاع:

- يا ابني يا جلال..

قالها بحنو فذكرني بالشيخ منجي، وتأملته مليًا وهو يضيف:

- بدك الحقيقة إنت معزتك كبيرة بقلبي وأكتر من هاذا إنت بمثابة أخ صغير إلِي وبتذكرني بأيام شبابي لما جيت بلشت (بدأت) أشتغل بهاذا المحل وكنت عندها فقير وأريد أعيش وصار لي تلاتين سنة بشتغل والخواجة بعده مش مقدرني مليح! والله ما بملك غير عشر تلاف فرنك في البنك هون وحولتهم أمس للجنوب.

ورمقني بمحبة:

- والله إنت شاب حبوب وطيوب ويتكل عليك الواحد، تعالى حط إيدي بأيدك ونشتغل سوا وعندها نعمل شيء كبير ومليح إِلِي وإِلَك.

قلت له: يا خي أكرم.

كان يحب أن أناديه بهذه الكيفية، حاولت من قبل أن أنادية (بعم أكرم) لفارق السن الذي بيننا أو (مسييه) لأنه رئيسي في العمل إلا أنه كان يرفض، كانت روحه شابة ويرغب في أن أناديه باسمه مجردًا، إلى أن انتهينا إلى هذا الحل الوسط.

قلت له:

- يا خيّ أكرم أنا نفسي أساعدك وأساعد نفسي بس إزاي!

فربت على كتفي:

- خلاص نتكل على الله ونشتغل سوا، نشتغل بالتجارة لأن مربحها مليح وإنت بتاخد حقك واصطفل منك إِلو، وأنا باخد حقي وبوديه للشباب بالجنوب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبدأنا في الذهاب إلى شارع (لو كير)[24] بحي مونمارتر.

أتذكر جيدًا اليوم الذي ذهبت فيه إلى هناك..

كان الرئيس السادات قد استشهد في حادث المنصة قبلها بأشهر، ونزلنا أنا وأبو الشوارب من محطة مترو بجوار متحف الشمع الذي لا يبعد كثيرًا عن هذا الشارع.

قلنا نبدأ أولًا بالمتحف..

ابتعنا تذكرتين ودخلنا في ممر طويل يحده حاجز من الحبال السميكة ذات اللون النبيتي معقودة بقوائم نحاسية براقة مثبتة بالأرض، حيث رأينا تماثيل من الشمع بالحجم الطبيعي لساسة كبار وفنانين ومشاهير: الملكة إليزابيث الثانية، چون كيندي، الملك حسين، والفنان الفرنسي الكبير موريس شيڤالييه، وفي مكان لائق تمثال صنع لتوه للرئيس السادات وبين قدميه باقة ورد كبيرة، وحوله زهور متناثرة..

وقفنا أنا وأبو الشوارب نقرأ له الفاتحة، ولبثت أنا برهة أتأمل يديه الممدودتين أمامه، وابتسامته العريضة التي طالما اشتهر بها وهو يفتتح دورات مجلس الشعب أو يلاقي الجماهير في مكان عام. وكانت تمضي خلفنا فتاة فرنسية بصحبة أسرتها، رأيتها تلقي عليه وردة بيضاء وتمسح عينيها من التأثر، وكان زوار المتحف - الفرنسيين خاصة - يقفون أمامه أكثر من أي تمثال آخر، يتأملونه بأسى ويمضون..

وبالمتحف أيضًا قاعة اسمها قاعة المرايا..

دخلناها هي الأخرى..

قاعة متوسطة الحجم على جدرانها الأربعة مرايا عملاقة، مقعرة ومحدبة وبالمقاس الطبيعي، وكلها لامعة ومصقولة والبصر ينفذ منها كما الحديد. وعندما اكتمل العدد أُغلق باب القاعة وأُطفئت الأنوار، ثم أُضيئت المرايا مرة واحدة بأشعة متدفقة وساطعة آتية من داخلها، لتبدو الدنيا أمامنا، ولا أدري كيف، كأنها غابة من غابات أفريقيا، وصرخات لطيور جارحة، وزئير وعواء لحيوانات ضارية، وشلالات ماء تندفع نحونا وكأنها حقيقية وسوف تطيح بنا.

ويهدأ الحال ويتبدل المشهد الذي أمامنا، يغدو سفوحًا مخضرة وأزهارًا برية تهتز بفعل ريح خفيفة، ويصعدون بنا فجأة إلى قباب مغطاة بثلوج قيل لنا إنها لجبل (كليمنچارو) العتيد، وفهد بعينين متلصصتين يربض بأعلاه ويرمقنا من موقعه، وتصاحبنا موسيقى خلابة رقراقة لكل من راڤيل وديبوسي[25]، تصدح بعدها موسيقى تشايكوڤسكي[26] عذبة آخاذة من مقطوعتيه: (بحيرة البجع) و(الجمال النائم).

خرجنا أخيرًا إلى شارع (لو كير) ونحن نفرك أعيننا..

شارع تجاري مزدحم في حجم ومكانة شارع الموسكي عندنا، أغلب محلاته للملابس والنسائية خاصة والبيع ليس بالقطعة إنما بالجملة، ست قطع من الصنف الواحد كحد أدنى وإلا ابتعد من هنا يا أستاذ واذهب إلى محلات القطاعي.

والشارع مليء بالتجار الأجانب، شوام ومغاربة وآسيويين ومن كل بلاد الله، أتوا للشراء (والشاطر) منهم من يفهم أسراره.

كانت خطة أبي الشوارب أن نجيء أسبوعيًا لنتابع حركة الشارع ونخطف الألوان والموديلات الجديدة، وبدلًا من أن نشتري ست قطع نشتري اثنتي عشرة أو ثماني عشرة؛ حيث يقل السعر تدريجيًا كلما اشترينا أكثر ليصل إلى النصف تقريبًا وأحيانًا أقل.

قال أبو الشوارب وهو ينقر بإصبعه على حافة علبة السجائر التي أمامه: إن عملاءنا الأساسيين هم عرب الخليج الذين يأتون إلى باريس في أشهر الصيف، وعلينا البحث عمن يدلنا على الفنادق والشقق المفروشة التي ينزلون بها، فهؤلاء القوم نقودهم كثيرة وبعضهم (غشيم)؛ ولذا فالمكسب مضمون، وعندها جاءت راشيل بخاطري وقلت في نفسي: هذه الجنية ولا شك سوف تكون أفضل معين لنا، ولو أخلصت سوف تدر علينا ذهبًا.

أتم أبو الشوارب كلامه قائلًا: بأنه قادر على تصريف البضاعة التي سوف تتبقى للشوام والإيرانيين الذين يأتون إلى باريس (على السريع) ولا وقت لديهم للتسكع في المحلات.

لكن أين نخزن البضاعة؟

هز أبو الشوارب سبابته يمينا ويسارًا وهو يؤكد على أن شقته لا تصلح، فزوجته (أم بهلول) يدها طويلة وحتمًا سوف تسطو على أكياس البضاعة أثناء غيابه والذي يعجبها سوف تأخذه رغمًا عنه! بل والأدهى من ذلك أن لها ثُلة من الجارات الفاقدات معدومات الإحساس، وتوقع أن تأذن لهن هذه المرأة الجبارة باقتحام الشقة ليتفرجن ويلبسن ويجربن المقاسات، ولا مانع من أن يستعرنها منها عدة أيام ويعدن بها وعليها بقعة زيت أو (تتشة) مسمار.

ولما عرضت عليه شقتي وافق..

لم يخذلني جدي.

رحب بالفكرة وقال: إن الشقة كلها تحت أمري، وأعطاني قرضًا بخمسة آلاف فرنك لأدخل في هذا المشروع، وبالنسبة للسداد (فعلى راحتي)، ووافقت جدتي بعدِ لأي وهي تؤمل نفسها ببلوزة بأكمام أو معطف أو حتى دستة

جوارب، أعطيًها لها طوعًا لأسد فمها وإن تباطأتُ فلا مناص من القوة و(الخناق).

وبدأ أبو الشوارب في التردد عليَّ كل أسبوع تقريبًا إما لتخزين بضاعة جديدة أو معه زبون، يجلس على مقهى بالشارع وأنا أروح وأجيء بأكياس الملابس وتعقد الصفقات.

والتقى بالشيخ منجي وشيئًا فشيئًا صارا أصدقاء، إلا أنه لم يرتح للمامادو مطلقًا، قال: إنه (زنخ) ورائحته الخالق الناطق رائحة (زبل الحمام).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

17

ولبينا دعوة الشيخ منجي للعشاء..

ذهبنا إليه أنا وأبو الشوارب، فوجدنا لديه شيخًا فلسطينيًا معممًا عرفنا منه وهو يصافحنا أن اسمه الشيخ عكرمة ومن مدينة (نابلس) بفلسطين.

كنا في خواتيم عيد الأضحى، ولا يزال ينساب في أذني ذلك الإيقاع السلس الحنون، الذي كانت تلهج به ألسنة المسلمين عند كل صلاة.

كنت أهيم معهم وهم يقولون:

الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر كبيرًا.. والحمد لله كثيرًا.. وسبحان الله بُكْرَةً وأصيلًا..

وتشرئبُّ عنقي إلى أعلى، وهم يصيحون بفخر:

صدق وعده.. ونصر عبده.. وأعز جنده.. وهزم الأحزاب وحده..

وأنحني خاشعًا بقلبي وأنا أقول معهم:

لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه.. مخلصين له الدين ولو كره الكافرون.. اللهم صلِّ على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد، وعلى أزواج سيدنا محمد، وعلى ذرية سيدنا محمد، وسلم تسليمًا كثيرًا..

رددنا هذا الدعاء أول أمس في مسجد باريس أثناء صلاة العيد، أنا وأبو الشوارب والشيخ منجي والمامادو وغلام خان الحلاق الباكستاني الذي يقطن معنا في بارباس، غير أنه لم يخطف مني قلبي أو سرت في دمي دفقة من تلك الدفقات التي كانت تحدث لي هناك! في بلدي البعيد..

كنت وأنا في زاوية الشيخ (خلف) القريبة من عمارتنا القديمة بالظاهر، كنت في هذه اللحظات، لحظات الدعاء بالذات، أشعر وكأن نفسي لم تعد طوع أمري! وتحتشد مسامي كلها بشيء أثيري يجعلني سهلًا خفيفًا طيعًا، وكأني أحلق أو شيء يأخذ بيدي ويرفعني عن المقام الذي أنا فيه! ولا أختتم الدعاء إلا وأنا أكفكف دمعة أو أقبع في الزاوية بعد ذهاب المصلين، وحيدًا ساهمًا والأمر مختلط عليّ، فهل أنا في مجرد عبادة شأني شأن من حولي من المصلين، أم في أكثر من ذلك قلبي مأزوم ويستحضر الله؟!

لم أشعر بهذا أول أمس..

كان الدعاء يجري على لساني وعيناي مشتتيْن بين هذا المامادو الذي لا يستحي من ربه وينظر في ساعته أثناء الصلاة، والشيخ منجي الذي تلهج شفتاه بالذكر والتسبيح، ومن يراه يحسب أنه من أولياء الله في الدكان والشارع ومع الناس مثلما هو الآن في الصلاة، وأبو الشوارب بعمره الذي يناهز الستين ولا يعرف إن كانت خطبة العيد قبل الصلاة أم بعدها!

هل العيب فيَّ.. (فرب هنا هو رب هناك)..

أم أن المكان والزمان والوجدان وخلق الله الذين من حولي هم أيضًا من محركات الإيمان! لا أدري وغفرانك ربي فالعيب فيَّ، ولماذا غفلت عن هؤلاء الناس الذين يعج بهم المسجد الآن: أفارقة وآسيويون وعرب وإفرنجة شُقْر عيونهم زرقاء، وكلهم راكعون ساجدون منيبون لوجه الله الكريم.

وعندما خرجنا من باب المسجد انتهز الشيخ منجي انشغال المامادو بصندله المخروم ودعانا عنده على العشاء، مشددًا علينا ألا نخبره بشيء؛ فالمامادو إذا حضر لن يُبقي على حادق أو حلو أو وعاء به طعام، والجالسون معه مقضي عليهم ولا أمل لهم حتى في شربة ماء.

هفت نفسي ساعتها إلى اللحم المسلوق (والفتة بالخل والثوم)، كنت أقضي الأعياد كلها لدى أم حسن، عيد الأضحي بالذات، أنا وحسن اللذان نشد الخروف من الطوق الذي في عنقه وخلفنا عم إدريس البواب يشوح بعصاه، وسعيد الأخ الأكبر لحسن الواقف بأعلى السلم يتهمنا بالغباء وأنه حتمًا سيفلت منا الخروف، فنلوي عنقينا تأففًا منه وأعيننا تقول له: إنك أنت الغبي والحمار.

ونقف على رأس القصاب ونشارك في تقطيع اللحم ونقوم بتوصيله إلى الناس وفقًا للكشف الذي كتبه بخط يده والد حسن الحاج محمود العطار، والشيخ سلموني أبو جاموس - لا سامحه الله أو أبقاه - الفقي المجرم الذي ألقى بكيس اللحم في وجوهنا لما هزه في يده ولم تكن الكمية على هواه، وأسرع خلفنا يتكئ على عصاه ومصممًا على الحضور بنفسه إلى حيث موقع الخروف، وأم حسن التي تحلف بأبيها وأمها وكل الأموات ألا أنصرف أنا وأمي إلا بعد أن نتناول معها الغداء، وتخرج كيسها من عبها وتعطيني (العيدية) مثلي مثل ولديها حسن وسعيد.

أعطاكِ الله الصحة يا أم حسن، ورحمةً ونورًا على تلك الأيام..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد أن تناولنا العشاء، بدأنا في تناول الشاي بالنعناع وانفتحنا في الكلام.

استهل الشيخ منجي الجلسة بالحديث عن اللجنة الصحية التي (طبت) عليه على غفلة ودخلت رأسًا إلى الثلاجة (إياها)، وفتشتها تفتيشا دقيقًا وأخذت منها عينات.

قال بوجه مغتاظ: آه! لو يعرف هذا المنجوس قليل الدين الذي لا يكف عن تقديم الشكايات فيه، فهذه ثالث مرة يقتحم فيها هؤلاء الأوباش محله ببزاتهم البيضاء والدفاتر التي في أيديهم والأقلام!

تكلمنا أيضًا عن العرب (الملاعين) المتخمة جيوبهم بالفرنكات الذين يسهرون في الملاهي، ويخرجون آخر الليل سكارى يتأرجحون مع فتيات خليعات، يركبون الرولزرويس والمرسيدس والستروين متجهين إلى شققهم الغالية أو الفنادق ذات الأسماء التي تُؤجر فيها الغرفة في الليلة الواحدة بألفين وثلاثة آلاف فرنك!

كان أكثر الكلام آتيًا من أبي الشوارب، تلاه الشيخ عكرمة قائلًا بعد أن حك أسفل شاربه بحافة إصبعه: حتى فقراء العرب - يا إخوان - ومنهم من ليس في بيته إلا ما يكفي أَودَه، حتى من هؤلاء! ولا حول ولا قوة إلا بالله، من يسهر الليل في المواخير الرخيصة بالسان توان وبيجال، ماخورَي (الجرذ) و(الكلب المسعور) أو ماخور (القرد الخليع)، ويعود سكران مترنحًا وأولاده، ومنهم صغار، يرونه على هذا الحال..

أدرت عيني تجاه أبي الشوارب وأنا أقول في نفسي: من أين عرف هذا الشيخ (العفريت) كل هذه الأشياء، وحمدت الله أن الشيخ منجي لا يدري بالذي يفعله أبو الشوارب في ماخور الجرذ، وإلا وقعت الطامة على رأسي أنا وعاتبني الشيخ عتابًا مرًا على أني أدخلت هذا الفلاتي السكّير في بيته الطاهر الشريف..

وعندما جاء دوري في الكلام، لم أجد شيئًا أقوله.

ما جاء على بالي فقط، هم ثُلة اليهود العجائز المهازيل الذين يسهرون عند زوج أمي الأستاذ يعقوب.

فحكيت عنهم..

قاطعني أبو الشوارب محتجًا:

- يازلمة هودي (هؤلاء) ناس مرتاحين ومبسوطين، هودي ناس عندهم الأكل والشرب والسكن ومش مهتالين هم شيء (ومش شايلين هم حاجة)؛ لأن اليهود الغنايا (الأغنياء) اللي هون عم يقدمولنن (يقدموا لهم) كل شيء.

وأخذته الحمية فأخرج لفافة تبغ وهم بإشعالها، إلا أن الشيخ منجي أشار إليه بألا يفعل، ففي داره لا دخان أو منكر أو شيء يغضب الله.

فأحجم متأففًا، غير أنه استمر مع الشيخ في الكلام:

- إنت من زمن هون يا سيدنا الشيخ وأكيد بتعرف (سا مارتا) و(شيسون) و(چاك رينيه) اليهود الغنايا اللي هون أصحاب المصانع والمحلات التقيلة وتعرف قد أيش بيدفعوا لليهود اللي بإسرائيل.

فهز الشيخ منجي مؤمنًا على ما قال، وأكمل هو الكلام:

- وإذا جيت على لبنان يا عمنا الشيخ وقارنتهم مع الفلسطينيين بتشوف قد أيش فيه تعتير(فقر) هونيك! الفلسطينيين يا حرام مساكين وعايشين ببيوت اَلتنَكّ[27]، بمخيمات عين الحلوة بصيدا وللا صبرا وشاتيلا اللي ببيروت، ما حدًا عم بيساعدهم وكل عيلة منن (منهن) مكونة من تسعة وللا عشرة أشخاص قاعدين لحالهم ومتكورين بغرفة واحدة ما حدا منهم مرتاح ولا يعرفوا يستقبلوا ضيف! يا حرام هودي ببلادهم كان عندهم أملاك وبيوت ومحلات وعايشين مبسوطين، كانوا مرتاحين مش هلّأ ناطرين (منتظرين) المساعدات ليقدروا ياكلوا مثل الشحاذين على باب الله!

وتحول إليَّ لائمًا:

- هودي المساكين مش اليهود اللي معاهم مصاري وإِلهِم بيوت اللي إنت بتقصدهم يا سي جلال!

وتلقف الشيخ عكرمة الحديث، قائلًا لي: أنا مسلم يا ولدي وشريعتنا علمتنا الإشفاق على الضعيف ولو كان زهرة صبار في قلب الفلاة، ولذا فأنا..

وتوقف قائلًا:

- ذكرني باسمك يا فتى؟

قلت: جلال..

فلحقني قائلًا وهو يوزع بصره على الجالسين: بارك الله فيك يا جلال، وجل من لا يسهو ولا ينام. يا إخوتي الكرام أنا غير حانق على هؤلاء اليهود الذين يتكلم عنهم ابننا جلال، هم مخلوقات الله مثلي ومثلك ولهم علينا حق الرثاء؛ غير أنهم في النهاية خرجوا من ديارهم مختارين، قد تكون الدنيا ضاقت عليهم هناك إلا أنه لم يقم أحد بإجبارهم على النزوح، بدليل أنه لا يزال في مصر يهود حتى الآن!

ونظر إليَّ.

- أليس كلامي صحيحًا؟

تريثت قليلًا ثم هززت رأسي ففهم أني أؤكد على ما قال، وخلع هو عمامته ماسحًا على زرها الأحمر القاني بطرف كم (كاكولته) العريض، وجفف صلعته بمنديل قطني أبيض مثلما يفعل الشيوخ عندنا في مصر، ومد عنقه نحوي وهو يقول بصوت مؤثر: اذهب يا ولدي واجلس مع المساكين الذين خرجوا مطرودين هم ونسائهم وأولادهم ودوابهم عام ثمانية وأربعين، نزحوا من يافا والناصرة والمجيدل والكويكات ووادي النسناس والدامون.[28] *منهم من ولدته أمه في العراء، ومنهم من مات في الطريق دون أن يتمكنوا حتى من الصلاة عليه، ألقوه في حفرة بحذائه وثيابه والغطاء الذي على رأسه، وأهالوا عليه التراب وجروا مسرعين وهم يتلفتون وراءهم؛ خوفًا من اليهود القادمين خلفهم من بعيد، ولسان حالهم يا ولدي يقول: الحي أبقى من الميت، ويكفيه أنه عاش ومات ودُفن في فلسطين، فمن يدري بما سوف يجري لنا وبأي أرض نموت!*

والتفت إلى الشيخ منجي خاصة وهو يقول: كنا أناسًا كرامًا يا أبا زين العابدين ولنا دور وشجر وبيارات، همنا بعدها على وجوهنا كهوام الليل والجرذان؛ عشنا عيشة كلاب المزابل وأخذنا المؤن كالشحاذين!

وتأملته أنا برهبة وهو يضيف: لعلك لا تدري يا جلال أن أهل حيفا بعد أن نزحوا من بيوتهم، اقتحمها اليهود فوجدوا الشاي والقهوة لا تزال مصبوبة في الأقداح.

ولما علت الدهشة وجهي، هز رأسه أسفًا وقال: نعم يا ولدي هذا الذي جرى، فأصحابها خرجوا من دورهم على عجل ولم يتسن لهم وقت لشربها قبل الرحيل! ولعلك لا تدري أيضًا أن كل همهم كان الحرص على إخفاء متاعهم والإغلاق عليه بالترابيس! الأم على مخزون البيت! العدس والأرز والسكر والشاي، والولد على (المساخيط) والمبراة والممحاة والأقلام والكراسات، والبنت على عروستها ومرآتها الصغيرة والفستان الجديد الذي استبقته للعيد، وأخذ الأب معه مفاتيح الدار فهي أيام أو بالأكثر أسابيع وسوف يعودون!! خشي المساكين ولا حول ولا قوة إلا بالله أن تمتد أيدي عصابات اليهود إلى أكلهم وشربهم وأغطية أسرتهم وثيابهم التي في الدواليب! لم يرد بخاطرهم أبدًا أن البيت كله ضاع منهم هو وما يأويه!!

اكتسانا كلنا الوجوم، وأردف هو: هدموا قرانا طمرة ومعلول وشفا عمرو وعبلين! حتى أسماء بلادنا غيروها، ساحة الحناطير التي بحيفا أسموها

(باريس)! ومرج ابن عامر قالوا: لم يعد اسمه كذلك، أبدلوه (بسهل يزراعيل)! وعين جالوت، أتعرف عين جالوت يا ولدي يا جلال؟

قلت: أعرفها يا سيدنا الشيخ، هي الأرض التي انتصرنا فيها على جيش المغول.

قال: نعم.. هي.. واسمها الآن (عين حارود)، وحارود هذا اسم من أسماء اليهود!

وعلى وجهه الأسى أضاف: أما كان يحق لكم يا أهل الكنانة أن تفخروا بهذا الاسم الذي طمسته إسرائيل! أما كان أولى بكم أن تطلقوه على شارع كبير أو ميدان من الميادين، وتجعلوا اليوم الذي انتصرتم فيه على المغول عيدًا من أعيادكم الوطنية، أليس يومًا مثل يوم العاشر من رمضان! أما كان لكم أن تحتجوا على إسرائيل التي تقيم الدنيا ولا تقعدها إذا خدش إصبع غلام من غلمانها، ألا تقولوا لها أرجعي الاسم إلى سابق عهده وكُفِّي عن العبث بالتاريخ!

اقتربنا كلنا من الشيخ عكرمة نواسيه ونحنو عليه بالكلام، وهو يقول بنبرة متهدجة كأنها بكاء: فعلنا ما نقدر عليه، قاومنا فقتلنا وأسرنا وتكسرت عظامنا وصودرت أملاكنا! أخذوا منا كل شيء إلا حبنا لفلسطين! حتى النساء الفلسطينيات الضعيفات الرقيقات تبدل حالهن! لم يعدن نسوة كسائر النساء! بدلهن القهر وفَقْد الأرض والولد والحبيب. صارت قلوبهن كما الصخر والفولاذ، وعيونهن من طول ما احتملن الهم واحتبسن الدمع في المآقي لم تعد تعرف إن كانت العين التي تراها لصبية أم لعجوز! منهن من ماتت شهيدة وفي دارها رضع ينتظرون! ومنهن من عرت رأسها وحملت السلاح عسى أن يُلحقها ربها بضناها الذي أكله اليهود! وما تجد امرأة صغيرة ولا كبيرة إلا وتعلم أولادها الجهاد، وتزغرد إذا رأت أحدهم يحمل السلاح وخارجًا لقتال! وإذا كان الطفل صغيرًا تهدهده حتى ينام وتغني له وتقول:

نته يا خي محمود.. أبوك راح يرد اليهود..

قلت للشيخ عكرمة: أبي هو الآخر كان اسمه محمود، وقضى وهو ذاهب للحرب مع اليهود..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

18

وانتعشت تجارتنا أنا وأبو الشوارب..

هبطت علينا الأرباح بأكثر مما نتوقع، فالحمد والشكر لله ثم لإخواننا عرب الخليج (الثقال) ممن يقضون الصيف هنا بباريس، ليسوا كلهم بالطبع إنما جماعة قليلة منهم لا تقدر (المصاري) حق قدرها، أو تعرف لها غرضًا غير اللهو و(الصرمحة) وتحت أعتاب النساء!

أوصلتنا راشيل لهؤلاء الفحول..

كنا ندخل على الواحد منهم في جناح الفندق الذي يسكن فيه، أو شقته التي تطل على نهر (السين) واستأجرها خلال أشهر الصيف برزمة نقود تكفي لمؤونة خمس عائلات في بلادنا لمدة عام!

أبو الشوارب مرتديًا حلة فاخرة ماركة (أرماني) أو (لانفان)، وحذاء من منتجات (بالي) أو عليه شارة (ميشيل جوردان)، وشاربه مفتول بزيت (كوزماتيك) الفواح، وبالجيب الداخلي للصديرى (مونوكل) له إطار ذهبي براق يضعه على عينه اليمنى عندما يدقق في شيء أو ساعة دفع الحساب، ناهيك عن العصا الأبنوس التي يتوكأ عليها، والوردة المرشوقة في عروة بزته وأسفل منها في الجيب منديل من الحرير.

راشيل هي السبب في إعطائه هذه الهيئة والشكل الجديد، فقد أسرَّت في أذني بأن أبا الشوارب بملابسه هذه ذات الطراز القديم أشبه (بالأنتيكة)، ولن يكون مقنعًا لزبائننا الخليجيين فهم يسيرون في الشوارع ويقابلون الناس ويرون ويفهمون! ومادمنا سوف نبيع لهم في البيوت وهناك جلسات وكلام، فلا بد له من إطار جديد فضلًا عن تثقيفه ببعض المعلومات.

وقد كان..

جلسنا أنا وهي جلسة طويلة نرسم ونفنن له هذا الإطار الجديد، أو بالأحرى كانت هذه الشيطانة التي اسمها راشيل هي التي تفنن، واقتصر دوري فقط على إقناع أبي الشوارب والذي وافق والحمد لله، بل وقبِلَ الجلوس معها عدة جلسات علمته فيها أصول اللياقة والإتيكيت وأمدته من خبرتها عن طباع هؤلاء الناس.

من يراه بهيئته الجديدة هذه كان يؤخذ بطلته وهيبته، ويقول في نفسه: يا سبحان الله! هذا ليس بتاجر جاء يعرض بضاعته! إنما وزير كبير في بر الشام،

أو بالقليل قنصل أو سفير قادم في مهمة أو لإجراء مباحثات. أما أنا فبالچينز وحذاء كوتشي وسويتر ووتر بروف، وعيناي في الأرض ولا أبدأ بكلام أو أجلس على مقعد إلا بعد استئذان، وفي ركاب أبي الشوارب ولا أقول له عندما يكلمني سوى (حاضر وتحت أمرك يا أستاذ). فقد كانت الخطة أن أبدو أمام (الزبون الخليجي) وكأني خادم لأبي الشوارب، أحمل له البضاعة، وأمتثل لأوامره، وأقود له السيارة (الچاجور) موديل نفس العام، والتي نكون قد استأجرناها في هذا اليوم بعد مناهدة وفصال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يستقبلنا الشيخ هاشًا باشًا..

يقولون عن أنفسهم دائمًا إنهم شيوخ، وغالبا ما تكون أسماؤهم (خلفان) أو (ضرغام) وأحيانًا (شخبوط)..

يصيح فينا مرحبًا:

- هلا. هلا. هلا وألف مرحب بالشامي الأصيل، المجاهد ابن المجاهدين شيخ شيوخ الدروز!

تكون راشيل قد بثت هذه المعلومات الكاذبة سلفًا في أذن الشيخ وأفهمته بأن أبا الشوارب هذا رجل لا يستهان به، فهو سليل عشيرة الأطرش التي طالما حاربت الفرنسيين طلبًا للاستقلال، وله صلات ود بكبرى بيوتات لبنان: كرامي والصلح وأرسلان، غير أن العز لا يدوم فقد عفر الزمن أنفه هو وآباءه في التراب.

وتثور نخوة الشيخ وتدفعه إلى مزيد من الترحيب، ويتلقى أبو الشوارب منه ذلك بالامتنان، وعلى وجهه انكسارة وظلال حزن وعتاب لهذا الزمن الغدار، بيد أن رأسه يظل شامخًا وأنفه أعلى بقليل من المعتاد.

لا أعرف كيف كان أبو الشوارب يحقق هذه المعادلة، كان يفعلها بنجاح، حتى إنها تكاد تنطلي عليّ في بعض الأحيان! فما بالك بالشيوخ..

ويبدأ الكلام..

لا يبدو الأمر في أوله كأنه تجارة وخذ وهات، إنما جلسة ود وأصحاب أنداد، ومن باب الحذر يجس أبو الشوارب معلومات الشيخ أولًا فيجده أبيض مثله، فيرمقني مطمئنًا ثم يضع ساقًا على ساق (وهات يا كلام)، وكل كلامه تقريبًا تفاهات وخزعبلات ومليء بالأخطاء، والشيخ يظن أنه يستفيد ويهز له رأسه قائلًا:

- زين.. زين.. بارك الله فيك.

إلا إذا جاءت سيرة السياسة والحكام، فعندها كان الشيخ يدير عينيه ويحتاط، لا يطمئن أبدًا وحقيبة البضائع التي أضعها بين قدمي مغلقة، يظن أن بها جهاز تسجيل! أما إذا كان الحديث عن النساء والنكات والأشياء (قليلة الأدب) فساعتها يشتعل الشيخ طربًا، وعندما يلحظ أن الصوت عالٍ والضحكات كالقهقهة كان يلتفت إلى الباب الذي يفصلنا عن الحريم، ثم يخفض من صوته وهو يشير إلى أبي الشوارب كي يحذو حذوه حتى لا يصل إليهن الكلام.

يفرغ صبره بعد ذلك، ويقول وهو ينظر في ساعته الرولكس:

- أيش عندكم من أغراض (أشياء)؟ عسى تكون أغراض تفرح القلب وتسيل اللعاب.

ويكون هذا إشارة للبدء في الكلام المفيد..

يأمرني أبو الشوارب بفتح الجيب الخارجي للحقيبة، وإخراج الزجاجة.

زجاجة في حجم إصبعي السبابة والوسطى معًا وعليها رسم بذيء، لا تباع في أي محل وأعتقد أنها لو ضبطت مع أحد سوف تجري السلطات الفرنسية عليها الاختبارات والتحاليل، ويخضعون صاحبها ولا شك للمساءلة والتحقيق.

كنا نتحصل عليها من الهنود البسطاء الذين يعملون في الشوارع والمحلات، وأحيانًا من التايلانديين. كانوا يأتون بها خلسة من بلادهم عندما يعودون من الإجازات، يحدقون فينا ويقولون: إنها كتلة نار، ومستخرجة من حيوانات برية أسود ونمور وتماسيح وكباش لها قرون!

يسألهم أبو الشوارب متشككًا:

- حكيك صحيح يازلمة وللا...

فيؤكدون له أن مفعولها عجيب، وقادرة على أن تجعل من الرجل الميؤوس منه فحلًا لا يشق له غبار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كنت لا أميل إلى الاتجار في هذا النوع تجنبًا للمشاكل، خاصة بعد الواقعة التي جرت منذ أشهر مع خليجي خرب فالت الزمام ادعى هو الآخر أنه شيخ من الشيوخ، اشترى منا زجاجة مع عدة أشياء، وجئنا بعدها بأسبوع نعرض عليه أقمشة من الحرير، كان قد طلبها منا لزوجته (أم صلبوخ)، فوجدناه غاضبًا وصاح فينا قائلًا:

- أنتوا تكذبوا عليَّ يا نصابين! تضحكون عليَّ وتعطوني غرشة (زجاجة) مغشوشة وما فيها مفعول!

فاقترب منه أبو الشوارب:

- يا سيدنا الشيخ..

- وخَّر عني يا ملعون! عرضتني لفضيحة وفشلتني قدام مرتي أم صلبوخ! وضعت راسي في الوحل الله لا يسامحك ولا يبارك فيك.

وكلمة في كلمة حتى احتدت المناقشة، وأفلت لسان أبي الشوارب قائلًا للشيخ: العيب ليس في الزجاجة يا سيدي، الزجاجة مضمونة ومختومة بخاتم الذكورة من ولاية البنجاب، العيب في آلتك يا حضرة الشيخ، فهي إما أنها تجاوزت عمرها الافتراضي أو تعطلت لسبب ما..

فلم يتحمل الشيخ..

شاطت فيه النار وقذفنا بفردة شبشبه، ثم مال على عصاه وهو يلعننا ويلعن خاش آبائنا وأجدادنا ونحن نجري أمامه ولسان حالنا يقول (يا فكيك).

ولذا دق قلبي عندما فتح أبو الشوارب الزجاجة، ووضع منها همسة بعود ثقاب على إصبع هذا الشيخ الجديد.

قلت في نفسي: سترك يارب!

مكثت أحدق فيه وهو يعود بأنفه قليلًا إلى الوراء متعجبًا من رائحتها، كانت أشبه بخليط من التوابل الحارة وثمار الفلفل الأحمر أدخلوها معًا في النار وعليها دفقة زيت.

أخذ يقلب الزجاجة في كفه عاجزًا عن فهمها أو مصدقًا أن بها كل هذه الأسرار، غير أنه اشتراها وأبو الشوارب يرفع له إصبع الإبهام إلى أعلى بما يفيد أنها (تمام).

كانت بعشرة فرنكات فقلنا له بثمانين، هز رأسه بعلامة القبول ووضعها في عبه قائلًا:

- فيه شيّ عندك تعطيني إياه حق (علشان) أم هلال؟

ففهمنا أن أم هلال هذه هي زوجته، وأضاف هو:

- أريد شي يسعدها، يسر قلبها.

فأمرني أبو الشوارب بفتح الجانب الأيمن للحقيبة، المخصص للثياب المحتشمة: بلوزات بأكمام طويلة وياقات، وچيبات حتى إخمص القدم، وعطور خفيفة، وثياب داخلية غاية في الأدب والاحترام.

تأملها الشيخ متململًا، وبدا عليه الإحباط.

قال متبرمًا وهو يمد يده على بنطال منامة حريمي، أسود وقماشه سميك لا يشف:

- أيش هاذا؟ هاذا يصنعونه هنا في باريس؟

- نعم يا طويل العمر..

- يصنعونه حق من؟! (علشان مين؟!).

فقال له أبو الشوارب: إنه للسيدات المحتشمات الورعات..

- آه.. تقصد حق المبرقعات (المنقبات) والحريم القانتات من الدنيا ونعيم الله.. ما أريده!

وقذف بالبنطال على الأرض، قائلًا:

- ما أريد الثياب المحتشمة، أريد ثياب فاسقة! فاضحة! حق غرفة النوم..

فأسرعت أنا بفتح الجانب الأيسر للحقيبة، وأخذنا نعرض عليه كل ما تشتهيه العين.

أمسك بها الواحدة بعد الأخرى، يفركها بيده ويضع كفه على نسيجها وينظر من الناحية المقابلة ليتأكد من أنها لا تحجب شيئًا والعين قادرة على النفاذ منها.

- ما شاء الله.. ما شاء الله.. هذا الكلام الزين!

فعرفنا أن البضاعة أعجبته، ومكثنا أنا وأبو الشوارب نتبادل النظر، وهو يتأمل حمالة صدر لا تصلح وبالكاد إلا لغازية من الغوازي.

- بكم هذه؟

قلنا له الثمن وكان ثلاثة أضعاف السعر الذي اشتريناها به، فأومأ رأسه موافقًا:

- وهذه؟

تكون ألعن من سابقتها.

ونتبع نحن نفس الخطة في تقدير الثمن، فيعود برأسه إلى الوراء ويتلاعب بصوته متذاكيًا علينا:

- لا. لا. وايد وايد (كتير كتير)، أريد تنزيلات، هاذي في الديره حدانا سعرها ناقص كتير..

تنتابنا الدهشة ولا نفهم لماذا يجادلنا هذه المرة رغم أنه لم يفعلها المرة السابقة، إلا أننا نرضيه ونخفض له قليلًا، ويدخل هو إلى أم هلال لتختار ما تشاء هي وبناتها الكبار وخادماتها الفيلبينيات.

ويعود مغتبطًا ويدفع..

وعندما نتأهب للانصراف يسألنا:

- بشو تردوا داركم؟

نقول له: سيارتنا بالأسفل.

- وين؟

ويخرج بنا إلى الشرفة ويراها ويقول:

- جخور! ما شاء الله! ما شاء الله! أنا عندي مرسيدس آخر موديل.

ويشير إلى سيارة خرافية جاثمة على الأرض كما التمساح، ويقول متعاجبًا:

- سيارة الموتر (الموتور) حقها حلو، أشحطها في النمرة (أنقل الفتيس على الخامس)، وأدعس (أدوس) على البترول تلقاها تطير كما الحمامة..

نضحك له مجاملين ونسرع خارجين.

وكنت أسأل نفسي بعدها، هل هذا الذي نفعله حلال أم حرام؟

وأتعجب من أمثال هذا الرجل، الذين يحصدون الذنوب بالأموال التي أفاء الله بها عليهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وجرت النقود في يدي..

فأخذت أساهم في نفقات البيت بأشياء عينية.

حاولت أن أدفع مبلغًا ماليًا ثابتًا كل شهر؛ غير أن جدي أبى بإصرار واعتبرها مسألة مبدأ وقلب للأوضاع، ولما ألححت عليه استمر على رفضه وكاد أن يغضب، وقال لي مطمئنا: إن أحواله المالية جيدة والحمد لله، ثم أخذني من يدي إلى غرفة نومه، وأخرج من الدولاب مظروفًا أودع فيه وصيته.

أوصى بكل ما يملك لي ولجدتي وخالي شمعون، لكل منا الثلث.

وكانت المفاجأة أن رصيده في البنك كان كبيرًا.

قلت له: ولماذا تقتر على نفسك يا جدي؟

قال: كنت أشفق عليكم وأقول ربما تحتاجون هذه الفرنكات في قابل الأيام، اطمأننت على أمك ولا أخاف الآن إلا عليك أنت وجدتك وخالك شمعون.

وبدأت أدعوه هو وجدتي إلى العشاء خارج البيت وأشتري لهما الأشياء التي تسعدهما، ساعة أو خاتم ذهبي لجدتي، أو حذاء يكون قد شد بصرها أثناء سيرنا في الطريق، أما جدي فكانت تسعده الأشياء الأقل ويفرح إذا دخلت عليه (بخرطوشه) سجائر أو بعض الجرائد والمجلات...

طلب مني مرة، أن أبادر وأدعو أمي وزوجها للعشاء في أحد المحلات.

وقالت جدتي:

- آه. آه والنبي تعزمهم..

غير أني أبيت رغم إلحاحهما عليَّ، وأحببت أن ننتقل لمسكن جديد، فقال جدي متأثرًا:

- هتسبنا يا جلال!

- أسيبكم! وهو أنا ليَّه غيركم، رجلي على رجلكم هاخدك إنت ونينة ونعيش كلنا سوا في شقة جديدة.

- ودا كلام! بقى عايز جدك الراجل العجوز يسيب حاله ومحتاله وييجي يعيش معاك! الأصول إنك إنت اللي تعيش معايا مش أنا اللي آجي أعيش معاك..

- يا جدي..

- يا ابني دي حاجات اتربينا عليها في مصر، وأنا عمري مهسيب شقتي إلا لما أموت..

وظن أنني قد أتركه بعدما تحسنت أحوالي المالية، فأردف معاتبًا:

- إلا إذا كنت شايف حالك في حتة تانية وعايز تسيبنا يبقى الله يسهّلك.

وقالت جدتي:

- عايز تسيبنا لمين يا جلال اللي ما عاد حد بيطل علينا.

ففعلًا لم تكن خالتي بيلا أو راشيل أو حتى خالي شمعون يأتون إلا لمامًا، وأمي - سامحها الله - كأنما كانت في قمقم وانطلقت تتنعم وتعوض نفسها عن عمرها الذي ضاع، وسمعت أخيرًا أنها سافرت مع زوجها يعقوب لتقضي أسبوعين بمنتجع (ناتانيا) بإسرائيل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

19

وتزوجت راشيل عندًا في أبي زلومة..

أما نادية فغابت ولم أعد أرها، حتى حسبت أنه بطول الأيام وهن ما بيننا واهترأ.

حسبت ذلك..

فلم أكن أعرف أن قلبي، والذي هو مني، أخفاها بين ثناياه، ولما أحس بأني انسقت مع الأيام لا أهفو أو أذكر العهد، أخذ ينكأ عليَّ الجراح ويطلقها ليلوح لي طيفها أو تأتيني في منام..

فكم من مرة في جوف الليل، وبعد طول انقطاع، كنت أتقلب في الفراش مسهدًا متألمًا بعضي يحارب بعضي!

ورغم ذلك، تزوجت من راشيل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

راشيل.. راشيل..

لم تكن هذه الفتاة بالنسبة لي شيئًا يذكر!

بنت من البنات، واحدة من العائلة تشاركني أحيانًا في (البيزنس)، أو بالأكثر ابنة خالة ألقاها وتلقاني وكل منا بعدها في حاله، أما محاولاتها للاقتراب مني فكانت تذهب في الهواء ولا أعير لها بالًا.

والغريب أن فكرة الزواج منها لم تختمر في رأسي تدريجيًا، أو مكثت أفكر وأحسب الأمور كالعقلاء، وأسأل نفسي إن كانت هذه البنت اللعوب تصلح لأن تكون زوجة وأما، إنما أتى الأمر مرة واحدة.

(طقت) في رأسي ففعلتها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كنت عائدًا ليلتها بالمترو بعد سهرة قضيناها أنا وأبو الشوارب بملهى (نوار شا)، ملهى آخر وأيضًا ببيجال غير الملهى - قليل الأدب - الذي اسمه (الجرز)، وإن كانت كلها ملاهٍ وسهر وخيبة أمل، وأكتاف عارية وسخونة واستدارات تثير غرائزي التي أرهقها الحرمان!

عجلات المترو تدق على القضبان الحديدية بخبطات مدوية، ورائحة عطر تهب عليَّ من امرأة يبدو أنها من بنات الليل صعدت للتو وجلست على المقعد المقابل واضعة ساقًا على ساق.

الركاب أكثرهم إن لم يكن كلهم من الجنسيات المهمشة، مغاربة وتوانسة وأفارقة سود ومن جنوب شرق آسيا والبرتغال.. أبدانهم متعبة من الكد في سبيل لقمة العيش ومن أرباب العمل الذين لا يرحمون، منهم من يتثاءب بصوت عالٍ أو تخشب بدنه تمامًا وهو جالس أو واقف على قدميه، عيناه وحدهما هما المتصلبتان وتحدقان بلا طرفة رمش، حتى تحسب أنه مات أو في غيبوبة! ومنهم من أخذه النعاس فتدلى برأسه أو أسندها على راحة كفه. والعربة نفسها وعلى غير العادة شحيحة الضوء، بعض لمباتها محترقة والباقيات تشع نورًا مسلولًا..

وأنا مكدود، متململ، تموج بي طاقة زائدة..

طاقة لا تتناقص أو أنا بقادر على فعل شيء لها! وتحثني حثًا على التحرش بالمرأة التي أمامي..

أدير وجهي بعيدًا عنها، ألوذ بزجاج النافذة المغلق..

لا شيء أمامي سوي مصابيح مغطاة بشبِاك من الحديد، ولا قدرة لها على تبديد ظلام النفق الذي يرمح فيه هذا الغول الذي نركبه.

أعود ثانية إلى المرأة، وأدخل من جديد في تهاويم الرغبات الحسية التي لا ترحم.

تقف فأبدأ بالتحديق فيها من أول ركبتيها العاريتين حتى العنق، ثم بردفيها عندما تستدير، ويدير رجل آخر رأسه نحوها ويشاركني فيما أفعل، أظنه ميكانيكيًا أو عامل طلاء (فالعفريتة) التي يرتديها تقول ذلك، تظل أعيننا عليها إلى أن تدلف من باب المترو ويواريها الرصيف. أتثاءب وهو الآخر، تلتقي أعيننا خطفًا ثم يعود كل منا إلى حاله.

أثني مرفقي على حافة النافذة باسطًا رأسي على راحة يدي، فتنساب راشيل نحوي في منامة من الحرير الشفيف، حافية القدمين وعلى أظافرها طلاء بلون الحناء. تطيح بشعرها في الهواء بلفتة رأس، فتبدو صفحة عنقها بيضاء مشوبة بحمرة خفيفة، ويزوم بوق المترو عاليًا، ومع كل ضربة من ضربات العجلات للقضبان كان جنوني بها يزداد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما رجعت إلى الشقة كانت جدتي لا تزال قابعة أمام جهاز التليفزيون، تتابع فيلمًا فرنسيًا مرعبًا عن امرأة سفاحة تصطاد الرجال من أمام المواخير والحانات وتغويهم بجسدها ثم تفتك بهم. تقتل الواحد منهم شر قتلة بعد أن يأخذ غرضه منها! وبسكين حادة في حقيبتها، تقطع إصبع سبابته وتحتفظ بها في علبة خشبية مبطنة بمخمل أحمر تذكارًا لفعلتها!

تفعل ذلك بدم بارد ورجال الشرطة يضربون رؤوسهم في الحائط كلما أفلت منهم خيط أمسكوا به للوصول إليها، والأفعى تضللهم وجريمة في جريمة، وجدتي تشب بجذعها وتضرب بكفها على ركبتها مشجعة كلما أفلتت المرأة وأذاقت الرجال الأمرين!

لم أشأ مقاطعتها، وحتى إن فعلت لن تلتفت إليّ وربما عكرت دمي بكلمتين فارغتين، تريثت إلى أن فرغت وظللت أرمقها من طرف خفي، وهي تتمطأ ووجهها ممتلئ بالزهو من أفعال بنات حواء، ثم وهي تسحب الإيشارب من على رأسها وتهرش في مقدمة شعرها.

كان منظرها كئيبًا..

كأنما تمددت جمجمتها قليلًا خاصة من عند الجبهة! كنت قد انشغلت عنها في الآونة الأخيرة ولم تلحظ عيناي الجديد الذي طرأ عليها، فشدني الفضول إلى ما جرى لها.

يا سبحان الله..

لم يعد شعرها قادرًا على التآلف في شكل خصلات!

بدا رأسها أشبه بالجُزُر المنفصلة أو مناطق مناطق! المنطقة التي في المقدمة هي وحدها التي يكسوها الشعر وأخرى في مؤخرة الرأس صلعاء تمامًا، وأشياء كالزغب متناثرة في باقي فروة الرأس، وعلى حافة جبهتها من أعلى كدمتان بارزتان، كل واحدة منهما في حجم غطاء زجاجة الكوكاكولا!

انتبهت إليَّ، وهي تعيد الإيشارب إلى رأسها:

- بتبص على أيه يا قرد يا ابن القرود، وأيه الريحة دي اللي طالعة من بقك! إنت طافح إيه؟

- أنا برضه اللي بطفح يا نينة!

- قصدك أيه يا ولد؟

وكلمة في الثانية حتى قلت لها ما أريده، فردت عليَّ وعيناها تجوسان في وجهي:

- بتقول أيه بقى يا سيدي! عايز تتجوز راشيل؟

وزامت زومة تفكير:

- راشيل وجلال! جلال وراشيل! مش عارفه خيط الدوبارة أبو عشرة بقرش هيلفق ولا لأه مع خيط الحرير اللي بيتوزن بالجرام!

- دوبارة! دوبارة أيه يا نينة! قصدك إنى...

فهشتني بيدها ضاحكة:

- طيب اصبر بس وسيبني شوية أفكر في الموضوع ده.

قلت لها ضاحكًا أنا الآخر:

- يا إيڤون! يا إيڤون بلاش مكر!

كانت أول مرة أداعبها فيها على هذا النحو وأناديها باسمها مجردًا، والكارثة أن كلمة (أم منقار) كانت على طرف لساني وكدت أكمل المزاح وأقولها لولا لطف الله، فلو نطقت بها الله وحده هو العليم بالعقاب الذي سوف كنت أناله.

الحمد لله..

تقبلت المداعبة، ورحبت بالفكرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد أن فرغنا من الإفطار في الصباح قلنا لجدي إلا أنه لم يستسغ الأمر، وبدا متوترًا ويرشق جدتي بنظرات حانقة ظنًا منه أن هذا الموضوع من تدبيرها.

انتحيت به جانبًا لأعرف سبب رفضه، فقال: إني أستحق فتاة أفضل من راشيل!

قلت له: أنا لا أعرف هنا غيرها، وراشيل ابنة خالتي ولا عيب فيها..

فسخر مني بهزة رأس دون أن يتكلم، وقام نصف قومة وهو يقول: إنه ذاهب إلى الحمام لحلاقة ذقنه..

تعلقت بذراعه لأحثه على الجلوس، فاستجاب وظل يرمقني برهة وهو يدغدغ شفته العليا بأسنانه ثم قال: الزواج مشروع كبير يا جلال ويحتاج إلى تفكير

وتدقيق وحسابات، وأنصحك بالتريث فأنت لاتزال صغيرًا، وإن كنت مصممًا على الزواج بالفعل فمن الأفضل أن تختار فتاة أخرى تناسبك.

- ومالها راشيل يا جدي؟ دي تربية أيدك زيي بالظبط.

- تربية أيدي..

قالها ممتعضًا واستدار بوجهه عني، فلم ألمح التعبير الذي طرأ عليه.

واستدرك قائلًا:

- أنا قصدي إنك تختار واحده من دينك؟

- من ديني؟ تقصد..

وأحجمت، فاسترسل هو بوجه جاد ونبرة أقرب إلى الخشونة:

- أيوه هو دا اللي أقصده، وبالعربي كده إبعد عن راشيل دي كلها مشاكل.

فألجمني كلامه وحدقت فيه مستغربًا.

- أيوه مشاكل، إنت غريب هنا يا ابني ومش بين أهلك وناسك، وإذا ارتحتم مع بعض، دا إذا ارتحتم!

قال الكلمتين الأخيرتين بنبرة ساخرة، وهو يشيح بيده في وجهي ثم أكمل:

- بقول يعني لو ربنا رزقكم بعيل ولا اتنين هيعيشوا عيشة تانية غير اللي إنت عشتها في مصر ويمكن يبقوا يهود!

وأضاف وهو يمسح على ذقنه براحته:

- دا مش يمكن دا أكيد هيبقوا يهود! موافق بقى يا حلو على الكلام ده؟

قلت منفعلًا:

- أيه! وهو أنا رحت فين؟

ومنفعلًا هو الآخر:

- وانت تقدر تعمل أيه؟ إنت فاكر إنك تقدر تعمل حاجة ساعتها..

غير أنه ضغط على يدي بحنو بعدها، وخفف من نبرة انفعاله:

- الحكاية يا ابني مش حكاية أب ولازم يمشي كلامه على بيته وعياله! طيب ما محمود أفندي والدك رحمة الله عليه فاتك لينا حتة لحمة حمرا ولو كانت الحكاية حكاية أب وخلاص كنا هودناك من ساعتها وتوته توته فرغت الحدوتة وآهو انت لا داري ولا فاهم ولا لك أب يحاسبنا أو يمسك في خناقنا.

وأشاح في وجهي:

- إصحى يا جلال إصحى! الحكاية حكاية الدنيا والناس اللي إحنا عايشين في وسطيهم والقانون والعرف اللي بيحكمنا ويمشي كلامه علينا.

ودخل في سعلة طويلة وأنا أرمق التجاعيد التي تحيط بعنقه وهي تنثني وتنفرد، ثم أطفأ السيجارة التي في يده وقال بصوت بدا أوله متحشرجًا:

- كنا بنقول أيه؟ آه.. هو انت يا حبيبي فضلت مسلم ليه؟

تطلعت إليه.

- علشان كنا خايفين من جدك وأهلك اللي في البلد، ومن الخلق اللي كانت ساكنة معانا في حى الضاهر، أم حسن والحاج محمود وزيد وعبيد ومش عارف مين ومين، كنا عاملين حساب ليهم وعارفين إن لو حد منهم شم خبر كان بلغ عنا وكانت الحكومة بهدلتنا، صحيح الأب مهم يا ابني، لكن الدنيا اللي احنا عايشين فيها برضه مهمة ويمكن أكتر..

ومضت برهة صمت، قطعها هو وهو يربت على كتفي ويقول:

- إنت هنا في فرنسا يا حبيبي مش في مصر، بص للدنيا اللي حواليك يا ابني لا شرع ولا دين له دخل بأي حاجة! ولا قانون ولا عرف هيبقى في صفك وهتشيل الهم بدري. شوف لك واحدة تكون مسلمة وبنت حلال واتجوزها أحسن لك بدال ما تتجوز راشيل وعيالك يتلخبطوا فيك لا هم عارفينك مسلم وللا يهودي..

- أنا مسلم يا جدي..

- عارف.. عارف.. بس جواك حتة يهودي والحتة دي بتخلي ناس مننا، يهود يعني، عمرهم ما يعترفوا بإنك مسلم، وتجيلهم يمين تجيلهم شمال تحلف لهم على البخاري بتاعكم وبرضوا مفيش فايدة.

- طيب وانت يا جدي؟

فتأمل وجهي بابتسام:

- أنا جدك يا حبيبي، سوا كُنتّ مسلم وللا يهودي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كنت مفتونًا براشيل، جثمت هذه الشيطانة على غرائزي بل وعلى تفكيري، راح مني نصف عقلي تقريبًا، فألححت على جدي من جديد كي يرضى عن هذه الزيجة، إلا أنه أصر على رأيه، وعندما ضجر مني قاطعني قائلًا:

- اسمع يا ابن الحلال، أنا راجل كبير ومش قد النقار والمهاتيه وقلت لك على اللي عندي خلاص وانت وشوقك!

ونهض واقفًا وهو يقول بصوت أقرب إلى التمتمة:

- وكمان فيه حاجة تانية أهم من دا كله..

وحبس عني الكلام متجهًا إلى الحمام.

حاولت أن أعرف منه شيئًا عن الكلام الذي أمسك عنه، إلا أنه أبى مكتفيًا بإبداء رفضه..

ومكثت أنا بعدها أسابيع طوالًا مترددًا بين هذا الذي يقوله جدي وبين شهواتي التي لا ترضى ببديل لراشيل، فساعة أصمم على الزواج منها وساعة أفيق إلى ما قاله جدي ويحيرني أكثر وأكثر هذا الشيء الذي امتنع عن الخوض فيه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

غير أن جدتي كان لها شأن آخر..

لم تعر بالًا للاضطراب والحيرة التي أنا فيها، ولا لموقف جدي الرافض لهذه الزيجة وتحذيره لها مرارًا بألا شأن لها بها.

رمت (أم منقار) بكل هذا وراء ظهرها ونصَّبت من نفسها خاطبة لي، وبدون أن ندري أجرت اتصالاتها بخالتي بيلا وبراشيل عارضة عليهما طلبي، وموهمة إياهما بأني وجدي وكلناها في هذا الأمر وأن الكلمة كلمتها في كل ما يتعلق به، واستتبع ذلك أن بدأت خالتي في سؤال جدتي عن بعض الأشياء الخافية عنها قبل أن تقول كلمتها هي الأخرى.

وكان جرس الهاتف لا ينقطع بينهما ولا يكفان عن الكلام في أدق التفصيلات، الصداق المعجل منه والمؤجل، وخاتم الخطوبة الذي اشترطت خالتي بيلا أن يكون من (الألماظ الحر)، وأين سوف نسكن، حيث قالت راشيل: إنه لا مانع من الزواج في شقتها بسان چيرمان، والمرتب الذي أتقاضاه من محل

(بوشار)، ومكاسبي في التجارة ورصيدي في بنك (كريدي ليونيه)، وهل أخذنا رأي أمي التي كانت مسافرة آنذاك إلى إسرائيل هي وزوجها يعقوب. بل وأرسلت لي راشيل رسالة دهشة وعتاب مع جدتي لأنني لم أعرض عليها الأمر بنفسي، حتى إنها انقطعت عن زيارتنا حرجًا وفي انتظار أن أعلن عن رأيي صراحة.

لم نكن نعلم أنا وجدي بكل هذا، إلى أن جاءتنا يومًا قائلة:

- البنت موافقة ونفسها في جلال وأمها كمان، الموكوس أبو زلومة هو اللي راسه ناشفه!

نحى جدي الجريدة عن وجهه، والتفت إليها مندهشًا:

- بنت أيه! وأبو زلومة مين؟

- أبو زلومة مين، أبو زلومة بتاعنا! قال إيه حضرته مش موافق وبيقول إنه مش مستعد يدي بنته لواحد تافه وهلفوت زي جلال!

استفزني الكلام، وخبط جدي كفًا بكف قائلًا:

- يا حول الله يارب..

حسبت جدتي أن جدي مستغرب من رفض أبو زلومة وليس من الفعلة التي فعلتها، فقالت:

- هو انت فاكر إني سكت له! دا أنا اديته واديته.

فصاح فيها جدي مقاطعًا:

- وهو انتي فتحتي الموضوع معاه؟

- فتحته! طبعًا فتحته مرة واتنين وتلاتة، وأقولُّه يهديك يرضيك يا ابني يا هارون وهو راكب دماغه؛ فقلت مبدهاش بقى واديته.

فقال جدي بصوت خافت وهو يدق براحته على جبهته:

- إدتيه!

- أُمَّال! وقلت له انت فاكر نفسك مين يا بتاع البودرة والبسبورات المضروبة، دا انت كنت مزيت وحالك عدم في مصر، وفضلنا يا أبو إيزاك تتخانق لحد ما قفل السماعة في وشي!

- يادي النهار اللي مش فايت..

- ليه؟ هو انت خايف منه وللا عامل له حساب إياك! إنت نسيت فريحة أفندي أبوه اللي كان بيخاف من خياله ولما تقولّه بخ بيتخض ويعملها على نفسه، مين هارون ده؟

وتطورت الأمور ما بين جدي الذي سحقته الدهشة من فعلة جدتي ويود افتراسها، وأنا الذي لم أزد في تقدير أبي زلومة عن مجرد هلفوت، وجالت في بالي على الفور أيامي الأخيرة في مصر ومدام السبكي التي استكثرت عليَّ الزواج من ابنتها نادية ولم تعتبرني ندًا لها..

وازداد تصميمي على الزواج من راشيل رغمًا عن هذا (الزلومة)، ووقفت هي إلى جانبي متحدية أباها، ووجدتها خالتي بيلا فرصة لتصفية خلافاتها القديمة معه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شاطت النار في العائلة..

مراسيل مكوكية يقوم بها خالي شمعون بين الأطراف المتصارعة، أنا وجدتي من ناحية ومعنا راشيل وأمها، وأبو زلومة وحده في الطرف الآخر، وتهديدات مبطنة نتبادلها وحرب أشبه بحرب الأعصاب. أما جدي فآثر السلامة وابتعد لا يتكلم أو يعلق بشيء على الذي يجري أمامه، ويرمقني بنظرات لائمة كلما جاءت عيناه في عينيَّ. ولم يكف خالي إيزاك عن الاتصال بنا يوميًا من حيفا وبأبي زلومة ليلين رأسه، وفاجأتنا أمي في عز الليل باتصال تليفوني من إيلات بإسرائيل حيث تنزل هي وزوجها ضيفين على ابنته المتزوجة هناك، قالت: إنها لم تعرف بالخبر إلا الآن وأنها قادمة في أول طائرة!

هدأ وطيس المعركة بعد وصولها..

حُلَّت المشكلة تمامًا بعد زيارة قام بها الأستاذ يعقوب إلى أبي زلومة بإيعاز من أمي، فيبدو أن أبا زلومة لم يكن يكترث بأحد من العائلة أو يعمل حسابًا سوى لهذا الرجل، أو ربما تربط بينهما مصالح وأشياء لا نعلم بها..

علقت جدتي على هذا الأمر قائلة: بأنها سمعت - والله أعلم - بأن جد أبي زلومة من ناحية الأم كان يعمل خادمًا في بيت صروف بك أبو السعد والد الأستاذ يعقوب، وأنه ذكَّره بذلك في لقائهما فرضخ!

فوبخها جدي غاضبًا:

- أيه الكلام الخايب ده! يا بنت الناس حرام عليكي وبلاش إفترا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وتزوجنا أنا وراشيل..

كتبنا ورقة ووقعنا عليها أنا وهي، وأشهدنا عليها الشيخ منجي ورجلًا من مريديه اسمه الشيخ بو مخلاع.

لم يكن صعود الشيخ منجي إلى شقة جدي - حيث عقدنا القران - أمرًا هينًا، ألححت عليه كثيرًا وهو يقول مرة إن قدمه تؤلمه ولا يقدر على صعود السلم، ومرة أن خديجة إبنته مريضة بالمستشفى. استجاب أخيرًا وصعد متأففًا وبرفقته الشيخ بو مخلاع بالعباءة المغربية، وعلى رأسه عمامة ووجهه ولحيته منيران كما البدر عند تمامه، وأبو الشوارب متأنق في هندامه كأنما هو العريس ويحمل في يده علبة شيكولاتة سويسرية فاخرة ماركة (باتشي).

دخل الشيخ منجي من باب الشقة بقدمه اليمنى وهو يبسمل ويحوقل كأنه قادم على وكر للشياطين، وكان جدي في انتظاره على رأسه البيريه وفي قدمه حذاء أسود (لميع) له عنق وأبزيم..

سعل الشيخ منجي سعلة جبارة من تلكمُ السعلات التي يعلن بها عن قدومه ويقول بها للأعداء إنه ها هنا! ثم مد يده إلى جدي بتحفظ؛ غير أن جدي لم يقبل بهذا! أرادها فرصة لنسيان ما فات وتطبيع العلاقات، فبسط كلتا يديه ببشاشة وارتمى على الشيخ يقبله على وجنتيه ويربت على منكبيه قائلًا:

- يادي النور.. يادي النور.. حلت البركة يا سيد الناس، إزيك وازي الست زهيرة حرمكم المصون، أهلًا أهلًا.

تخشب الشيخ في بادئ الأمر ثم لان في يد جدي، ومد يده إلى الباقين..

أبو زلومة أولًا حيث تبادلا نظرات فاترة، ويبدو أن الشيخ هرس كفه بقبضته الفولاذية عندما تصافحا، إذ لاحظت الضجر على وجهه وأخذ يهز كفه هزات سريعة من شدة الألم ويثني ويفرد أصابعه ليسمح للدماء بالجريان فيها. ثم صافح خالي شمعون، والأستاذ يعقوب الذي بدا بالكوفية البيضاء المتدلية على صدره والسيجار الضخم الذي في يده وشعر رأسه الفضي، أشبه بشخصية (دون جوان) التي خلدتها السينما الأمريكية في الأربعينيات والخمسينيات. وقامت أمي متثاقلة وفي خيلاء تمد له أطراف أصابعها، فتردد في البداية ثم أخرج قفازًا صوفيًا من جيب البالطو ووضعه في كفه ليلامس أصابعها، ولم تقم جدتي من مكانها أو هو نظر نحو المقعد الذي تجلس عليه!

وبعدها بيوم أصر أبو زلومة على أن تجلس العائلة جلسة أخرى بشقته، وعلى مشهد من الجالسين نقف أنا وراشيل ونعمل (تكيت كف)، أي نصافح بعضنا البعض وفقًا للشعائر اليهودية المتبعة عند إجراء الخطبة.

اعترض جدي قائلًا:

- وأيه لزمته يا هارون يا ابني؟ دول اتجوزوا خلاص هما لسه هيتخطبوا!

وإزاء إصراره، قال جدي: لا بأس.

وفعلنا (التكيت كف).. وهم يصفقون لنا ويطلبون منا أن نقبل بعضنا البعض فنفعل، وأن نعيد فنعيد، ويخرج زوج أمي عن وقاره قائلًا: ليست هذه هي القبلة التي نتوقعها منك يا جلال! وأنتي يا راشيل ساعديه فقد أهلكه الحياء! نريد واحدة أخرى ملتهبة كالتي أعطاها النجم الأمريكي (تايرون باور) للبطلة في فيلم (دماء ورمال)، فأشعر بالحرج وهم يهللون ولا يكفون عن إطلاق صيحات التشجيع، وانزوى جدي بعيدًا لا يشارك في هذا الهوس.

وعلى غير توقع، تطلق أمي زغرودة يدوي رنينها في شقة أبو زلومة القريبة من شارع الشانزليزيه!

ويبدو أنها كانت مجرد إشارة للبدء، فقد انطلقت وراءها عدة زغاريد، غير أن أذني التقطت على الفور زغرودة جدتي من بين المزغردات، إذ كانت غليظة كبيسة وأشبه بالجعير الذي يتخلله عواء، كما لو كانت صادرة عن وحش ضارٍ أصابوه بطلقة قاتلة في حنجرته!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تنقض عدة أيام إلا وجاءنا أبو زلومة، طالبًا مني أنا وجدي وكل العائلة التجهز للذهاب بعد باكر إلى محفل يهودي قريب من بيته؛ حيث سوف تجرى صلاة دينية أخذ يشرحها لي قائلًا: إنها تشتمل على سبع بركات وتتم وفق مراسم دينيه معينة هي كذا.. وكذا.. ثم اختتم كلامه مشيرًا إلى أنه سوف يحضر هذه الصلاة رهط من معارفه اليهود لا يقلون عن عشرة، فهذا ما يقوله الشرع عندهم.

فقال له جدي مستغربًا:

- حيلك حيلك يا عم هارون! ما انت عارف إن العريس مسلم والجوازه تمت على غير شرعنا، لزومها إيه بقى التماحيك؟

ورفضت أنا الذهاب وجدي يؤازرني، فقال أبو زلومة: كما تشاءان، إلا أنه سوف تجرى الصلاة رضيتما أم أبيتما! ولا يهم حضور العريس! فقال له جدي: وأنا الآخر أشعر ببوادر إنفلونزا وسوف ألزم البيت مع العريس وافعلوا ما بدا لكم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم ينته الأمر عند هذا الحد..

طلب مني أبو زلومة كتابة ورقة على نفسي، أقر فيها بتعويض مادي قدره خمسون ألف فرنك في حال تطليقي لراشيل.

سألت الشيخ منجي، فأجابني غاضبًا: لا.. يكفيهم مؤخر الصداق المقرر في العقد الذي شهدت عليه، وإن وقعت على شيء من هذا فأنت كافر ومنكر للشرع والدين ولا تدخل لي بيتًا أو تكلمني بعد الآن! ما هذا؟ ألا يستحون! لعنة الله على هؤلاء البشر الملاعين..

أنهى جدي المشكلة بأن وقع هو على هذا الإقرار بدلًا عني، وبعد أن فرغ قال أبو زلومة: وشرط آخر يا سادة..

قلنا: ماذا؟

قال: إذا عدت إلى بلدك عودة نهائية فلا تأخذ راشيل معك، إنما تبقى معنا هنا وأنت الذي تتردد عليها.

فرد عليه جدي بضجر:

- وليه يا هارون؟ هو حد يطول يرجع مصر، مش مصر بلدها وبلدك انت كمان اللي اتولدت واتربيت فيها!

- بتقول أيه يا أبو إيزاك، بلدي! بلدي دا إيه!

فنزل جدي بعينيه وهو يقول بصوت خافت:

- مش بلدك! الله يسامحك يا ابني..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

20

وكأننا لم نتزوج..

فقد انفصلنا أنا وراشيل في ليلة الزفاف!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

منذ الليلة التي سهرت فيها مع أبي الشوارب بملهى (نوار شا) وأنا مجرد طاقة تهدر في ماكينة من لحم ودم، طاقة غير عاقلة آتية من مكامن شهوانية شبه مسحورة، ليس لها من هم إلا اقتناص راشيل والارتواء من شفتيها وخديها وكل ما فيها..

كنت أشبه بقدر يغلي أزاحوا عنه الغطاء، فحل غشيم عرضوا عليه مُهْرة ذات جبين أشقر فأفلت منه الزمام!

هكذا كان أمري..

فأنا منذ أن أتيت إلى هنا لم أخطئ مع أنثى قط، أو حتى فكرت فيما يغضب الله..

كنت أخاف.

أخاف من نفسي..

أخاف أن تترصد ما أفعل وتخلو بي ويبدأ الإيلام، أو تدفع لي بشيء على هيئة رجل يؤذي أمي! فكم من مرة وقعت لي هذه الأمور في مصر، عندما كنت يافعًا مراهقًا لا أزال في عمري الأول. إذ كنا هناك وحدنا، امرأة من لحم لا يزال طازجًا وقلب مهيض يوجعه السأم والسهاد، وولد شب وكبر فأفهمته الدنيا أنها رجل وامرأة وأن كُلاًّ منهما ولا محالة بالغ أمره من الآخر.

فبدأت أخاف..

أخاف على أمي من الأعين الخائنة والرجال الملاعين.. ومن.. ومن.. الحمد لله أن شارعنا لم يكن به أحد من هؤلاء وجيراننا كلهم، فلان وفلان وفلان، كلهم كلهم كانوا يحسبون أن شرف أمي هو شرفهم، وأني ابنهم وهي أختهم.

ومن ينسى عمال قهوة (أبو عوف) التي كانت على ناصية شارعنا بالظاهر، فقد كنا قادمين أنا وأمي ذات مرة على أقدامنا من شارع (طور سيناء)، أنا ضئيل الحجم وألهو بلعبة في يدي وهي تحمل كيسًا من لوازم العطارة، وشابان من أرباب الشوارع يطاردانا بكلمات غزل فاحشة حتى ميدان

السكاكيني ثم شارع الخليج المصري الذي عبراه معنا ودخلا وراءنا حتى شارعنا. لمحنا (أبو ودن) عامل المقهى فصرخ على زملائه الذين خرجوا كلهم بالمقاعد والطاولات، وحماه الله الحاج صقر صاحب المقهى الذي أسرع وراء عماله خالعًا جلبابه وبيده شمروخ يدافع به عنا، وأقسم بالله ألا يخرج هذان الولدان سليمين من الشارع، وزعق في عامله (الحنش) الواقف على (النصبة) كي يصب الماء المغلي على أقفيتهما ولولا ستر الله لهلكا!

رغم ذلك ظل الخوف هاجسًا يلازمني، وأحسب أن ما قد أفعله سوف يرتد لأمي! وفي كل مرة يجرفني فيها الشيطان إلى فعل طائش، ليلتها أو بعدها بقليل كان يجيئني رجل بهيئة تختلف من مرة لأخرى، فمرة بالسروال الداخلي ومرة عاريًا تمامًا إلا من شعر كثيف يغطي عورته. أكون نائمًا في الحُلْم إلى جوار أمي، فيلكزني في صدري لأصحو وأفهم من عينيه وتقطيبة وجهه أنه عازم على أن يريني ما الذي سوف يفعله بها! وأزوم غاضبًا خائفًا وتصدر عني شهقات كتلك التي تحدث للغرقى من صدمات الماء، فحلقي لا يسعفني ساعتها أبدًا وأبدو في حال مزرية، فلا أنا قادر على النطق أو قواي طوع أمري حتى أذود بها عن أمي..

لا أعرف من أين يدخل علينا..

أراه أمامي فجأة، ويزيحني بيده متجهًا نحو أمي التي تكون نائمة لا تدري! يجثم عليها، ويثني جسدها إذا قاومت وشفتاه الجائعتان تقتاتان من نصفها العلوي الذي تعرى، ولم يكن ينقذني أو ينقذ أمي، إلا أن أهب من النوم مرعوبًا غير مصدق والعرق يتقطر مني..

وأقسم بالله، خائفًا صادقًا، ألا أفعل ما فعلته.

فقد كان شيء بداخلي يزجرني دائمًا، ويحول بيني وبين ما يتوق إليه من هم في سني..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وأتت هذه الليلة..

حيث لم يكف أبو الشوارب - سامحه الله - عن إغوائي بقدح من النبيذ. وثانٍ! وثالث! وأشار إلى فتاة ليل برتغالية لتجلس معنا. فتاةٌ يبدو أنها من أصولٍ غجرية، إذ كان كل شيء فيها نافرًا ثائرًا وتضع عصابة دَكْناء اللون فوق جبينها يشمخ من تحتها أنف مدبب، ناهيك عن عينيها اللتين تومضان بلمعة جريئة وقوام عفي لدن، كما لو كان عجين خبز تماسك لتوه. وبغمزة منه أخذت تداعبني مداعبات فاجرة وتمد أصابعها نحوي بلا احتشام، وأنا أتلوى خجلًا متلذذًا حتى كاد أن ينساب مني إكسير الحياة!

ومن بعدها جرت الأمور بلا تخطيط، ولم أجد أمامي حلًا إلا راشيل! فلم يكن الأمر حبًا أو دفعتني إليه رغبة في زواج وأسرة واستقرار، إنما المسألة من أولها لآخرها شهوة وجسد واستمتاع!

قد أكون مخطئًا.. بالفعل مخطئ! فبنات الناس ليست لعبة، لكن من قال إن راشيل (بنت ناس)، فالله أعلم بها وبحالها وبما لم أكن أعرفه عنها وقتها..

غلبتني الشهوة فلم أعر بالًا لحديث جدي ونصائحه، أو لكلمات الشيخ منجي الغاضبة الساخرة، أو انتهزت فرصة رفض أبي زلومة لي كي أتراجع إنما ازددت عنادًا. بل وأنا الغريب في هذا البلد لم أخش بأس هذا الرجل وسجله الإجرامي، فكم من مرة حذرني منه خالي شمعون قائلًا:

- بلاها الجوازة دي يا جلال، دا راجل فالت لا عنده دين ولا ضمير..

فأزداد تشبثًا..

- يا ابني دا راجل مجرم ومش بعيد يأذيك..

فلا أجيب.

- يا ابن الحلال..

لم أستمع إليه، أو استمعت لأحد.

لم يردعني ويردني إلى الصواب إلا (چين) أورثني إياه أبي (محمود أفندي) وجدي (الحاج عبد الحميد)، (چين) لا وزن له أو يُرى بمجهر!

ففي ليلة الزفاف، لم تكن راشيل عذراء..

وفي خفقة جفن انسللت من الدنيا كلها، كأني مت موتة صغيرة وتيبس كل ما في عروقي وشراييني وحتى أوردتي الضئيلة الرفيعة، وأجزائي الظاهر منها والباطن..

ثم انتبهت..

شيء مني فطن إليَّ، وكأنه يراني من أعلى ومن حولي!

يراني مهزومًا، فارغًا، خجلًا من نفسي على نفسي، ولا إرادة أو ذرة من عقل تلملم لي حالي، أو تبث الحياة في بدني..

عشت لحظة مهلكة، طولها في عمقها، وزمنها ليس من زمننا..

وراشيل، أو هكذا تراءى لي، إذ كنت مشوشًا، كأنها دهشة غاضبة وتهزني كي أفيق، غير مصدقة أني أنا الذي عشت كل هذه السنين في باريس أعير بالًا لأمر كهذا، ولا زلت فلاحًا، قفلًا، تسكن بداخلي عمامة جدي والقفطان..

وبعد ما تسربت إليَّ بعض الطاقة هببت من فراشها ملدوغًا، أبحث لي عن مكان آخر آوي إليه.

وفي ليلتها وقبل أن يطل علينا نهار جديد، كنت أدق الباب على شقة جدي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خجلت أن أبوح بشيء، غير أن جدي سرعان ما عرف وواساني..

- الله كريم يا ابني، وأنا قلت لك من الأول بلاش..

فهززت رأسي صامتًا، وهو ما يزال يتكلم لكن بصوت أخفت:

- اعذرني يا جلال، صحيح أنا عارف إنها بنت بطالة لكن مقدرتش أقول.

وأحنى رأسه:

- دي برضه بنتي..

وبت أسأل نفسي كم مرة فعلت راشيل ذلك؟ ومع من؟ مع العرب الذين تدور بهم في الشوارع والمحلات؟ أم عشاقها اليهود؟ أو ربما مع المغاربة والزنوج وكلاب السكك؟

وكيف في لحظة زمن، خبت نار الشهوة التي كانت بداخلي وصارت دخانًا لا نفع منه، رمادًا كالحًا ليس فيه جمرة واحدة تنبئ باشتعال؟

وهل كانت ستخبو لو راودتني راشيل عن نفسها بلا زواج؟!

فهل الشهوة ذاتها أو حتى مكابحها ليست كلها بأيدينا كما نظن، وإنما لها هي الأخرى أصول وقانون؟! قانون خفي نخضع لأمره قبلنا به أو أبينا..

وأعود فألوم نفسي التي جمح بها الهوى، وظننت أن هذه الفتاة اللعوب يمكن أن تكون عذراء أو حتى تصلح لزواج..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

21

مكثت يومين في غرفتي لا أبارحها..

أغلب الوقت ممددًا على الفراش، ساكنًا ساكتًا، عيناى تحدقان في أي شيء تصادفه..

أي شيء..

دُمية تطل برأسها من فوق الدولاب، فردة جورب تتدلى من عنق الحذاء، صورة قديمة معلقة على الجدار تبدو أمي فيها مشدودة البصر نحو عدسة الكاميرا وأنا - ابن السنتين - مسترخيًا مستكينًا على ركبتها، أو ربما تذهب بي عيناي إلى ذبابة تحط على طرف الكومدينو أو مقبض الباب، أحدق فيها وهي قابعة لا تتحرك ثم وهي تثني رأسها لتلعق قدميها أو ترفع جناحيها متأهبة للطيران. أمكث بعدها خاملًا معطلًا، تجتاحني نوبات تثاؤب الواحدة تلو الأخرى، وأرجو النوم غير أنه لا يأتي..

وأسمع طرقًا على الباب، فأعتدل بتثاقل..

يكون جدي..

يطل برأسه والباب موارب، يقول: إن أمي على الهاتف..

أشير له بيدي معتذرًا.

يلح بعينيه، فأزداد تصميمًا.

يقول: إنها قلقة عليَّ وتود لو أذهب إليها الليلة.

أقول: إن شاء الله، ولا أفعل..

يدعني متجهًا إلى المطبخ وينهمك في إعداد طبق من الفول المدمس بالزيت الحار، ويدخل عليَّ حاملًا صينية عليها الطبق وإلى جانبه سلطانية مليئة بالمخلل: لفت، وجزر، وزيتون، وفلفل أخضر، وليمون.

لا مشكلة في كل هذا، فالمخلل تعده جدتي في البيت، كذلك الفول تشتريه حصى وتدمسه مثلما كانت تفعل في مصر.

الجديد هو الزيت الحار!

أقول له: من أين حصلت عليه يا جدي؟

يتبسم معجبًا بنفسه:

- كنت بدعبس إمبارح على عطارة عند شوية المحلات بتوع الجماعة الصينيين اللي في اللاتيني، وهب ألاقي قزازه كده مخربشه ومرميه على جنب. أسأل الراجل، يقولّي: دا زيت علشان الكحه وأتابيه الزيت الحار، طب جابوه منين ولاد القرود دول؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكأن طبق الفول هذا بزيته الحار هو الترياق..

إذ بدأت أنسل من الكآبة التي تطوقني، وأخرج حيث جدي.

أجده على ذات الحال..

جالسًا على مقعده المعتاد، وكومة من الجرائد والمجلات القديمة ملقاة أمامه تعلوها نظارته الطبية، يكون غافيًا، عيناه مسبلتان ورأسه مائل على حافة المقعد. أنادي عليه مرتين وثلاثًا حتى يرفع رأسه نحوي، يتأملني عدة لحظات وحدقتاه متسعتان كأنما لا يعرفني، ثم يهش في وجهي وينظر إلى ساعة الحائط:

- ياه.. دا العصر فات!

كانت هذه هي عادته في الكلام، فلم يكن يحفل بالساعة التي نحن بها وإنما (بالأوان) مثلما تربى بين العامة في شوارع القاهرة، وكثيرًا ما كان يرد على لسانه أو على لسان جدتي كلام مثل هذا: "يللا يا جلال دا الدنيا ضحت" أو: "يا سبحان الله دا احنا دخلنا على العشا والدنيا ليلت".

يفسح لي مكانًا إلى جواره، وهو يقول:

- تعالى تعالى هنا جنبي.

لا ينتظر أن أبدأ بحديث، يقول فور أن أجلس:

- أوعى تكون فاكر إن جدتك إيڤون عاجبها الكلام ده؟ هيَّه صحيح تفرس بلد بزيها.

وينظر نحو باب المطبخ محتاطًا:

- أي والله! وبتعمل كل عملة والتانية لكن مبتحبش الغلط ولما اسمها أيه كلمتها! هيه اسمها إيه؟

أتدخل مساعدًا:

- قصدك ماما!

- الماما دا أيه! جتها وكسة! قصدي على اسمها أيه دي! أيوه أيوه افتكرت! لما خالتك بيلا اتصلت بيها واشتكت لها من اللي أنت عملته هبت في وشها.

وتوقف محدقًا في وجهي:

- مش مصدق إياك! لا والله يا ابني أنا سمعتها بوداني وهيَّه بتقولها احنا طول عمرنا أشراف وخلي بالك من بنتك، ومتنسيش إننا في الأول والآخر ولاد بلد وجدك إسحاق كان بيلبس جلابية وقفطان، يعني الشرف عندنا غالي والعيب هو العيب.

- وهو جدنا كان صحيح بيلبس كده؟

- أُمَّال! جلابية وقفطان وجزمة برقبة وشال على راسه ولغوته لغوة ولاد البلد! كان كلاف قد الدنيا وبيتاجر في الفول والعدس والدوم وبضاعة رمضان.

ثم أمسك لسانه مندهشًا، وعاد وقال:

- بس إيه دخل جدك إسحاق بالكلام اللي إحنا فيه؟

فرددت متبسمًا:

- آه صحيح أيه اللي دخله في كلامنا؟

- أيوه كده افطن معايا للكلام ومتودناش يمين وشمال!

وبعدها..

إن كان مزاجه معتدلًا يبدأ في فتح موضوعاته الأثيرة، وكلام في كلام وموضوع في موضوع بلا توقف، بل ولم يكن يتوقف عن الكلام حتى وهو يمخط والمنديل على أنفه. وإن كان مكتئبًا يبدو ذلك على صفحة وجهه، ويظل صامتًا لا يتكلم وساعات كان يفاجئني بأسئلة لا أعرف لها جوابًا، ففي مرة رجع بظهره مسترخيًا على المقعد، وهو يسألني عن صديق قديم له يدعى (بيسح).

تبدو الدهشة على وجهي، فيشيح بأصابعه بصبر نافد:

- أيوه بيسح! عجيبة دي! وهو فيه حد ميعرفش بيسح؟

تنقذني جدتي:

- بيسح دا يا حبيبي عطار، عطار يهودي كان فاتح في شارع (طور سينا) ناحية السكاكيني، وكان صاحب جدك الروح بالروح ومتحلاش قعدته إلاَّ قدام المحل بتاعه، فينك يا بيسح وفين أيامك كان جدك يدخل علينا شايل أكياس من عنده ويقولِّي عمك بيسح بيسلم عليكي!

وتلتفت إليه:

- بس إيه اللي فكرك بيه دلوقتي يا أبو إيزاك؟

فيستغرب من سؤالها:

- مش صاحبي!

- أنا عارفة إنه صاحبك، بس الكلام ده كان من ييجي تلاتين سنة ولا أكتر، وكل واحد منكم راح في حالة لما ابنه شولح حب يخطب بيلا وهيه مرضيتش.

وتنظر إليَّ متعجبة:

- بيسح إيه يا اخواتي..

وسألني مرة عن حال أبي الشوارب معي، إذ لم يكن مقتنعًا به ويظنه متصابيًا طائشًا وبه لطشة جنان، وما إن بدأت أجيبه حتى قاطعني قائلًا: لا أظن أني سوف أرجع مصر ثانية؟

اعترتني الدهشة فلا علاقة لما يقوله بمن أتحدث عنه، غير أني جاريته قائلًا: ولماذا يا جدي؟ تستطيع الذهاب الآن وفي أي وقت، فأنت تحمل جوازًا فرنسيًا ولا مانع يحول دون دخولك أو خروجك من مصر!

- لا.. لا..

قالها بإصرار وهو يدفع يده إلى الأمام، فأطاح بفنجان القهوة وانكفأت المطفأة في حجره بما فيها من رماد وأعقاب سجائر، وأتت جدتي مسرعة من المطبخ، مكثنا برهة ننظف الروب الذي يرتديه ونعيد ترتيب المكان، وما إن استقر ثانية في مقعده، حتى بدأ من جديد:

- الحكاية مش كده يا مُبَارك! هو إحنا اللي نقوله هنرجع نعيده تاني! أنا مش عايزها زيارة وانفضت، أزور إيه وبتاع إيه! أنا عايز أرجع نهائي أنزل الشارع وافتح الشقة واللي داخل واللي خارج ويا عم زكي ومش يا عم زكي! والطماطم بكام النهارده يا بت يا زكية وادينى علبة كليوباترا يا عم عليش...

وتوقف، كأنما شيئًا كان غائبًا عنه وتذكره:

- إلا قولّي، هو مفتاح شقة الضاهر معاك؟

سبق وأن أصر على أخذ مفتاح الشقة من أمي قبل أن تتركنا وتتزوج، فذَكرتُه:

- المفتاح معاك انت يا جدي، وتحب أقولك فين بالظبط؟ في جراب النضارة القديم اللي انت شايله في درج التسريحة الأخراني.

- أيوه. أيوه. صحيح.

وجلس يتأمل ذبابة حطت على ركبته ووقفت ساكنة، ثم رجع إليّ قائلًا:

- طيب أيه رأيك لو ترجع معايا وآهو تونسني هناك، ولما أموت يبقى ادفني جنب البابا والماما وإن كنت عايز ترجع تاني يبقى ارجع.

- لك العمر الطويل يا جدي، وإن شاء الله اللي نفسك فيه يتحقق في يوم من الأيام.

فتغير وجهه:

- في يوم من الأيام! وهو انت فاكرني بخطرف وانت بسلامتك بتاخدني على قد عقلي! جيت جيت، مجتش مجتش! أنا هرجع لوحدي لا أنا عايزك لا إنت ولا شمعون ولا إيڤون ولا حد من الأشكال دي.

- طول بالك يا جدي، إنت عارف إن مصالحي هنا...

فازداد غضبه:

- مصالحك!

وهب واقفًا لولا أني أمسكت بذراعه، وشرعت في تطييب خاطره حتى رضى وأقطعته وعدًا كاذبًا بأني سوف أفرغ من إنهاء أعمالي قريبًا، في غضون سنة على أكثر تقدير، وبعدها نعود معًا.

أحببت أن أمازحه بعدها:

- طيب افرض يا جدي وانت في مصر حصل حرب مع إسرائيل، تعمل إيه؟

- ويتحاربوا ليه؟ مش هما خلاص اتصالحوا!

- أنا بقول افرض تعمل إيه ساعتها؟

- أعمل إيه! أحارب أنا راخر، أحارب ونص وأجري بالمشوار كمان!

- تحارب إسرائيل؟

- وأبو إسرائيل!!

- يا جدي!

- جدك دا إيه، وهو انت فاكرني طابور خامس! دا أنا زكي ابن إسحاق ابن يوسف ابن هارون ابن شمعون الأزرع. وكل دول اتولدوا وعاشوا في مصر وعمرهم ما طلعوا منها، لا راحوا يمين ولا راحوا شمال، يدوبك يروحوا مولد أبو حصيرة كل سنة ويرجعوا بعدها على بيوتهم وأشغالهم، هو أنا هفضل أهاتي لحد إمتى وأقول يا ناس! يا عالم! يا خلق! البلد دي زى ما هي بلدكم بلدي أنا راخر..

ونضحت عيناه بدمعة وهو لا يزال يتكلم:

- بتقولّي هتحارب يا سي جلال! ومحاربش ليه! هو أنا أقل من المسلمين بتوع الهند اللي واقفين على الحدود مع باكستان وساعة اللزوم يحاربوها.

كان قد تجاوز الثمانين ببضع سنوات، ولا أحسب أن هناك ما يدعوه لأن يقول غير ما يبطن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

22

وتوقفنا أنا وأبو الشوارب عن تجارة (الشنطة)، وكل الأعمال التافهة التي كنا منغمسين فيها.

فلا بيع بالقطاعي أو استدراج للزبائن أو الذهاب إلى الفنادق والبيوت، خاصة بعد تلك الواقعة التي حدثت لنا مع الشيخ (داعس) وجرى يومها خلفنا حاملًا فردة شبشبه ورأسه (وألف يمين) أن يسلمنا لمخفر الشرطة.

لم يعد وضعنا يسمح بهذا، ولا بعقد الصفقات على المقاهي وفي الحانات مثلما كنا في السابق، أو نتلاعب أمام الزبائن كما (الأراجوزات).. ولا.. ولا.. أصبحنا كبارًا، وحط الخير علينا من كل مكان.

بدأت الحكاية بمكتب صغير (غرفة وصالة) بضاحية ڤرساي، ومخزن مظلم رطب عفن استأجرناه من أحد المزارعين على مسافة عدة أميال من باريس. ويبدو أنه كان مأوى للماعز والأغنام أو ربما الخنافس والخنازير، فقد ظلت (الزناخة) ورائحة الروث والمخلفات باقية فيه رغم ما أجريناه عليه من أعمال نظافة، وكانت تنتابني حساسية ولا أتوقف أبدًا عن السعال كلما وطأته قدماي.

وخطوة في خطوة أصبح لنا سجلّ تجاري وقُيدت شركتنا بالغرفة التجارية بباريس، واستتبع ذلك أن تركنا وظائفنا بمحل بوشار.

واشترينا سيارة رينو (كاميون) نصف عمر لنقل البضاعة، وأصبح لدينا فراش للمكتب، رجل تونسي تجاوز السبعين اسمه (بو لحية)، قال أبو الشوارب: إنه لا يصلح؛ فسمعه ثقيل وسحنته وهيئته تقولان إنه بلوى من بلاوي الزمان.

غير أني تمسكت به لأنه أتى بتوصية من الشيخ منجي، وقد أثبت الرجل بعد ذلك جدارته، إذ كان خفيف الحركة ومن هنا لهناك كما الريح وبرشاقة تضاهي رشاقة القرود. المشكلة التي به، أنني كلما تحدثت إليه كان يسمعني بوضوح حتى ولو كان صوتي خافتًا، أما إذا خاطبه أبو الشوارب فكان يدعي الطرش ويتقدم خطوة نحوه طالبًا منه أن يعيد ما قال.

وعيَّنا موظفًا آخر مصري الجنسية مثلي اسمه فؤاد أهله من مركز أبو المطامير، أجلسناه على الكمبيوتر وكلفناه بإمساك الحسابات، واللبناني (حرفوش) بالطبع سائق الرينو الذي كنا نضع أيدينا على قلوبنا كلما جلسنا إلى جواره، ومن فرط سرعته وطيشه كنا نقول لأنفسنا: إننا ذاهبون حتمًا إلى التهلكة وليس لتسليم بضاعة أو لقاء زبون.

وأفاض الله علينا..

إذ انتقلنا إلى مكتب أوسع (ثلاث غرف وصالة) وشرفة كبيرة تطل على شارع سان ميشيل ذاته، أما المخازن فتعددت: مخزننا القديم واثنان آخران واحد بضاحية سان كلو، والثاني بالمنطقة العشرين. وتعددت صفقاتنا وكلها ضخمة وبمئات الألوف من الفرنكات، وأصبح عملاؤنا من الرجال الثقال، تجار كبار شوام وأتراك ومن ليبيا والباكستان.

وذاع صيتنا، إذ كنا نقبل التقسيط وهامش الربح لدينا معقول، ومبدؤنا أنه بكثرة المبيعات تزداد الأرباح.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تركزت تجارتنا في الملابس التي ولت موضتها بالنسبة للسوق هنا في باريس، والتي غالبًا ما يكون قد مضى على عرضها في المحلات الكبيرة والبوتيكات فصلان من فصول السنة أو ثلاثة على أكثر تقدير.

لا نشتريها من أي أحد وإنما من بيوت الأزياء الكبيرة، بعدما تكون قد استرجعتها من المحلات ووضعتها في مخازنها وأرسلت بدلًا منها الجديد. والسعر في هذه الحالة يكون بربع الثمن، ولا نتسلم البضاعة إلا بعد أن يكونوا قد نزعوا من عليها أية إشارة أو علامة تدل على أنهم الصناع. فالأسماء الكبيرة مثل ديور وأرماني وكاشاريل وكاردان، لا ترضى بأن تسلم بضاعتها (لتجار الرديف) أمثالنا وعليها العلامات التجارية التي تخصها، فهذه فضيحة بالنسبة لها خاصة وأنها لا تعرف أين ستعرض وبأي سعر تباع، فالبضاعة الراقية لا يجب أن تباع إلا في المحلات المحترمة وبأسعار عالية تناسب جودتها وأسماء صانعيها.

عملية الشراء إذًا، كانت تجري بيننا على أنها بضاعة هالكة ومجهولة الهوية، ونحن (وشطارتنا) نبيعها في أزقة باريس أو لتجار قادمين من المدن الصغيرة والأرياف، أو نصدرها للخارج أو نفعل بها الذي نفعله، ولكن بشرط ألا نعيد وضع علامات الصناع الأصليين، وإذا فعلنا فهذه مخالفة نَمْثُل بسببها أمام القضاء.

نأخذ هذه (اللُّوطَّات) والتي تشتمل على آلاف (التيشرتات) و(التاييرات) و(الچيبات) و(السويترات) والأحزمة والمناديل ونضعها في مخازننا، ونبدأ في البحث عن العملاء.

وهنا يأتي دور أبي الشوارب..

فقد تكفل بهذه المهمة، ولا يمر أسبوع أو أسبوعان إلا وأراه داخلًا عليَّ بالمكتب وفي يده تاجر شامي أو ليبي أو من فلسطين، وأحيانا تاجر من كوريا أو البرازيل ومعه مترجم ينقل بيننا الحديث.

أما أشهر الجميع وأكثر من تعاملنا معه كان تاجرًا تركيًا، دخل علينا أول مرة متأنقًا في ملابسه، وشاربه كثيف بشكل غير عادي، وأطرافه ملفوفة لفة خاصة وملوية إلى أعلى تتحدى خلق الله. وكان هذا الرجل بالذات مفرطًا في الحجم بدرجة تثير الانتباه، حتى إنك تقول لنفسك أول ما تراه: أيعقل أن يكون هذا إنسانًا أم أن جدته كانت أنثى خرتيت!

ساعدناه حتى جلس على أريكة جلدية واسعة وهو يلهث، وبعد أن استقر وتأكد أنه آمن في موضعه أخرج غليونه وحشاه بالتبغ منفثًا الدخان في وجوهنا، وبدأ في الكلام عن كل شيء إلا الموضوع الذي جاء من أجله! المشاكل التي تعاني منها تركيا خاصة من الأكراد وزعيمهم (عبد الله أوجلان)، ولواء الإسكندرونة الذي كاد أن يتسبب في حرب بين سوريا ودولة الأتراك، وشيئًا فشيئا يتطرق إلى أمجاد الدولة العثمانية والتي لولا (كمال أتاتورك) وسقوط الخلافة؛ لكانت الأمة الإسلامية الآن في حال غير هذا الحال.

ويعيد حشو غليونه، وعدة أنفاس وراء بعضها حتى يحيطنا بهالة من الدخان ثم يتكلم.

يتكلم عن نفسه!

يذكر لنا اسمه كاملًا حتى الجد الخامس واسم أمه والفتاة التي أحبها قبل أن يتزوج، وكلمتين عن زوجاته الثلاث وأنه من سلالة السلطان (عبد الحميد الثاني) آخر سلاطين بني عثمان، ولو الأمور تسير في مجراها الصحيح؛ لكان الآن خليفة للمسلمين أو واليًا على أقل تقدير.

فينفد صبرنا أنا وأبو الشوارب وننظر إلى بعضنا البعض، لكن ماذا نفعل؟ هو زبون، والزبون دائمًا على حق!

هو الذي يفعل..

ينظر في ساعة الجيب التي ما زال يحتفظ بها كتراث، ويقول: إن وقته ثمين وقد تعطل وهذه ليست تجارة، التجارة خذ وهات بلا ثرثرة أو كلام!

وبنبرة متأففة يضيف: أين البضاعة؟ أنتم هكذا أيها العرب كثيرو الكلام قليلو العمل، وأنا رجل حار! ولا وقت عندي للكلام عن فلان وعلان!

ويهب قائمًا من غير سبب بيد أنه يفشل، تعود به مؤخرته رغمًا عنه إلى الأريكة.

نُهرع إليه، بعد أن يكون كل منا ألقى للآخر نظرة استعجاب! ويسرع أبو الشوارب إلى الغرفة المجاورة ويعود حاملًا العينات، فيجده دخل في حديث آخر عن نبات (الزعتر وحبة البركة والبردقوش) وأن الناس في سهل الأناضول...

يقطع عليه أبو الشوارب الحديث واضعًا العينات في حجره، وهو يقول: هذه البلوزة بخمسين فرنكًا في الجملة والجملة مائة وعشرون قطعة، وهذه بكذا، أما الشورت الرجالي هذا فبكذا ومنه أربعة ألوان، وليس متوافرًا لدينا الآن إلا المقاسات الصغيرة.

يقلب البضاعة في يديه، ويبدأ في المناورة..

نقول له: لا.لا. يا سعادة (البك)، فكلمتنا واحدة وسعرنا (بريفكس) ليس فيه فصال.

ينظر إلينا معترضًا..

فيقول أحدنا: اذهب إلى شركة (مكسيم إخوان) وأنت تعرف أننا نبيع بتراب الفلوس، أو المغاربة (أولاد بو مكلاب)، أو اليهودي (ديڤيد شاؤول) أو.. أو..

يكون قد مر على كل هؤلاء التجار قبل أن يأتي لنا ويعرف أن أسعارنا معقولة، فيتراجع ويقبل.

ويبدأ في مناورة ثانية لمعرفة أسماء الصناع.

نقول: إلا هذه أيها الخفيف، فهي مشروطة بيننا في العقد يا ناصح!

ونقوم أنا وأبو الشوارب - وعلى قلب رجل واحد - برفعه رفعًا من فوق الأريكة وإخراجه من المكتب بأمان، بعد أن نكون قد اتفقنا وحررنا العقد وتسلمنا منه الشيكات، فهكذا كانت تجري الأمور.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وامتلأت بالنقود حتى إني ركبت (البي أم دبليو)، وأصبحت لي حسابات ضخمة في البنوك وأسهم وسندات، وبدون أن أشعر أحببت المال. حرصت على جمعه واكتنازه، وكنت لا أمل من الإمساك بجهاز الحاسوب وأحثه حثًا ليصل بي إلى المليون الثاني من الفرنكات. لا أعرف إن كان هذا هو طبعي، أم كنت أنظر إلى المال على أنه ملجأ أحتمي به في غربتي.

فمن لي؟

جد هرم، وأم هاجرت إلى دنياها الجديدة، وبلد ليس لي فيه أي إنسان.

أما أبو الشوارب فكان على خلافي، لا يعبأ أبدًا بالمال، يستقطع منه جزءًا لإنفاقه وملذاته وجزءًا لأهله في جنوب لبنان، أما الباقي، وهو كثير، فكان يرسله بنفس راضية إلى إخوانه في (حزب الله).

وقد ثارت بيني وبين هذا الرجل الهمام سحابة صيف سرعان ما انقشعت..

إذ عرضت عليه أن يعمل معنا خالي شمعون، ليس مساهمًا بالطبع فكل الدنيا تعرف أنه (على الحميد المجيد) إنما كموظف أو حتى مستخدم بسيط مثل (بو لحية)، إلا أنه رفض رفضًا قاطعًا وقال: لا يعمل عندنا يهود أبدًا، ولا يجب أن نثق في واحد من هؤلاء الناس، إنهم يقتلون نساءنا وأبناءنا في لبنان وفلسطين، ولو لم يكن هؤلاء الأبالسة يعيشون معنا في هذه الدنيا لما كان فيها حقد ودم وانتقام.

كان احتلال (شارون) لبيروت ومذابح صابرا وشاتيلا لا تزال ماثلة في الأذهان فعذرته، غير أني قلت له: إن خالي يهودي وليس صهيونيًا، واليهودية شيء والصهيونية شيء آخر، هذا دين منزل من السماء والأخرى سياسة وإجرام وكل الذي تقول.

إلا أنه أصر وقال: لا. وألف لا..

احتكمنا إلى الشيخ منجي، فوقف في صف أبي الشوارب وحذرني من مغبة الإشفاق على اليهود، حتى ولو كانوا أخوالي.

وقال لي غاضبًا: إن أبا الشوارب، بارك الله فيه، يرسل كل ما يقدر عليه لأهله في لبنان ليدافعوا عن أنفسهم، وهل لو فعل ذلك هذا الذي اسمه شمعون وأرسل جزءًا من ماله إلى إسرائيل ألن يكون من المال الذي يسرته له؟! أليس في هذا خيانة لناسك وأهلك؟ إن الله أفاء عليك بالخير يا جلال فلا تيسره للظلمة المضلين! كف عن هذا يا ولدي واستغفر لربك..

وكنت أنا مؤمنًا بغير ذلك..

وأحسب أن اليهودي إنسان والصهيوني إنسان آخر، وكان جدي مثلًا حيًا من لحم ودم لليهودي الصالح الذي كفل يتيمًا مسلمًا معوزًا مثلي، ويسر له كل سبل الحياة على قدر ما يستطيع، بل وفضله على غيره من أحفاده الخُلَّص.

جدي الذي لم يفرق بين دينه الذي يحبه ووطنه الذي ولد وتربى فيه، فكلاهما مقدس لديه وواجب الاحترام. كذلك خالي شمعون الذي لم أسمعه مرة يقول كلمة سوء في حق بلده، بل وطالما أغرقه الحنين للرجوع إليه. الصهاينة هم أبو زلومة وخالي إيزاك، وجدتي على رأس القائمة بالطبع، ولعله أيضًا الأستاذ يعقوب..

لم أجد حلًا سوى أن أساعد خالي شمعون في الخفاء..

كنت أعطيه ألف فرنك أول كل شهر وأحيانًا ألفين، بل وأكثر من ذلك كلما هل عليه عيد من الأعياد (عيد الفصح)[29] *و(يوم الغفران)*[30] *، وفي أعياد (المساخر)*[31] *، و(الأسابيع)*[32] *، و(الأنوار)*[33]*.*

ولا أنسى أبدًا أول يوم مددت له فيه يدي بمظروف به نقود، أربكته المفاجأة ورجع خطوة إلى الوراء وهو يشيح بيده رافضًا، بدا وجهه خجلًا مرتبكًا راغبًا وغير راغب وانطفأ بريق عينيه، لكنه كان فقيرًا محتاجًا وبضغطة خفيفة مني مد يده. وطوقني الحرج أنا الآخر؛ حتى إني خفضت بصري هربًا منه ومن نفسي، فهذه أول مرة أعطي فيها شيئاً لرجل يعلوني سنا وفي الدم والقربى، أكون الأقوى وهو الضعيف..

وأحطته بكلتا ذراعيَّ، ضغطت بهما على أكتافه وظهره ضغطًا لينًا حنونًا.

كنت أحبه..

خالي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

23

- برضه بتقولّي جلال؟ جلال أيه وهباب أيه، ما أنا لسه قايلالك إن معندناش الاسم ده!

- ....

- تانتك ايڤون! إيڤون دا أيه، أنا اسمي (وزة) ياحبيبتي!

- ....

- يوه بقى يا مودموازيل وللا يا مدام إنتي، إحنا لا مصريين ولا عمرنا شفنا مصر! إحنا سودانيين يا ماما! سودانيين!

- ....

- زكي أيه، زكي الأزرع! إحنا ياست إنتي لا عندنا أزرع ولا أكتع! وكفاية بقى بلاش إزعاج.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هذه هي العبارات التي التقطتها أذني وصحوت عليها من نومي، تلاها (رَزْع) سماعة الهاتف بحدة ثم بدأت الحركة في الصالة، كأن يدًا تجر مقعدًا وباب الثلاجة يفتح ويغلق، وشيئًا فشيئًا بدأت تنساب نحو أنفي رائحة تبغ محروق.

الليل كان في آخره تقريبًا..

فالكوة التي في غرفتي لم تكن معتمة وظلامها دامسًا كالذي اعتدت عليه كلما جن الليل، إنما تشوبه هنات ضوء تقول إن النهار همسة زمن ويجيء. ورغم أن انتباهي كان منقوصًا بعض الشيء؛ غير أني أدركت أن الهاتف قد دق وأنا نائم، وأن جدتي هي التي كانت تتحدث.

لكن مع من؟

ولماذا تصر هذه الجدة التي لا يردعها رادع على أن اسمها (إوزة) وليس إيڤون؟ وأنها من السودان! ولماذا تنكر أن البيت بيت جدي؟ واسمي هذا الذي ورد في الحديث (جلال أو حتى هباب)..

توجست بالطبع بل وأكلني الفضول لمعرفة السبب في تلك المناورة التليفونية التي قامت بها لتضليل تلك المسكينة، وقلت في نفسي: أكيد هناك شيء ما تريد إفساده.

وقمت مسرعًا لأجدها تشعل لفافة تبغ من أخرى، وأمامها كوب طويل مليء بقطع الثلج وطبق مشروخة حافته به ثمرتا كمثرى، وزجاجة (بيرة) منزوع عنها الغطاء تحوم ذبابة حول فوهتها. أما جدي فكان نائمًا ويأتي شخيره خافتًا رتيبًا، ثم يعلو فجأة وبصوت كالزمير حتى تحسب أنه في معركة حياة أو موت مع قصبته الهوائية، وتمضي برهة يعود بعدها إلى حاله الأول.

غطت رأسها بالإيشارب أول ما رأتني، وقالت بصوت ناعم لين:

- إنت صحيت، نوم العوافي يا جلجل، ادخل كمل نومك يا حبيبي دا لسه شوية على الفجر لما يشأشأ.

- والـ..

وأشرت إلى الهاتف.

- لا. لا. دي نمرة غلط.

- غلط أيه يا نينة! دا أنا سامعك وانتي بتقولي كذا وكذا...

فزمجرت:

- بقولَّك النمرة غلط.

ودخلنا في نقار حتى استخلصت منها (وبطلوع الروح) أن التي كانت تتكلم هي خديجة ابنة الشيخ منجي، وبررت موقفها بأنها لم تشأ إزعاجي وأنا نائم، خاصة وأن هؤلاء الناس أراذل ولا يجيء من ورائهم خير أبدًا.

أدرت قرص الهاتف طالبًا الشيخ منجي وأنا أعض على شفتي من الغيظ، وهي تصب لنفسها قدحًا من البيرة وتقول بصوت خافت متململ:

- بلا خديجة بلا زفت، دي بنت ملعونة زي أمها وعماله تتمسكن في التليفون وبتطلع صوتها بالعافية، الظاهر إنها مضروبة علقة من السخام أبوها، إحنا مالنا احنا ومال الناس الهم دي.

خمس أو ست مرات وأنا أدير القرص ولا يجيبني أحد، فأسرعت بارتداء ملابسي وهبطت على الدَّرْج كالريح لأجد باب الشقة مشرعًا وحديثًا متقطعًا باللغة الفرنسية يأتي من الداخل، فدققت الجرس دقات متصلة؛ غير أن جزعي ولهفتي لم يبقياني بالباب، اندفعت داخلًا، وفي ثانية واحدة كنت أمام الغرفة الداخلية التي كان ينبعث منها ضوء خافت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت غرفة نوم خديجة..

وهي ممددة على الفراش..

أنفاسها تتسارع، وصُفرة مقيتة تغلف صفحة وجهها، وحبات عرق كثيفة تجمعت بأعلى الجبهة وخلف الأذنين ينساب بعضها في مسار رفيع صوب عنقها، والثوب الذي ترتديه قد انفرج كاشفًا عن ساقيها.

لم أدقق في الواقفين..

انحنيت متعجلًا أُحكم الثوب على ما تعرى منها، ومالت معي في اللحظة ذاتها امرأة تساعدني فيما أفعل، زوجة حارس العمارة، وبعد أن فرغنا، طلبت منها بلغة عربية خافتة أن تخفي خصلات الشعر التي تدلت من أسفل الإيشارب وأن تعقد رباطه جيدًا على جبهتها. ورغم ما كانت به خديجة، أفلتت مني عيناي مختلسة النظر لوجنتيها اللتين كانت استدارتهما الرخيمة تشدانني كلما رأيتها مصادفة أو زرت أباها في البيت.

كانت منتبهة بعض الشيء وعيناها تدوران مع ما نفعله، فنظرت إليها مشجعًا غير أني لم ألمح تعبيرًا يجيبني على نحو مباشر، وآلمني أنينها الخافت، وكف يدها التي تروح وتجيء على صدرها كأنما شيء يفتك بهذا المكان بالذات. ولا أعرف لماذا جال في خاطري ونحن في جوف هذه الأزمة أنها توليني اهتمامًا أكثر من الباقين، ربما لأنني عندما ضغطت على راحة يدها الأخرى رمقتني بنظرة امتنان ثم أطبقت جفونها.

لم يستغرق كل هذا سوى دقيقة بحساب الزمن..

انتصبت واقفًا بعدها لأجد حارس العمارة (بو بكر ولد خروب) الموريتاني الذي تجنس بالفرنسية، وإلى جواره رجل يرتدي منامة يعلوها (روب دي شامبر)، مسييه راؤول الرجل الفرنسي الذي يقطن بالشقة المقابلة لشقة الشيخ منجي، وتربطه به علاقة ود، والذي قال لي بقلق: (مودموازيل هاديجا) تعاني من أزمة قلبية حادة، وإنه بمجرد استغاثتها به أبلغ مستشفى الحي.

وقال بو بكر: وأنا الآخر أبلغت الشيخ منجي، وقال لي إنهم قادمون على الفور.

قلت: قادمون! قادمون من أين؟

قال: من مرسيليا، فهو في واجب عزاء هناك، ذهب هو وكل أسرته للعزاء في ابن خالته الذي توفي في حادث سير.

واقترب مني خطوة وهو يكمل باللغة العربية: قال لي الشيخ منجي قبل أن يسافر إنه لن يغيب سوى يومين وأوصاني بخديجة، وأنا كنت أفعل كذا وكذا، وزوجتي هي الأخرى كانت تدق عليها الباب كل ساعة لتطمئن عليها، وكنا...

وأنا غير مبال بما يقول، وعيناي تجوسان في وجه خديجة الذي كان يذوي لحظة بعد لحظة ويزداد ضآلة عن الوجه الذي أعرفه.

ثم انتبهت للرجل الفرنسي الذي انحنى ليحمل خديجة، وهو يقول: دعونا نستعد ونخرج من باب العمارة، فسيارة المستشفى على وشك الوصول.

أسرعت إليه ودفعته خفيفًا لكن بصورة غير لائقة، وأنا أقول: أنا الذي سوف أحملها.

فنظر إليّ مندهشًا وتنحى جانبًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كنا ثلاثة بالصندوق الخلفي لسيارة المستشفى، أنا وخديجة وطبيب حديث السن جاد الملامح قام بإراحتها على المحفة، ولما حاولت مساعدته أزاحني بيده طالبًا مني بصوت زاجر أن أبتعد عنها وإلا أنزلني من السيارة! وانحنى هو عليها يضع أسلاكًا وصمامات على صدرها وحول رسغيها، ثم ارتكز على ركبته يتابع بقلق أرقامًا تعلو وتهبط بالجهاز الذي أمامه.

كانت الشوارع شبه خالية وقتها، فالساعة ما بين الرابعة والنصف والخامسة صباحًا والسماء ملبدة بسحب دكناء مشهدها لا يسر، وباريس لاتزال أجفانها مسبلة إلا من مركبة تمرق خطفًا، أو رجل يمضي هنا أو هناك متدثرًا بمعطف ثقيل والمظلة تحت إبطه متأهبة لأية قطرة يقذف بها السحاب. وأنا أنسل شيئًا فشيئًا مما حولي، ويطوف في بالي يوم أن شاهدت خديجة تعبر الشارع مسرعة لتقول لي: إن أباها يريدني حالًا في البيت، فعنده ضيف من تونس اسمه الشيخ (بوشناق)، ويود أن أتعرف عليه.

قلت لها ضاحكًا: هل هو ذاك الشاب الأعجوبة الذي ذاع صيته مؤخرًا بتونس في مجال الغناء؟

فوكزتني بيدها قائلة: ألا تكف عن المزاح، هذا رجل دين لحيته كثيفة ووقور وكل حديثه قال الله وقال الرسول!

قلت لها: دعينا من أبو شناق هذا وتعالي نجلس على هذا المقهى.

وأشرت إليه وأنا أدفعها بيدي خفيفًا نحو الباب، إلا أنها مالت برأسها خجلة وشدتني من يدي كي أعود معها.

أبقيت كفها في يدي يومها برهة طويلة دون أن تتأفف، وقفلنا راجعين نعبر الشارع وأنا أحيط خصرها بذراعي. لم تكن هناك مركبات تقطع الشارع مسرعة ساعتها، بل لم تكن هناك مركبات أصلًا أو أي شيء أخاف عليها منه، ومع ذلك فعلت وتقبلت هي مني ذلك بنفس راضية.

ويوم أن لقيتها مصادفة في شارع سان چيرمان وجلسنا على مقهى (الديماجو)، أنا أحاول الكلام معها بالفرنسية لأدرب لساني وهي تصمم على السماع مني بالعربية.

أقول لها: لماذا؟

تقول: لأني أحب كلامك..

وارتبكت ثم قالت: أقصد اللهجة المصرية! فهي خفيفة الظل، ملساء، تنساب من الفم برشاقة ولها وقع السحر على الأذن.

فأرد عليها مداعبًا وليس مغازلًا: على الأذن فقط أم على القلب؟

فتظن أنه غزل وتحمر وجنتاها، وتطلب مني أن أكف عن هذا الكلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هدأ الطبيب قليلًا والتفت إليَّ قائلًا: لا تقلق، أول ما نصل سوف تأخذ حقنة لإذابة الجلطة.

وهز رأسه متأسيًا وهو يضيف: هذه بكل أسف الجلطة الثانية فأنا أعرف هذه الفتاة، أنا الذي حضرت من ثلاثة أشهر وأخذتها بسيارة المستشفى، ومكثت عندنا أسبوعين تحت رعاية أستاذي (البروفسير مارك داسو).

قلت له بوجه كابٍ: هل هي بخطر الآن؟

فقال: لا أدري، بعد أن نصل إلى المستشفى سوف يتبين الأمر.

وبعدها ببرهة رمقني من أعلى نظارته المتدلية على أنفه وقال: هل أنت أخوها؟

قلت: لا.

قال: إذًا زوجها؟

قلت: نعم..

قلتها على نحو تلقائي، بلا لعثمة أو تردد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

24

اتفقت أنا وجدي على الخروج معًا من وراء جدتي..

وقف ينتظرني بالصالة إلى أن خرجت إليه، وكانت جدتي تحسو قدحًا من القهوة وتشاهد حديثًا تجريه القناة الثالثة بالتليفزيون مع فاتنة السينما الفرنسية آنذاك (بيرچيت باردو)، والتي كانت ساخطة وتشيح بيدها مستنكرة عمليات الذبح غير الرحيمة التي يقوم بها المسلمون للأضاحي في الأعياد.

تقول ووجهها محتقن وصدرها شبه العاري يهتز من الضجر والانفعال: ما هذا الذي يفعله هؤلاء البرابرة؟ ما هذه القسوة والهمجية والانتهاك الفاضح لحقوق الحيوان؟ ألا يستحون من أنفسهم وهم يذبحون هذه المخلوقات الضعيفة وهي في كامل وعيها! ألا يخدرونها أولًا! أليست في قلوبهم رحمة! والداهية في بعض مسلمي فرنسا الذين يذبحونها في بانيوهات الحمامات وأمام الأطفال ويجري الدم والشعر مع الماء في البالوعات! والنتيجة أنها تعطب وتُسدُّ وتظل بلدية باريس مشغولة في تطهيرها أيامًا وأسابيع، ألا يخجلون مما يفعلون..

ومخرج البرنامج اللئيم يأتي بمشاهد من مصر والجزائر وباكستان وبعض بلدان الخليج، لأناس في أيديهم السكاكين ويذبحون الخراف والماعز أمام البيوت وعلى سلالم العمارات وفي الخلاء، ورجال ونساء وأولاد صغار يتحلقون في دوائر يتابعون، وتركز عدسات التصوير على أعينهم التي اتسعت حدقاتها وتوغلت في رقاب الخراف ساعة الذبح، ومنهم من يميل برأسه أو يعض على شفته أو يضرب الأرض بقدمه مبتهجًا أو ربما شفقة، والذين يتسابقون نحو الدماء يغمسون أكفهم فيها ويطبعونها على الجدران والأبواب، ناهيك عن الصبية الأشقياء الذين يتبارون في تفجير (البمب) فتختلط أصواته بأصوات التهليل والتكبير...

هزت جدتي رأسها أسفًا وهي تقول:

- معاها حق والله! دا الخروف مخلوق غلبان وميستاهلش كل اللي بيعملوه فيه..

كنت في مرمى بصرها، فأشحت بوجهي متململًا مما قالت حتى تفهم وتكف، غير أنها لم تكترث وطفقت تقول:

- آه والله الرحمة حلوة! مسكين الخروف! مسكين خالص وللا أيه رأيك يا جلال؟

فهمت ما تقصد وأنها تود جرَّي إلى (خناقة)، غير أني آثرت المسالمة وغض الطرف مؤقتًا وأنا أقول في نفسي: رُحماك يا ربي، تفتنني في غربتي بجدة طائشة لا تمل ولا تكل من العراك!

جدي هو الذي أخذته الحمية، قال لها:

- صعبان عليهم وعليكي قوي الخرفان يا ست إيڤون! طيب زي ما ولاد الكلب دول عاملين نفسهم ملايكة وبيعرضوا علينا الحاجات دي، ما كان يتكلموا برضه ويقولوا على اللي كانوا بيعملوه في الجزائر زمان!

ووكزني في ذراعي:

- دول كانوا بيقتلوا ويدبحوا وينهبوا، أرض وفلوس وتجارة وخيرات ربنا كلها اللي ماليه الجزائر.

وكزني ثانية:

- وأعوذ بالله يا جلال يا إبني، كانت فرقة العساكر الفرنساوية من دول لما يضربها السلك تقوم تحاصر لها بلد من البلاد، وبلاد إيه! صغيرة وفي حضن الجبل وللا في الحتت المتطرفة وأهلها غلابة! ويعملوا أيه ولاد اللعينة دول!

وضغط بأطراف أصابعه خفيفًا على حافة ذقني، لتكتمل استدارة وجهي نحوه ويزداد انتباهي:

- إسمع يا سيدي، بالعافية كده وتحت السلاح يطلعوا الرجالة بره البلد ويرموهم بعيد ويحطوا عليهم حرس ويخشوا هما على الستات وماتفرقش! بنات وللا كبار وللا حتى نسوان قاطعة الرجا من الدنيا ويعملوا عمايلهم الوسخة! ولما ينولوا مرادهم ينادوا على بعض: يا چاك.. يا مارك.. يا فليب.. يا زفت.. وينطوا الأوساخ في العربيات وجري جري على المعسكرات بتاعتهم، شفت قلة أدب وإجرام أكتر من كده.

وأشاح بيده في وجه جدتي:

- ما كانوا يصوروا الحاجات دي يا إيڤون هانم! فالحين بس يصوروا خروف العيد! وللا الست اللي عمالة تتعوج وتتكلم بالعين والحاجب دي! اسمها أيه يا واد يا جلال؟

- باردو، بيرچيت باردو يا جدي.

- أيوه هيَّه! بتاعة المسخرة والمرقعة والأفلام الملط! والنبي تلاقي أبوها وللا جدها كان واحد من العساكر دول.

واحتدم غضبنا أنا وجدي، فلم تشأ جدتي الدخول في جدال معنا بعدما أحست بتحفزنا لها؛ خاصة أنها واحدة ونحن اثنان.

قالت بصوت لين مسالم:

- وهو أنا قلت حاجة يا جماعة، أنا بقول الرحمة حلوة! هه..

وأغلقت التليفزيون.

وانتبهت إلى أننا بملابس الخروج، فسألتنا:

- إنتوا رايحين على فين؟

قال لها جدي وهو يستدير خارجًا:

- رايحين نتمشى، رايحين اليابان! رايحين كراتشي! رايحين في داهية! إنتي مالك ومالنا..

فهبت وراءنا غاضبة، إلا أننا أسرعنا بإغلاق الباب عليها وهبطنا على الدَّرْج مسرعين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مال جدي على امرأة في الطريق تبيع وردًا، ابتاع منها وردتين ملفوفتين في ورقة سيلوفان ودخلنا على خديجة في المستشفى.

كان الشيخ منجي يجلس مع ثُلة من الكهول كلهم بالبرانيس المغربية، ولهم لحى تضاهي لحية الشيخ نفسه إن لم تكن تزيد، وفي أقدامهم جوارب صوفية سميكة ثم (البُلَغ)، ونساؤهم كلهن منقبات لا ترى منهن شيئًا ويحطن بفراش خديجة.

أول ما أطللنا برأسينا أنا وجدي قام إلينا الشيخ منجي بوجه بشوش، وهبت النسوة واقفات مرتبكات يردن الاستتار منا، فصاح فيهن: كل إلى موضعها فهما من أهلي، وعانق جدي عناقًا شديدًا حتى كاد أن (يفطس في يده) وقبله على وجنتيه، وهو يقول لمن معه: إنه جاري الأستاذ زكي الأزرع، رجل محترم وعطوف ومن عائلة عريقة في مصر! عائلة الأزرع!

ونظر إليَّ وعيناه تقولان: أليس كذلك؟

فأصابني الارتباك من شدة مبالغة الشيخ منجي، غير أني أكدت على قوله والمغاربة ضيوف الشيخ يهزون رؤوسهم ويقولون: ما شاء الله! ما شاء الله! حلت البركة، وجدي مرتبك متعجب من كل هذا الثناء والترحاب ويطأطئ

رأسه خجلًا، وعندما جاء الدور عليَّ قبض الشيخ على معصمي ورفع يدي اليمنى عاليًا، وهو يصيح بصوته الجهوري: وهذا حفيده جلال وهو بمثابة ابن لي، ومهما أحبني فأنا أحبه أكثر.

وتبسمت لي خديجة وأنا أنحني عليها مسلمًا، ضغطت على كف يدها فشعت عيناها نورًا ثم أسدلت رموشها وتباطأت أنا قليلًا في سحب يدي من يدها، ويبدو أن هؤلاء المنقبات المحنكات شعرن بنا، إذ رفعن كلهن رؤوسهن نحونا وهن يتبادلن إشارات مشفرة بأعينهن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في طريق العودة قلت لجدي عمَّا في قلبي..

كنت أحسب أنه سوف يعترض، ربما للخلافات القديمة مع أسرة الشيخ منجي، أو مراعاة لراشيل أو لأن جدتي سوف تشعلها نارًا لو حدثت هذه الزيجة، غير أنه كذب هواجسي وقال لي على الفور:

- على بركة الله يا إبني، طالما أنت مرتاح لها متترددش، وآهو كده انت تشوف حالك وراشيل هي رخره تعرف راسها من رجليها.

وبنبرة معاتبة أضاف:

- ما أنا قلتلك من الأول إن راشيل متنفعكش ودور على البنت اللي تناسبك، إنت اللي مسمعتش الكلام! يعني كان لازم تصلب مخك ويحصل اللي حصل! كنتوا اخوات أحسن..

- يعني قصدك ياجدي إني صلبت راسي لما سبت لها البيت ومشيت؟

- أبدًا. أبدًا. أعوذ بالله وهو أنا أرضالك كده! أنا قصدي على الجوازه نفسها.

وأطاح بيده خفيفًا في الهواء:

- بقولك إيه مش وقته الكلام ده، والحمد لله إن ربنا هداك لخديجة دي بنت طيبة وطول عمرها دوغري ومحترمة.

فأجبته متحمسًا:

- وآه يا جدي لو تعرف قد أيه بحبها..

نظر إليَّ مليًا:

- بتحبها ولا بتحب الشيخ منجي؟

- شيخ منجي إيه يا جدي!

- أيوه الشيخ منجي.. اسمع يا ابني أنا راجل لف بيه الزمن ودار، وبقولك إن اللي بينك وبين خديجة ده حاجة تانية غير الحب! حاجة كبيرة حاجة حلوه، بس مش حب.

- جدي!

- جدك الراجل العجوز الراجل اللي بيحبك معندوش غير كلمة واحدة هَيَّه إن خديجة أنسب واحدة لك، وفي الظروف اللي إحنا عايشين فيها مش هتلاقي واحدة أحسن منها..

- إنت ليه يا جدي مش مصدق إني بحبها؟

فضحك.

- وأنا كمان بحبها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كنا قد نزلنا من عربة المترو وافترقنا بسبب الزحام، وأول ما التقينا وضع يده على كتفي قائلًا:

- بس يا بطل لازم الأول تخلص حكايتك مع راشيل.

- خلَّي المسألة دي لبعدين يا جدي.

- بعدين! بعدين دا أيه، هو انت اتجننت! لازم تنفصل عن راشيل حالًا ورسمي كمان قبل ما تاخد أي خطوة في موضوع خديجة، إنت مش قد هارون!

- أبو زلومة تاني!

- أيوه يا سيدي أبو زلومة تاني وتالت ورابع كمان! دا راجل شر ومش بعيد يبلغ عنك ويعملَّك قضية!

- قضية! كلام إيه دا يا جدي!

- أُمَّال! ويسجنوك كمان! النظام هنا كده حتى اسأل الشيخ منجي، مفيش حد في البلد دي يقدر يتجوز غير واحدة وبس، وإذا اتجوز عليها تبقى علاقة محرمة وضد القانون! يعني بالعربي كده معندهمش تعدد زوجات، وإذا حضرتك اتجوزت خديجة ولسه راشيل على ذمتك تبقى مجرم في نظر القانون وهيشدوك وتدخل في سين وجيم.

- بس أنا وخديجة مسلمين، يعني ولاد الأيه دول هيمشوا كلامهم علينا وعلى شرعنا!

- أيوه أنا معاك، بس متنساش كمان إن خديجة واخدة الجنسية الفرنساوية وراشيل كمان، يعني الاتنين فرنساويين وهما هنا بيمشوا كلامهم على بناتهم. وطالما انت يا حلو عايز تناسبهم وتتجوز منهم، يبقى لازم تمشي على نظامهم ومتقوليش بقى شرعنا وشرعكم!

وقلب كفيه مردفًا:

- طيب ما احنا كمان عندنا تعدد زوجات زينا زيكم بالظبط واللي بيسري علينا هو اللي بيسري عليكم، الدنيا هنا كده! الحق نفسك بقى وبكره ولا بعده بالكتير تخلص الموضوع ده.

كنا على وشك الصعود على سلم عمارتنا، فوضع جدي إصبع سبابته قبالة فمه كما لو كان يحدث طفلًا صغيرًا ثم قال:

- وإيه! تقطع النفس على الآخر وتكفي على الخبر ده ماجور لحد ما أمهد لك عند جدتك..

وتساءل:

- طب والماما عندها فكرة عن الموضوع ده؟

- أبدًا..

- يوم ولا اتنين عبال ما أقول لجدتك إنت كمان تكون رحت للماما.

- ما أنت عارف يا جدي إني..

وسكت..

- لا يا حبيبي روح للماما وقولها دا واجب شرعي، مش الإسلام بيعلمكم الحنان والرأفه على الأم والأب..

تطلعت إليه برضىً، وأردف هو بنبرة جادة:

- هو أنت فاكرني معرفش حاجة عن دينكم! طب دا أنا ياما قريت للمشايخ الكبار الغزالي والشيخ تاج والشيخ مخلوف رحمة الله عليه وفلان وفلان..

ورفع يده مؤكدًا:

- وياما سمعت الشيخ شلتوت..

- الشيخ شلتوت؟

- أيوه يا ابني دا كان شيخ الأزهر بس انت متوعاش عليه، كان راجل صالح وله حديث بيتذاع في الراديو كل يوم الصبح، وكانت الناس متخرجش لشغلها إلا لما تسمعه! روح يا ابني للماما واستأذنها علشان ربنا يرضى عنك.

- طيب يا جدي لما أنت عارف المشايخ دي كلها، مش تشاور نفسك بقى وتسلم علشان قلبي يرتاح.

قلت هذه الكلمات وعضضت على شفتي..

خفت أن أكون قد آذيته..

فحبي لجدي في مرتبة المقدسات، ولم أرغب لحظتها - لحظتها على الأقل - أن أقول له شيئًا من قريب أو بعيد يمس منطقة محظورة عليَّ..

منطقة في قلب الفؤاد ليس التمني أو الرجاء هما مفاتيحها، فسرها وسريرتها مغلقان على غير صاحبها..

شاخ جدي وبلغ من الدنيا أقصى مداه، ولا تزال التوراه مغلفة بمخمل أخضر إلى جوار فراشه يقرأ منها، ولسانه بين الحين والحين يلهج بحكايات وعظات أنبياء اليهود: إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويونس وأليسع...

فهل أخطأت عندما قلت له ما قلت؟ هل غرر قلبي بلساني من ورائي، وحتى الذي قلته هل له طائل أو جدوى..

ما الذي دفعني إليه إذًا؟

وهكذا بلا سابق تفكير أو وعي وقصد..

أنا نفسي اندهشت، واتكأت على حافة درابزين السلم، أحدق في وجه جدي متوجسًا من ردة فعله.

هل ما قلته مجرد زلة لسان؟

كلمات قيلت بلا معنى أو مأرب.. كلما تقال وتمر مرور الكرام، لا الذي قالها يعنيها ولا الذي قيلت له التفت إليها..

أم زلة لقلب مشغول بهذا الأمر وصاحبه لا يدري! هل فيَّ شيء يريد هذا الأمر وشيء آخر يكبته؟

جزء مني مولع بجدي على ما هو عليه وجزء مني يريده على نحو آخر، والاثنان لا يعرفان كيف يلتقيان؟

الحمد لله..

ومرة ثانية الحمد لله..

فقد انفتح جدي في ضحكة عالية، حتى إن عينيه طفرتا بالدموع، وأخذ أو هكذا حسبت، يبسمل ويحوقل بصوت خافت مثلنا نحن المسلمين، ثم احتضنني بعدها وهو ما يزال يضحك ويقول:

- سبحان الله عليك يا جلال..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

والتقتنا جدتي وهي تشمر كميها بلا أدنى سبب، يبدو أن ذلك أتى منها بلا وعي وكرد فعل غريزي على قدومنا بعد ما قاله جدي قبل أن نتركها وننزل، خاصة وأننا أقبلنا عليها ضاحكين.

كان وجهها بالفعل مكفهرًا وتتجهز للعراك معنا، عراك من النوع الذي يتطلب تشمير الأكمام.

وبدأت الجولة قائلة:

- جايين منين في انصاص الليالي والدنيا مش سايعاكم من الضحك! طب مفيش عشا سخان الكهربا عطلان!

فغمز لي جدي بعينه وهو يقول:

- أقولّها يا جلال أنا كنت بضحك ليه؟

- جدي! الرحمة يا جدي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

25

لم أكذَّب خبرًا..

قمت (من نجمة) إلى مكتب للتوثيق دلني عليه جدي، وبعدها إلى القنصلية المصرية، حيث أنهيت مسألة انفصالي عن راشيل تمامًا وأصبحت (في السليم)، ثم إلى أمي.

التقاني زوجها يعقوب على الباب، وهو يتثاءب:

- فينك يا جلال؟ خير؟ عايز الماما؟

وتركني واقفًا..

- طيب بس ادخل الأول يا أونكل!

- آه. آه. تعالى تعالى اتفضل.

أجلسني على مقعد بأول الصالة، وقال:

- بس يا حرام الماما مرهقة وتعبانة خالص، أصل احنا لسنا راجعين من حيفا في طيارة نص الليل.

واقترح عليَّ أن أعود من حيث أتيت وآتي في المساء، الساعة الخامسة على أكثر تقدير؛ لأنهما مرتبطان بموعد عمل في السابعة مساءً.

وأنا أحدق فيه ويداهمني إحساس بأني أبدو لهذا اليعقوب وكأني (طالب حاجة)، وأن التي بالداخل ليست أمي وإنما شيء يخصه، ولما أصررت على رؤيتها أعطاني ظهره متجها إلى الداخل وهو يقول بصوت غير مرحب:

- طيب.. أشوف..

وعاد ليستمهلني بعض الوقت وجلس قبالتي واضعًا ساقًا على ساق، وأنا ضجر منه وتروح عيناي إلى الصور المعلقة على الجدار، والرسومات الفارسية التي تزين السجادة الكاشان التي نضع أقدامنا عليها، ثم إلى كاحل قدمه البارز من الخف الذي ينتعله، وساقه من الأسفل التي كانت عارية وتسترعي النظر.

لم أَخَلْها نحيلة هكذا، والجلد الذي يكسوها بياضه غريب وملفت كما لو كان شبيهًا بلمبة (النيون) وهي مطفأة، وليس به شعرة سوداء واحدة. أشياء

كالهاموش لا قوام لها، وخليط بين اللونين الأبيض والأصفر، وهو نفسه لا يكف عن هز ساقه أو إخفاء تململه..

يبدو أنه أحس بأن عينيَّ تطالانه، إذ أنزل قدمه المرفوعة وشد طرف (الروب دي شامبر) إلى أسفل، وملت أنا أعقد رباط حذائي الذي انحلّت عقدته، وشيء يقول لي إنه هو الآخر يجوس بعينيه في رأسي المائل على الحذاء، وكنت أسمع حركة أمي بالداخل. وددت لو أدخل إليها، غير أني لم أقدر، فالبيت بيت الأستاذ يعقوب، وحتى إن فعلت هل كانت تلقاني مثل الأول؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بدأ في التثاؤب ثانية وهو يُقدم ويُرجِع كف يده أمام فمه، ثم قال وعيناه حمراوان وتدمعان من نقص النوم:

- اعذرني يا جلال، مشوار طويل وجري ورمح وكل اللي نمتهم ساعتين!

لم أعلق.

برهة وقال:

- كنا عند خالك إيزاك.

لم أعلق أيضًا.

- خالك دا مخ بصحيح!

أحسست بأني إن لم أتكلم وأُجارِه فسوف أبدو ثقيل الظل، فقلت:

- تعرف يا أونكل إن عمري ما شفت خالي إيزاك ده أبدًا، ولا حتى سمعت صوته! هيَّه مرة واحدة وكانت في التليفون.

مال على علبة سجائر (كِنتْ) ملقاة على منضدة صغيرة إلى جانبه، أشعل سيجارة وسحب منها نفسين ثم أطفأها متأففًا:

- ياه! دا اللي حط في بقه السيجار واتعود عليه لا عاد يستطعم سيجارة ولا بايب ولا أي حاجة تانية.

ورمقني بنظرة ثعلبية، وهو يحك بظفره نتوءًا صغيرًا أسفل أذنه:

- بتقول عمرك ما شفت خالك، خالك مش بعيد يا حبيبي! كلها أربع ساعات بالطيارة، وإذا كان نفسك تشوفه أنا شهر وراجع حيفا تاني وهتكون معايا الماما، إديني جواز سفرك وأنا أجيب لك التأشيرة وتعالى يا سيدي معانا شوف خالك واشبع منه!

- إنت بتتكلم جد يا أونكل؟ عايزني أروح إسرائيل!

رغم أنه لاحظ التعبير الذي طرأ على وجهي، إلا أنه قال:

- وفيها أيه؟ ما الرئيس بتاعك بجلالة قدره راح لحد هناك، وكبارات البلد عندكم رايحين جايين عليها..

ازداد حنقي، وبدا واضحًا في نبرة صوتي:

- وأنا مالي ومالهم.. إسرائيل! أنا أروح البلد الظالمة دي؟

قال وهو يميل على وسادة الأريكة، يلتقط علبة الثقاب التي انزلقت بين ثناياها:

- إنت خدت الموضوع بحساسية ليه؟ دا مجرد كلام! ينفع جد خده جد، ينفع هزار خده هزار، مينفعش لا ده ولا ده يا سيدي ولا تزعل وحقك عليَّه.

ثم أردف بنبرة أكثر ودًا:

- ياه يا جلال، دا انت وجدك عجينة واحدة! هو برضه اتشنج زيك كده لما اتفتحت سيرة إسرائيل وقلنا له يللا جهز شنطتك وتعالى معانا إحنا مش هنغيب هناك أكتر من أسبوع.

وارتاح بساقيه، مددهما في وجهي:

- دا حتى الماما من غيظها قالت له: خلاص خلاص خليك، بس متقعدش بقى كل شويه تقول إيزاك واحشني! إيزاك واحشني!

وجاست عيناه في عيني:

- طيب انت يا جلال معذور ولسه مستغرب! إنما هو..

هممت بمقاطعته، غير أنه لم يدع لي الفرصة:

- قصدي إنك مستكتر حكاية السفر دي على نفسك وزي ما تكون كده مش مصدقها، لكن هو يستكتر ليه؟ ويتشنج ليه؟ ويزعل من الماما ليه؟ ويقولَّها أوعي مرة تانية تفتحي الموضوع ده معايا! ياريتني أفهم إيه اللي في دماغه بالظبط.

فقلت وأنا أشعر بالفخر بجدي:

- أصل جدي دا حكاية كبيرة، راجل أصيل وصاحب موقف.

- موقف!

قالها ساخرًا.

- طيب يا أونكل بدال حضرتك ما تقول كده على جدي متخلي خالي إيزاك هو اللي ييجي يزوره!

- وهو خالك ممانع، خالك لو كان فاضي كان جه مرة واتنين كل سنة، ما كان بييجي قبل كده، مشغول يا ابني، مشغول لشوشته، مصنع في حيفا، وداخل مع جماعة دروز في شغل وتجارة، دا غير المستوطنة اللي بيبني فيها.

- بيبني مستوطنة؟

- أيوه، وشغال فيها من نار.

- مستوطنة إيه؟ مستوطنة من المستوطنات اللي بيبنوها على أرض الفلسطينيين؟

- والنبي يا حبيبي تسيبنا من الكلام ده ومن السياسة وأرضنا وأرضكم والحاجات بتاعة الجرايد دي!

- وهيَّه المستوطنة لما تنبني في أرض الغير يا أونكل وكده بالعافية وأصحابها الغلابة يتكرشوا ويللا من هنا يا زفت منك له روحوا شوفوا لكم حتة تانية، دا يبقى كلام في السياسة وللا في الحق وشرع ربنا؟ بلاش الإسلام، الدين اليهودي الصح يرضى بكده؟!

- يا ابني يا حبيبي دين إيه وشرع إيه، دا انت مسكين خالص وتفكيرك على قدك! المسألة يا ابن الحلال مش كده خالص عند خالك إيزاك، الحكاية كلها بيزنس في بيزنس وهيكسب له قرشين بعد ما رسي عليه العطا.

- بس يا أونكل..

- بس إيه، دا واحد إسرائيلي ومصلحته ومصلحة بلده في اللي بيعمله، الدور والباقي على العمال اللي شغالين معاه، نصهم عرب، اللي من يافا واللي من حيفا واللي من غزة نفسها وللا أريحا، مش عارفين هُمَّا كمان إنها مستوطنة؟! ومش في أرض الغير وبس دي في أرضهم هُمَّا زي ما حضرتك بتقول؟!

ولم يدعني أجيب، تركني ودخل ثم عاد حاملًا صينية عليها زجاجة من عصير المانجو:

- إشرب إشرب يا حلو!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كنت أعرف أنه دخل في علاقة تجارية مع خالي إيزاك، ولعل هذا هو السبب في كثرة تردده على إسرائيل، فسألته:

- وحضرتك يا أونكل مشارك في حكاية المستوطنة دي؟

- لا. لا. أنا لا بتاع مستوطنات ولا ليَّه حتى مصالح في إسرائيل كلها، أنا بروح فسحة وبس وأشوف بنتي وبالمرة أقضي يومين عند خالك، أنا عندي فكر تاني وشغلي هيكون في مصر وبرضه مع خالك إيزاك وجايز يدخل معانا هارون بيه - يقصد أبو زلومة - وللا حد من الجماعة بتوعنا هنا.

شدني الفضول وبدأت أسأله، فقال:

- يا سيدي عايزين نعمل مصنع لتدوير الزبالة في مصر، دا غير مشاريع تانية يمكن أهمها حتة الأرض اللي اشتراها هارون بيه عند لسان نعمة في شرم الشيخ، ونفسنا أنا وخالك نشاركه فيها.

- كل دا في مصر؟

- أُمَّال! بلد واعد تحدف فيه القرش تلاقي عشرة، دا لِلَّي يفتح مخه!

ثم أردف:

- حكاية تدوير الزبالة آهي يعني، أنا اللي عيني عليها الأرض بتاعة شرم الشيخ، ولو هارون يوافق ويسمع كلامي كنا نبني عليها كازينو قمار، مش كازينو عادي زي اللي هنا وهناك، لا.لا. كازينو عالمي، حاجة كبيرة ومتخطط لها زي كازينوهات مونت كارلو ولاس فيجاس! وتجيله الناس التقيلة من كل حتة.

- بس دا يتكلف عشرات الملايين يا أونكل!

- عشرات أيه! قول ميات! ودا أسهل حاجة في الموضوع، المستثمرين موجودين وجاهزين المهم إن يكون لنا ضهر هناك.

ويبدو أنه ظن أني لا أفهم ما يقصده، فطفق يقول:

- حماية يعني، ناس كبيرة تحط أيديها في أيدك، تجيبلك ترخيص، تتفاهم مع الضرايب والجمارك، تزلل لك عقبة، تحميك ساعة اللزوم، وكل حاجة بحسابها، هيَّه سفريه لمصر نجس فيها النبض ونعرف التقل فين..

لم يسعفني لساني بشيء أرد به عليه فسكت، ودخل هو في حديث آخر، أخذ يحكي عن مدينة حيفا: معمارها، أسواقها، بحرها، مينائها الكبير، ومعالمها السياحية.. نُزُل الكرمل والجامع الشريف وبرج الساعة ومزار مريم العذراء، وأنه هو وأمي زارا أيضًا المحفل العالمي للبهائية وضريح (عبد البهاء)[34] ، واستمعا إلى محاضرة من علماء بهائيين، علماء من بلاد العم سام وإيران وفرنسا وإسرائيل.

وأنا أجاريه بملل.

- آه.. آه..

- والله الناس دي بتقول كلام كويس ويدخل العقل.

- مين دول؟

- البهائيين!

- آه.

- وبلد إيه يا جلال! شوارع زي الفل وبيوت بالأرميد وأحياء سكنية ولا أوربا!

وبدا التقزز على وجهه:

- القرف كله جاي من الأحياء العربية! وأساميهم يا باي عجيبه! ساحة الحناطير ووادي النسناس ومش عارف إيه وإيه.. حاجة تسد النفس. فقر وزبالة في الشوارع وحتت نكد! وآه لو شفت الأحياء اللي ساكن فيها اليهود! نضافة وجمال ومحلات شيك وكاڤيتريات تفتح النفس وناس متحضرة عارفة اللي لها واللي عليها.

استفزني كلامه، فرددت عليه بغضب:

- الناس المقرفين اللي حضرتك بتتكلم عنهم دول يا أستاذ يعقوب هما أصحاب البلد! وأجدادهم هما اللي بنوا حيفا، ويبقى ظلمناهم لو حاسبناهم على الحال اللي هُمَّا فيه، دول خاضعين للاحتلال.

- خاضعين لإيه؟ للاحتلال! جبت الكلام ده منين!

- من اللي جرى! من الجغرافيا والتاريخ واللي حصل يا أستاذ!

بسط ذراعه نحوي مقاطعًا، غير أني لم أدعه يقطع عليّ الطريق:

- والناس اللي حضرتك بتقول عنهم متحضرين دا بس من حيث الشكل اللي بيبان قدامك وقدام غيرك.. بيلبسوا كويس.. بيتكلموا كويس.. ساكنين في أماكن راقية ونضيفة.. كل دا صح يا سيد يعقوب لكن لو دققت كويس في أصلهم وفصلهم هتلاقيهم في الأول والآخر صهاينة أغراب اللي من رومانيا واللي من المجر واللي من بولندا واللي من اليمن وللا المغرب، ناس سابت بلادها وبالعافية كده قعدت وسطينا ونهبت بيوتنا وشوارعنا وحالنا ومالنا وكل اللي قدروا عليه!

وهو يحدق في..

- سمعت عمرك يا يعقوب أفندي عن ناس بتسرق دولة بحالها! مش ساعة وللا عربية وللا حتى بيت! دولة! دولة بحالها يا يعقوب أفندي بأرضها وناسها وبحرها وسماها وصيفها وشتاها!

فزمجر فيَّ بوجه محتقن:

- اسمع يا ولد متجرنيش للكلام في السياسة، مش عن جهل بيها إنما إن حبيت أتكلم فيها أتكلم مع واحد في مستوايا! واحد ناضج، متزن، مش لسه عيل خبرته قليلة!

وبنبرة أكثر علوًا وغضبًا:

- وبعدين إيه حكاية يعقوب أفندي دي؟ مش تتكلم معايا بلياقة وأدب! اللي قاعد قدامك ده بلاش أفكرك وأقولك إنه في مقام خالك! على الأقل راجل له تاريخ وإذا كنت متعرفشي إعرف بقى دلوقتي إننا كنا بهوات وباشوات في مصر وكلمة أفندي دي مكنتش بتتقال لنا! كانت بتتقال للشغالين بتوعنا!

أبديت له أسفي، غير أني استمررت في مناوشته:

- يعني يا أونكل مصر بقى كان لها فضل عليكم، ادتكم الألقاب الكبيرة وفتحت لكم صدرها وأكيد اتمرغتم في خيرها.

- تمام تمام، ومين ينكر ده!

- أصل فيه ناس تانية بتنكر الكلام ده! أونكل أبو زلومة مثلًا عمري ما سمعته بيقول كلمة كويسة عن مصر!

- أنا لا ليَّه دخل بكلام أبو زلومة ولا أبو خرطوم، وجاحد اللي ينكر فضل مصر وخيرها ومش علينا بس! علينا وعلى غيرنا. هيَه.. هيَه.. (قالها ممطوطة ومصحوبة بتنهيدة طويلة).. أرمن وشوام وطلاينة وجريج وملل ملهاش حصر،

وإيه يا ابني كلهم جُمْ مصر يا مولاي كما خلقتني وبقوا أصحاب أطيان وشركات وعمارات! مصر دي حكاية!

وأردف وهو يرفع إصبع السبابة قليلًا تجاهي:

- بس خلي بالك احنا كمان كان لنا فضل عليها! كان منا الكتاب والفنانين.. يعقوب صنوع وداود حسني وتوجو مزراحي وغيره وغيره.

وتأملني:

- تلاقيك مسمعتش عن الأسامي دي؟

فهززت رأسي بالإيجاب..

- معذور.. أصل الناس دي عاشت في زمن غير زمنك، اليهود يا ابني عاشوا في مصر من زمن طويل! اللي جُمْ هربانين من أسبانيا بعد الأندلس ما وقعت، واللي هاجروا من أوربا، واللي من تركيا واللي.. واللي.. ومتنساش كمان إننا عشنا في مصر أيام النبي چوزيف (يقصد سيدنا يوسف)..

وحدق فيَّ:

- طبعًا عارفه؟

فأومات برأسي مؤكدًا..

- أيوه كده إصحالي! وأيام النبي موشيه (يقصد سيدنا موسى)، يعني من أيام الفراعنة ومصر طول عمرها بلدنا زي ما هي بلدكم.

وتبسم وهو يقترب مني بوجهه:

- طب وليلى مراد، تعرفها ولا متعرفهاش؟

ولم ينتظر مني إجابة أردف قائلًا:

- آهي دي يهودية أبًا عن جد، هاتلي بقى واحد في مصر كلها مبيحبش غُنا ليلى مراد ولا فنها!

- بس دي أسلمت يا أونكل؟

- أسلمت..

- أيوه أسلمت وصلت وصامت وغنت لسيدنا محمد كمان، مسمعتهاش يا أونكل وهيَّه بتغني وتقول: "يا رايحين للنبي الغالي هنيالكم وعقبالي.."

لم يجب، اتجه بوجهه كله صوب الطرقة المؤدية إلى داخل الشقة، ربما خيل إليه أن أمي قادمة..

ثم عاد إليَّ:

- وخد عندك كمان عيلة قطاوي، مين ينكر فضلها على مصر، دا يوسف باشا قطاوي استصلح لوحده اتناشر ألف فدان وعمل مصنع تكرير السكر بتاع كوم امبو وكان وزير وعضو في البرلمان، ولا عيلة سوارس اللي ياما استصلحوا أراضي وعملوا بنوك وأول ناس عملت خط مواصلات عامة في مصر، دا حتى الحكومة كرمتهم وسمت ميدان مهم ومشهور في قلب القاهرة باسمهم، ميدان سوارس! اللي اتغير اسمه بعد كده وبقى ميدان مصطفي كامل..

واسترخي بعنقه وظهره كاملين على مسند الأريكة منشغلًا بربط عقدة حزام (الروب دي شامبر)، ثم بإخراج سيجار كوبي ضخم من علبة مذهبة إلى جانبه، أشعله منفثًا دخانه الحار في وجهي:

- ولا عيلة منشه.. ودويك ونادلر وموصيرى وهراري وسموحه ومزراحي.. ولا.. ولا.. كل دول ياما عملوا لمصر، ولما ترجع بلدك يا حبيبي يبقى بص على أسامي أصحاب المحلات اللي في الصاغة ولا الموسكي حتلاقي مصطفى وحنا وفؤاد ونصيف، مش همَّه دول أصحابها الحقيقيين! أصحابها كانوا يهود هجوا بعد ما باعوا حالهم ومالهم وشقاهم للناس دي بتراب الفلوس.

حاولت أن أوقف الحديث أو أغير مجراه، ولا فائدة..

- وفي اسكندرية أسسنا سموحة وتوريل، وكمان المعادي في القاهرة، والمحلات شملا وشيكوريل وعمر أفندي وداود عدس وسيمون أرزت وجاتينيو والصالون الأخضر وابن صهيون.

- ابن صهيون؟

- قصدي بنزايون.

- معاك حق يا أونكل، بس اللي عملوا كل ده مش كانوا برضه مصريين زي ما هم يهود!

- مصريين، يا سلام!

قالها مستاءً مستثارًا:

- أمَّال لما همَّه مصريين قعدت الحكومة تضايقهم ليه! الحكومة مش الناس، الناس في مصر طيبين لا بيخونوا عشرة ولا يعرفوا أسيَّه أو يدوسوا على واحد مكروب. الحكومة منها لله هي اللي فضلت تضيق عليهم لحد ما هجوا من البلد، اللي ما حد طيب خاطرهم ولا طمنهم على أرزاقهم أو قال لهم انتم في الأول والآخر مصريين واللي هيغلط منكم بس هو اللي هنحاسبه، دا كان اليهودي من دول صغير ولا كبير اللي يقول أنا ماشي يقولوا له الباب يفوت جمل وبركة اللي جت منك! ويبقى بيجري يمين وشمال علشان يبيع بيته وعفشه ومحله وفلان وعلان اللي معندهمش ضمير يتلفوا حواليه زي الجزارين الملمومين حوالين البهيمة اللي على وش فطيس ويا بربع التمن يا ميمدوش عليها السكين!

وبنبرة أحدَّ:

- وبعدين قولي يا سي جلال، هو انتوا بتصنفوا الناس على هواكم! لما نعمل مشاريع كبيرة تعم بالخير على البلد تقولوا مصريين! ولما نكمش ونقفل على نفسنا ونتفرغ لمصالحنا تقولوا آه من ولاد الأيه دول! يهود! يهود! ولما تيجي سيرة إسرائيل تقولوا علينا صهاينة وعايزين الحرق! يعني يا أولاد الحلال الواحد منا بيتبص له على أنه معندوش هوية، هويته على قد فعله وفعله على حسب هواكم ومصالحكم..

كنا ولا محالة مقبلين على طريق مسدود، فالتزمت الصمت وخفت حماسته هو الآخر وشيئًا فشيئًا انقطع الحديث.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

احترت بعدها في حالي مع هذا الرجل..

فطالما كنت أتحاشى لقاءه، وإذا جاء في بالي كنت أدفعه متقززًا كما لو كنت أدفع أحد القوارض بطرف حذائي، فلم يكن يجيئني في وضع يريحني أبدًا، إما وهو يداعب أمي مداعبات يفور لها الدم، أو وهو يتجرأ عليها بما هو أسوأ، فيقشعر بدني وآكل في نفسي كما لو أن الأمر يحدث بالفعل أمامي ولشيء يحرمه الله..

وإن جالسته مرغمًا أجده عاقلًا متزنًا فيتبدل حالي، وأجد نفسي أحيانًا منصاعًا لحديثه. تعجب عيناي بهذا العجوز المتصابي، بهيئته وهندامه، ويبدو أمامي أعلى قدرًا ممن حوله، وربما صدقه عقلي أما قلبي فلم يتوقف يومًا عن رفضه.

وعندما انفردنا ببعضنا اليوم، انطلقت المكنونات من محابسها، اختلط الكلام ببعضه البعض، اختلط في قلبي دون أن أقصد أو أنتبه، ولم أدرك إلا بعدها أن

ذاتي.. ذاتي التي بداخل الداخل.. التي تحب وتكره وتميل وتحنق وتمقت، كانت تشاركني هي الأخرى وتحرك الحديث، جعلتني أخاله فعل الذي فعله هؤلاء الصهاينة الغرباء بأرض فلسطين، هم سرقوا واستباحوا وهو الآخر سلب واستباح أمي، عقلي ولساني كانا يقولان له أنتم فعلتم بنا كذا وكذا، وقلبي يقصد أنه هو الآخر فعل!

فما بالي وهذا الرجل؟

وهل لو كان زوج أمي رجلًا غيره، رجل غير يهودي، هل كنت أجافيه هكذا؟

هل زواج أمي بهذا اليهودي هو الذي آلمني؟ أم أن زواجها نفسه هو أصل الداء؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وأتت أمي عابسة لتزيدني كآبة..

لم أشأ إهدار الوقت أنا الآخر، قلت لها على الفور عما انتويته، قلته ليس على نحو من يطلب الإذن والموافقة، وإنما الذي يحيطها بخبر لا أكثر، فتأملتني مستاءة وتقول وهي تمد يدها إلى علبة السجائر:

- وكان مالها راشيل؟!

لم أُجب..

- بقول كان مالها يا فالح؟ بنت شاطرة وحلوة زي القمر والقرش بيجري في أيديها.

وأدارت عينيها نحو زوجها:

- دي حاربت الدنيا كلها علشان خاطره يا يعقوب!

ثم تتوجه بالكلام إليَّ:

- مش كنت تشاورني الأول وأنا أقول لك الصح إيه بدال ما تكسر بخاطر البنت هي وأمها.

أجبت بصوت خافت وأنا أختلس النظر للأستاذ يعقوب:

- يا ماما دي حاجات مفيش فيها مشاورة، ومش وقته الكلام ده إنتي عارفه كل حاجه.

- عارفة؟ عارفة إيه! قصدك على الكلام الخايب اللي سمعته وخلّاك تسيب البنت في ليلة دخلتها؟

- ماما! إيه اللي إنتي بتقوليه ده وإيه اللي جرالك، هو الشرف بيتقال عليه كلام خايب؟!

- شرف..

وتأزم الموقف فتدخل الأستاذ يعقوب ملطفًا، وهي لاتزال تقول:

- شرف إيه يا جاهل ياللي لسه فاكر نفسك عايش في حواري الضاهر! وبعدين تعالى هنا قولي هو احنا فينا حيل يا موكوس انت لخديجة وأهل خديجة، دي بنت عيانه وعدمانه ولا تنفع لجواز وأبوها راجل شوارعي وميعرفشي غير السكينة والساطور.

ومكثت تقلب كفيها وتتكلم وتغمغم:

- راشيل! الحلوة الكسيبة يسيبها بسلامته! وقال إيه؟ علشان... النهاية وأمرنا لله! دا إيه البخت ده يا ناس! أتجوز أنا أبوه الأفندي اللي جاي من الفلاحين وأضيع شبابي بعدها، سابني حضرته وآدي وش الضيف، وقال إيه أعرف بعد كده إنه اتجوز واحدة من بلدهم! دي ناس عندها ضمير؟ والبيه التاني عايز يعمل اللي عمله أبوه بالظبط، ويسيب راشيل بنت الناس ويروح يناسب ناس حثالة وعايشين في الدنيا كمالة عدد.

فصحت فيها:

- بس ولا كلمة.. وإلا بابا!

- أبوك وللا أخوك آهو راح مطرح ما راح!

تبدلت..

لم تعد الأم التي عرفتها صغيرًا، ولا هي أمي التي أتت إلى فرنسا فقيرة هزيلة تبحث لنا عن مأوى ولا رجاء تبتغيه من الدنيا إلا أن أكون شيئًا. منذ أن تزوجت بهذا العجوز (الفلاتي)، انطلقت كجواد جامح تنهل من الدنيا كالناقة العطشى.. مرة في منتجع (ناتانيا) ومرة في (كابري) أو (كَانْ)، ومرة يقولون إنهم أخرجوها قسرًا هي وزوجها من ملهي (فولي بيرچيه)؛ لأنها كانت ثملى ولا تكف عن إحداث شغب وضوضاء..

تجلس على الأريكة التي أمامي وفي إصبعها خاتم من الماس لا يقل وزنه عن ثلاثة قراريط، ونجمة يعقوب من الذهب الأبيض تتدلى على صدرها، وتكلمني

بإصبع السبابة وتقطيبة الوجه وسحابات الدخان تخرج من بين شفتيها..

وجهها وصدرها اللذان ترهلا شدتهما (بالسليكون) والعقاقير التي تُحقن تحت الجلد فيشد بعضه بعضًا، وشعرها لم تعد تقبل إلا بمحل (چاك رواسيه) كي تصففه، وألا يستحي أبو قردان هذا زوجها؟ يميل على وجنتها ويقبلها أمامي! هكذا يا ابن الكلب (عيني عينك!)..

لم آبه للاساءة التي وجهتها للشيخ منجي، فكل أهلها يقولون عنه ذلك! ما آلمني هو ما قالته عن أبي.

وهببت خارجًا لا ألقيت تحية أو حتى نظرت إلى وجهها، وقبل أن يغلق المصعد عليَّ بابه أسرعت خلفي هي وزوجها، غير أنه أخذني للأسفل وحال بيننا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

26

وتزوجت من خديجة..

جدي هو الوحيد الذي أتى معي لخطبتها، رفضوا كلهم الحضور بل حتى خالي شمعون كان يتهرب مدعيًا المرض، ولما عاتبته قال لي خجلًا: اعذرني يا جلال، فأنا في وضع حرج! أنت تعرف الماما (يقصد جدتي)..

ثم لبث برهة صامتًا، وقال: ما الذي أفعله يا ابني، لقد فقدت عقلها! تصور أنها تهددني برد الأربعة آلاف فرنك التي استدنتها منها إذا أنا ذهبت معك إلى بيت الشيخ منجي! لقد أعطتني إياهم عندما ألح عليَّ ابني الصغير شاؤول لشراء دراجة له في عيد الفصح..

وبنبرة دهشة:

- الكلام ده من ييجي تسع تشهر ولا أكتر، وأنا قلت لنفسي إنها سامحتني فيهم ولا نسيت.. ولا.. ولا.. يا خبر أبيض على الماما، دا إيه شغل الافترا بتاعها ده!

كان خالي محقًا، ولولا هذا الحصار الاقتصادي الذي ضُربَ عليه، لأتى معنا عن طيب خاطر بدلًا من أن ندخل أنا وجدي وحدنا كالأيتام.

وياليت الأمر وقف عند هذا الحد، بل أقامت جدتي مناحة في البيت، تكلم نفسها تارة وتعارك جدي بالساعات لعلها تثنيه عن الذهاب معي، وتتهجم عليَّ أحيانا بأي شيء في يدها، العصا التي تتوكأ عليها، منشة الذباب، أو حتى (الكبشة) التي يغرفون بها الطعام. ومالت مرة على مطفأة السجائر كي تقذفني بها، فاختل توازنها وانكفأت على الأرض هي وعصاها، ولولا ستر الله لالتوت قدمها أو انشرخ حوضها.

قلت لها وأنا أعينها على النهوض: أنتِ في سن كبيرة الآن يا جدتي ولا تليق بكِ هذه الأفعال! أنا رجل ولم أعد طفلًا! صاحب شركة وعندي موظفون وعمال ولست جلالًا الذي كان يلعب الكرة في الشارع. ما هذا يا جدتي؟ أليست عندك وسيلة أخرى للتفاهم غير القَرْص في الأذن والصياح واللكمات وقذف الأشياء في وجهي؟

فتلهث وتقول:

- إخرس يا قليل الأدب، ياللي مرمغت راسنا في التراب! أقول إيه لصحباتي (سمكة) و(ريكة) و(حنونة)! أقول لهم إننا هنَّاسب منجي العياري جزار الهم

والغم اللي ذمته أوسع من البحر المالح، سبت راشيل قلنا زي بعضه، إنما تتجوز السحلية دي يا عديم النظر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أمري إلى الله..

ذهبنا أنا وجدي كل منا يتوكأ على الآخر فالتقانا الشيخ منجي مرحبًا، وأدخلنا إلى غرفة الجلوس.

كانت المرة الأولى التي يدخل فيها جدي شقه الشيخ، وجاءت جلسته قبالة صورة من صور زمان معلقة على الجدار لرجل يضع على رأسه طربوشًا قصيرًا ملفوفًا بشال، ويرتدي شيئًا مزمومًا على جسده ياقته لها دفتان كبيرتان كأذني الفيل، شيء محير لا هو بالجلباب الذي نلبسه في بلادنا أو (البُرْنُس) الذي يرتديه التوانسة والمغاربة، والرجل نفسه مدكوك وذو عضل وبنيان متين كأنما كان حمالًا أو عتالًا في شبابه، أو ربما كان رياضيًا وله باع في مجال المصارعة وكمال الأجسام. الملفت في الصورة هو ذلك التجهم الشديد البادي على تقاطيع وجهه، وعيناه الصارمتان والمزمومتان قليلًا كأنما يخطط للانقضاض على أحد.

لم يكن جدي مرتاحًا لهذه الصورة..

سألني: من هذا الإنسان؟

قلت: إنه والد الشيخ منجي، كان جزارًا مشهورًا بمنطقة (جربه) مسقط رأس الشيخ.

- يا ستار يا رب فيه ناس في الدنيا بالسحنة دي، وبص بص كده على صورته دا زي ما يكون بيبحلق فيَّه وعايز يكرشني من البيت!

صدق جدي، فسبق أن دخلت هذه الغرفة مرارًا وكلما جلست في الموضع الذي يجلس فيه جدي الآن، أحسست بأن صاحب هذه الصورة يرمقني بضجر وكأنه يقول: من أنت؟ وما الذي تفعله عندنا يا ابن الكلب؟

وكانت هناك عصا غليظة معلقة (بشنكل) إلى جوار الصورة، لم تكن عصًا كالعصي التي يتوكأ عليها الناس أو يهشون بها شيئًا، وإنما من النوع الذي يُستخدم في العراك وإحداث الإصابات..

قال جدي وهو يتأملها بإعجاب: عصا الشيخ منجي؟

قلت له: لا.. عصا الشيخ منجي حجمها أصغر قليلًا ويتركها دائما في المحل، هذه عصا والده رحمة الله عليه ولها قدر كبير عند الشيخ، فهي من التراث ولا يستخدمها إلا في الملمات والمسائل الكبيرة.

فهز جدي رأسه متمتمًا:

- اللهم احفظنا يا رب..

وسمعنا نحنحة الشيخ وكأنه يقترب فاعتدل جدي، ودخل هو ووراءه زوجته الست زهيرة بوصاف.

سلمت على جدي بفتور، وسألتني عن جدتي.

قلت لها: إنها مريضة، أكلت شيئًا حامضًا فأصيبت بالإسهال.

برهة وأعادت السؤال بنبرة متشككة، لكن عن أمي هذه المرة: هل هي بخير أم عندها إسهال هي الأخرى؟!

أعفاني الشيخ من الرد عليها، حسم هو الأمر بلفتة عين تلاها عدة سعلات تحذيرية، فطأطأت رأسها ووضعت يديها في حجرها ولم تسألني بعدها عن أي أحد من عائلتنا أو حتى فتحت فمها بكلمة..

وأقبلت خديجة وقرأنا الفاتحة، أعقبها الشيخ بعدة أدعية من تلك التي تقال في هذه المناسبة.

نكس جدي رأسه أثناء قراءة الفاتحة، لكن شفتيه كانتا تتمتمان بشيء ربما أدعية أو صلوات تخصه، ولم ترفع الست زهيرة بوصاف عينها من عليه وهو على هذا الحال إلا عندما زغدها الشيخ بكوعه في جنبها.

وتكلم جدي عن الشبكة، فاقترح الشيخ أن نذهب أنا وخديجة معا إلى صائغ جزائري اسمه (بو زرزور)، فتجار الذهب (الفرنسيس)، وكما قال، يبالغون في الأسعار وأغلب مشغولاتهم إما فصوص ثمينة أو من الذهب عيار (18)، أما بو زرزور فعنده أشكال عربية ومن عيار (21) و(24) المحترمين.

وفاجأني جدي بأن أخرج مظروفًا من جيبه به حزمة أوراق مالية من فئة الخمسين فرنكًا وقدمه لخديجة، غير أنها تمنعت ونظرت إلى أبيها فشجعها حتى مدت يدها وأخذت المظروف.

جرت الأمور كما لو كنا في مصر أو تونس، فالعرب أمرهم واحد في كل مكان..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أسبوع وأتممنا الخطبة في حفل بسيط، وبعد شهر عقدنا الزواج وأقمنا ليلة الفرح على الطريقة التونسية.

أغانٍ من الفولكلور التونسي القديم لإرضاء ضيوف الشيخ من كبار السن، وفتياتٍ يقلدن الفنانة (عُلَيَّا التونسية)، وشاب من عائلة الشيخ يشبه الفنان التونسي (لطفي بوشناق) شكلًا وصوتا أخذ يردد أغانيه والتصفيق يدوي، وأهازيج ودق على الدفوف وكأننا في تونس الخضراء وليس باريس.

وكان الأستاذ فؤاد الرجل المصري الذي يعمل معنا بالشركة حاضرًا، ويبدو أن له في الطرب إذ أمسك بالميكروفون وغنى لنا أغنية (دقوا المزاهر) لفريد الأطرش، وأحب أن يكمل بأغنية أخرى لأم كلثوم إلا أنهم ثاروا عليه وخطفوا الميكروفون من يده، وقال أحدهم: إن صوته رديء وله فحيح كصوت البطة العجوز!

أما أبو الشوارب، فكان مشغولًا بمتابعة الفتيات بنظراته والشيخ يرمقه من فوق كرسيه، دعوناه للرقص فرحب وحزمناه بأحد الشيلان فأخذ يتمايل ويرقص رقصًا بلديًا متقنًا على موسيقى أغنية (إنت عمري) لأم كلثوم. والشيخ يتأمله ويميل على أذني ويقول: صديقك هذا شخص غير محترم! ألا يستحي مما يفعل! والله الذي لا إله إلا هو لو لم يكن في بيتي والفرح فرح ابنتي، لقمت وصفعته على الخدين! ثم نادى على زوجته وبناته وأمرهن بالابتعاد عنه..

ولم يكف جدي عن الضحك على ما يجري حوله، طلب منهم أن يغنوا له أغنية (يا رايحين الغورية هاتوا لحبيبي هدية) للفنان محمد قنديل، فقالوا إنهم لم يسمعوا بها من قبل، فسكت وبعد برهة قال: وأغنية (ياحاسدين الناس مالكم ومال الناس) للمطرب الجميل محمد عبد المطلب، هل تعرفونها؟ فغنوا له مقطعين منها وتحججوا بأنهم لا يعرفون باقيها.

وتحدى خالي شمعون جدتي، أتى هو وأولاده وزوجته التي ألحوا عليها كي ترقص لهم رقصًا بلديًا، فهي مصرية ومصر منبت هذا الفن ففعلت بعد استئذان جدي وخالي، لكنها لم تؤده أبدًا بمهارة أبي الشوارب..

وكان الشيخ يولينا عناية خاصة، وكلما مر أمام جدي أو خالي ربت على كتفيهما ممتنًا.

وفي آخر الحفل، ذهبنا أنا وخديجة إلى شقتنا الجديدة بشارع (ديز إيكول) بالحي اللاتيني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

27

كان جدي حكيمًا عندما قال: إن الذي بيني وبين خديجة شيء كبير، شيء جميل، لكنه ليس حبًا!

وإلا لماذا كان طيف نادية يلح عليَّ؟

فكم من مرة كنت أرى طيفها، وأنا أتطلع من وراء الزجاج المغلق لنافذة غرفة نومنا أنا وخديجة بشارع (ديز إيكول).. حبات مطر ثقيلة تنقر عليه وتغبش سطحه الأبيض، فتبدو الأشياء أمامي غير واضحة أو في شكلها المعتاد.. المركبات التي تسير محتاطة وعلى مهل.. امرأتان تتعثران في خطاهما، ثم تنحرفان يمينًا معتصمتين بمدخل إحدى البنايات.. مصابيح الشارع التي خفتت أنوارها قليلًا، وقطرات ماء تتلألأ على أعمدتها كلما غمرتها أضواء المركبات.. وصبيان يركضان غير عابئين بماء أو مطر..

الدنيا كلها من الريح والبلل والغبشة التي في السماء، تبدو غريبة وأشياؤها تحت الحصار..

وتأتي هي..

الأنف والحاجب ونمش بصفحة العنق.. وحقيبة المدرسة في يدها.. وبأنفاسها التي كانت تغمرني كلما أحطتها بذراعيَّ.. ووقع أقدامها وهي تصعد مسرعة على دَّرْجِ عمارتنا بالظاهر خوفًا من أن يرانا أحد.. ويتغشاني صوتها خافتًا، شجيًا، أملس.. تهمس ثم تتوقف.. تلتقط أنفاسها ثم تعاود الهمس.. أميل عليها فتدفعني عنها بدلال، وأعيش زمنًا سبق أن عشناه، شاردًا قلبي وعيناى تهيمان..

إلا مرة..

مرة واحدة، كان الزمن فيها من الحاضر وليس قديم..

كنت أقف وقتها في نفس موضعي خلف النافذة، والماء والمطر على حالهما وكذلك الغمام، وكأنما هي تقف على مفرق الشارع الذي أطل عليه، وطفل إلى جوارها ملامحه لا تكاد تبين، تود العبور ولا تقدر، تتقدم خطوة ثم تحجم.

قلت لها: على رِسْلك! أين المظلة؟ أليس معكِ مظلة؟

حدقت فيَّ وتساؤل في عينيها كأنما لم تعرفني بعد، وتحاول التذكر!

قلت: أنا جلال..

فندت عنها آهة، وقالت: من؟ جلال!

وملت أنا بعيني إلى الطفل الذي معها، وسألتها عنه.

قالت: ولدي سامح.

فادعيت الدهشة، وقلت: ابنك؟

ادعيت..

فقد كنت أعرف، سبق أن أبلغني حسن في آخر خطاب أنها تزوجت، غير أني أحببت أن أبدو أمامها وكأني لا أعرف..

وطفقت أنظر إليها بعينين لائمتين ولا أنطق بكلام، ففهمت أني أعاتب وخفضت عينيها خجلة، فهكذا رأيت نفسي ورأيتها من أعلى! من وراء زجاج النافذة!

قلت: هاتي يدك، دعيني أعبر بكِ الطريق.

وأتردد لحظة ثم أقول: وسامح أيضًا، سوف نأخذه معنا.

أشاحت بيدها، وقالت لتنهي الحديث: لا تقلق يا أستاذ، زوجي سوف يفعل.

أثارتني كلمة (أستاذ) والتفت إلى حيث ذهبت عيناها، فرأيت زوجها هذا الذي تتكلم عنه، واقفًا على مقربة منا ويرمقنا بصمت..

والذي أثار دهشتي، أنه لم يكن على الهيئة التي طالما كان يأتيني بها، فلا وجهه هو وجه الأستاذ يعقوب أيام الشباب، ولا هيكله هو الهيكل المتين الذي طالما كنت أراه..

كان شيئًا مختلفًا..

وليس مهندمًا أو حتى رباط عنقه معقود بشكل صحيح، وبدنه ضامر ضمورًا ملفتًا كأنما يعاني من مرض عضال!

وأشعر بخديجة ورائي، تضع راحة يدها فوق كتفي وتقول: تعال.. فالقناة الرابعة تعرض فيلمًا مضحكًا (للوي دي ڤيني)[35] ، أسرع، فقد أعددت لنا قدحين من القهوة وأخشى أن تبرد.

أقول: دعيني لحظة..

وأهيم في دنيا قديمة، لم يعد لي فيها رجاء..

ويمر يوم أو بعض يوم، وأكون مسترخيًا على مقعد أو ممددًا على الفراش.

تسألني خديجة: فيمَ الشرود؟

لا أقول الحق، أقول: تذكرت أبي..

وأنهض، فتقول: إلى أين؟

أقول: سأصلي ركعتين طالبًا له الرحمة.

تقول: وأنا الأخرى.

كانت طيبة القلب شفيفة الروح، لا تعرف من الدنيا إلا خيرها.

وأركع لله ساجدًا، أدعوه أن ينقذني من شر نفسي، وأكون لها كلي وليس بعضي..

ويومًا بعد يوم أحنو عليها، وكأن شيئًا يحدث بيننا، ليس هو الحب الذي يهدر ويطيح كموج البحر، أو يصفو ويرق حتى يبين القاع..

شيئا أراه يكبر، وليس الحب الذي يولد كبيرًا ولا نعرف بعدها منتهاه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكنا نخرج..

نرتاد حديقة (اللوكسمبورج) القريبة من شارعنا ونجلس بالساعات على مقاعدها الخشبية، نثرثر ونتابع خدامها وهم يرعون شجرها وزهورها كأنهم ملائكة رحمة يطببون بشرًا، وليس زهرًا ونباتًا يتمايل في الهواء.

فذات مرة استرعى بصرنا بستاني فرنسي عجوز يرتكز على ركبتيه أمام شجرة من شجر (البانسيه)، ويبدو أن هذه الارتكازة كانت تؤلمه، إذ كان كل برهة وأخرى يعتدل جالسًا ويمد ساقيه ويثنيها حتى تستريحا.

حثنا الفضول على الاقتراب منه فوجدناه يرعى زهرة (بانسيه) صغيرة التوت ساقها، يلف الساق برباط لاصق بعد أن غمرها بقطرات من زجاجة دواء ملقاة إلى جانبه، ثم يضمها برفق إلى الساق الكبيرة، ساق الشجرة ذاتها، وكانت ملقاة إلى جواره عدسة مكبرة، أظن أنه كان يستخدمها للتعرف على قدر الأذى الذي لحق بالساق التي يعالجها.

قلت له: إنها مجرد زهرة..

رمقني مستغربًا، ثم قال: هل لو أصيب أحد من أهلك في حادث تتركه ليموت! أم تذهب به للمستشفى وتعالجه؟

ففهمت..

وهو ما يزال يقول: هي كائن يتنفس مثلي ومثلك ويشعر ويتألم! شد ساقها ولد مشاكس وولى هاربًا، هل أتركها في محنتها خاصة وأني أعرفها، فأنا أعمل في هذه الحديقة من أربعين عامًا وكل هذا الزرع (وأشار حوله) أعرفه ويعرفني..

وأكمل بصوت خافت:

- هذه الزهرة التي تستهين بها من يعرف قدرها عند الله، فقد تغفر لي ذنبًا أكون قد ارتكبته..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ومن شارعنا إلى شارع سان ميشيل، وشارع في آخر حتى نهر (السين) فنعبر (البون نيف)[36] إلى (سنتر بومبيدو)[37] ، لنطالع الكتب أو نشاهد الأفلام التسجيلية عن أي شيء يخص الطبيعة أو الإنسان. أو نأخذ المترو متجهين إلى متحف اللوفر، نمتع أبصارنا بأعمال رينوار ورمبرانت وسيزان وبلوحة (الچيوكاندا) التي يولونها رعاية خاصة ويحيطونها بسياج يمنع الزائرين من الاقتراب، بل ومن شدة الزحام حولها نظموا المشاهدة بحيث لا يقف أي شخص أمامها أكثر من ثلاث دقائق.

ننتقل بعدها إلى الفنين الإغريقي والروماني فنلقى أمامنا تماثيل تكاد تنطق، وعندما نفرغ نذهب إلى البهو المخصص للفن الفرعوني فيأخذ خديجة الانبهار وأنا الزهو، ويسمو بنا هذا الفن العملاق.. كان الفراعنة ملوكًا بحق، وسوف نظل نتمسح بأعتابهم ما حيينا، وكلما جار علينا الزمن نقول لمن يتباهون علينا: ولكن لنا مزية عليكم، يستغربون ويقولون: ما هي؟! نقول هل أنتم أحفاد الفراعنة مثلنا؟

وتعلمنا أنا وخديجة، كيف نشاهد.. وكيف نتذوق..

ففي المرة الأولى التي ذهبنا فيها إلى اللوفر كنا نمر مرور الكرام، نظرة هنا ونظرة هناك ونكتفي بجمال قطعة الفن من انطباعنا الأول ومرور أعيننا السريع، ونعجب من هؤلاء الذين يقفون طويلًا أمامها ويتقدمون ويتأخرون أو يخطون خطوة لليمين أو الشمال ليروها من زوايا متعددة، ومنهم من كان يلحظ شيئًا فيهمس لرفيقه؛ فيدقق النظر هو الآخر ويهز رأسه مؤكدًا أو يجادله بصوت خفيض.

قلنا: لماذا لا نفعل مثلهم؟

وتعددت زياراتنا خاصة أيام الآحاد، وأخذنا نسأل مرشدي المتحف، فيقولون لنا، انظرا إلى هذه اللوحة وكيف تفنن صاحبها في استخدام الألوان. اللون الرمادي هنا جاء في موضعه ويُقصدّ به كذا ولو كانت درجته أخف قليلًا لتغير المعنى، أما هذا اللون الفاتح فيعني كذا، ويأخذوننا إلى لوحة أخرى للفنان ذاته ليرونا كيف طور استخدامه للألوان أو تقاطيع الوجه والمرحلة التي لجأ فيها إلى الرمز، ويوضحون لنا برحابة صدر الفروق بين رمبرانت ورينوار، أو بين أعمال ڤان جوخ وجوجان. والشيء ذاته في أعمال النحت، ومَنْ من المثالين الكبار يبدع في تشكيل تقاطيع الوجه، ومن في (البروفيل)، أو يركز على كمال الجسد وتناسب الأبعاد..

حتى بدأنا نفهم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وذات مساء ارتديت حُلَّة سوداء وعليها (البابيون)، وكانت خديجة بفستان سهرة ذي أكمام وعلى رأسها إيشارب من الحرير بلون الفستان، وركبنا (البي إم دپليو) متجهين إلى الأوبرا.

أول ما نزلنا من السيارة بدت لنا شامخة وقورة، وكأنما هي التي ترمقنا بعينيها ولسنا نحن اللذين نتأمل معمارها القديم. ترمقنا من علٍ، ترمقنا وترمق غيرنا منذ زمن بعيد، فما نحن إلا لحظة تمر في عمرها الطويل. فكم من فنان ملهم وطئت أقدامه عتبة بابها الكبير، وصدحت موسيقاه بين هذه الجدران.. ڤردى وشتراوس وهاندل وباخ... وعلى درجها العريض هذا صعد ملوك فرنسا الكبار يتبخترون بثياب تفتن الألباب، وكرادلة عظام أمثال ريشيلييه ومازاران...

كانت ليلتنا مخصصة لأوبرا (كارمن) للفنان الفرنسي (چورچ بيزيه) الذي يعشقونه هنا، فاجتزنا الباب أنا وخديجة بعد أن سلمنا تذكرتينا وسلمانا هم بدورهم برنامج الأوبرا لهذا العام.

وفي قاعتها الفسيحة وجدنا بعضًا من علية القوم مازالوا يحافظون على التقاليد ويرتدون الفراك والقبعات السيلندر، وسيدات ورجال من أواسط الناس بل وشبان صغار وشابات، جاءوا هم الآخرون ليروحوا عن أنفسهم بقبس من هذا الفن الأوبرالي البديع.

المشهد كله أدب ووقار، فلا إشارات بالأيدي إلا لضرورة والكلام همس فلا صوت يعلو أو حرف زائد، ولا لغط بالطبع أو صفير، فرواد الأوبرا يعلمون أنهم

مقبلون على متعة للروح وجالسون في محراب للفن، شأنهم شأن من يقصدون دور العبادة والمحاريب التي يذكر فيها اسم الله..

والثياب التي ترتديها النساء خاصة كانت مصدر متعة لنا هي الأخرى، وسباقًا بين مصممي الأزياء، فساتين سهرة القصير منها والطويل والذي بأكمام أو بلا أكمام، وحقائب مفضضة أو مذهبة وحجمها كلها صغير، وشيلان من فرو (المِنْك) وأخرى من الحرير، ناهيك عن النفيس من أحجار اللؤلؤ الحر وأقراط وقلادات تزينها قطع من الماس.. ولا أظن أن كل هذا بسبب زهو أو تأنق، بقدر ما هو احتفاء بالمكان.

الأضواء مازالت مضاءة فاطلعت على البرنامج، الشهر القادم أوبرا (بحيرة البجع) لتشايكوفسكي، والذي يليه أوبرا (زواج ڤيجارو) لموتسارت، وبعدهما (السيمفونية الناقصة) لفرانز شوبيرت.

ثم أطفئت الأضواء تباعًا، فعم السكون، وانفرج الستار عن جو غجري أخاذ..

فالأوبرا الليلة عن الغجر، دنياهم وترحالهم وعندما يعشقون. ديكورات لمدينة (إشبيليه) في زمانها القديم، وفتيات غجريات بجونلات واسعة ومناديل على الرؤوس، وغوايش تجلجل في أيديهن وأقراط طويلة تهتز كلما التفتن إلى اليمين أو الشمال، و(كارمن) أسطورة الغجر وفاتنة القلوب تلهب المكان، حتى إن المشاهدين أفلت زمامهم وقاطعوها بالتصفيق المدوي عدة مرات، وهي ترجع بكتفيها قليلًا إلى الوراء مختالة بنفسها، وتقبض بيديها على جانبي ثوبها الواسع العريض وتهزه هزات مجنونة، وتدق بكعبيها على خشبة المسرح جيئة وذهابًا لتغوي عشيقها الضابط الأسباني (دون خوسيه).

افتتنت بها أنا الآخر وبشدوها، وبموسيقى (بيزيه) التي رغم طابعها الأوبرالي إلا أنها أعادتني إلى شارعنا القديم بالظاهر، والزحام ونداءات الباعة الجائلين، وعندما ارتفع صليل إحدى الآلات النحاسية شق خيالي على الفور ترام العباسية الذي كان يصلصل هو الآخر ويصول ويجول أمام أعيننا ونحن صغار، والشرر يتقد من السنجة التي بأعلاه. ورغم أن خديجة تجلس إلى جواري وتمد يدها معانقة يديَّ، إلا أني انسقت وراء طيف نادية.. فكأنها تهبط من إحدى عربات الترام وأنا أقف مترقبًا قدومها، لمحتني بطرف عينها غير أنها أسرعت فلحقت بها، قالت: كن عاقلًا فالناس ترانا!

لم نكمل..

أيقظتني موسيقى الختام وصعود قائد الأوركسترا إلى خشبة المسرح ليرد على تصفيقنا الشديد بإيماءة من رأسه، فقد كان وبحق ملكًا ونحن رعاياه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

28

طرق الأستاذ فؤاد عليَّ باب المكتب..

كان اليوم الأول لمجيئي إلى الشركة، بعد غياب استمر أسبوعين قضيتهما مع خديجة.

قال: إن ميعاد إجازته السنوية قد حل، وإنه سوف يسافر إلى مصر على طائرة يوم الإثنين.

- مصر..

قلتها بصوت خافت متشوق، فتبسم قائلًا:

- وحشتك..

- وحشتني! تعالى.. تعالى..

وأمسكت به من يده، أجلسته أمامي وأخذت أصف له عنوان عمارتنا بالظاهر ورقم شقتنا وشقة أم حسن، ومن أين يدخل للشارع وأسماء المحلات محلًا محلًا، وقهوة أبو عوف ومحل عصير القصب الذي يتاخمها، وحذرته من كلب أطرش معدوم الضمير يتسكع عادة في أول الشارع ولا يميل للغرباء..

وهو يقاطعني، قائلًا:

- خلاص خلاص عرفت، وكلب إيه وبتاع إيه يا جلال بيه، هو الكلب هيفضل مستني لحد دلوقتي.

كنت أصف له وأسهب ليس خوفًا من أن يضل طريقه، فالطريق واضح للصغير قبل الكبير، إنما هي اللذة التي كانت تسري فيَّ وأنا أتكلم وأصف وأتذكر..

وبعد أن فرغت، قلت له:

- بص يا سيدي هديلك جواب وشنطة هدايا تسلمهم لأم حسن، ومفتاح شقتنا كمان علشان تفتحها وتديلك طربوش جدي، هتلاقيه في الدولاب الكبير.

- طربوش!

- أيوه طربوش، متعرفش الطرابيش؟ وبعدين يا أستاذ فؤاد هو أنت تعرف شارع الجيش كويس؟

- إلا أعرفه، دا كان سكتي للعباسية لما كنت في تجارة عين شمس.

- تمام. تمام. وتعرف سينما (مصر) فين؟ أكيد شفتها قبل كده، بص يا سيدي بعد ما تعدي من باب الشعرية وانت جاي من العتبة وداخل على شارع الجيش، شوية كده وهتلاقيها على يمينك.

- مفيش مشكلة، أسأل عليها.

- أيوه تسأل عليها، وحتلاقي قدامها محطة ترماي لها رصيف ومبنية بالمسلح، عايزك بعد ما تخلص مشوارك مع أم حسن تقف على المحطة دي قيمة نص ساعة ولا أكتر، وتقعد تتلفت حواليك وعلى المحلات اللي قدامك ووراك والناس اللي طالعه ونازله من الترماي.

- وبعدين؟

- بعدين إيه! ولا حاجة، تعمل كده وبس..

فنظر إلى مستغربًا:

- أعمل كده وبس!

اقتربت منه متوددًا:

- دي الحتة اللي أنا اتربيت فيها يا أستاذ فؤاد والمكان ده له ذكريات عزيزة عليَّه، من فضلك إعمل اللي بقولك عليه ولما ترجع يبقى إحكيلي على كل حاجة شفتها أو حتى سمعتها..

فرمقني مستغربًا، وعندما أتى إليَّ في اليوم التالي سلمته الخطاب وحقيبة الهدايا ومفتاح الشقة، وقلت له:

- وحاجة كمان يا أستاذ فؤاد، فيه محل خردوات جنب سينما مصر، محل صغير قدامه تلاجة حاجة ساقعة وصاحبه اسمه عم أبو لحاف...

- عم أيه؟! اسمه أبو لحاف، اسمه كده!

- أيوه اسمه كده! الراجل ده راجل كبير في السن وليل ونهار وصيف ولا شتا حاطط حِرام على راسه وعمال يتاوب! تقول له جلال بيسلم عليك. حيقولك جلال مين؟ تقول له جلال بتاع الضاهر اللي كان كل يوم وهو رايح وراجع من المدرسة يعدي عليك، جلال اللي ساعات كانت بتبقى معاه بنت حلوه وشعرها طويل وسايح على مريلة المدرسة، جلال اللي..

وأمسكت لساني، وهو يتأملني ولا يعرف ما الذي يقوله أو يعلق به، ولولا حرجه مني لوبخني وتركني وانصرف.

- وتعرف الشيخ الدمنهوري؟

- دمنهوري! دمنهوري مين؟

- دا مقرئ من المقرئين الكبار اسمه الشيخ منصور الشامي الدمنهوري بس الله يرحمه مات من كام سنه، ياريت تجيبلي معاك شريط من الشرايط بتاعته، شريط، اتنين، تلاته، اللي تقدر عليه..

وأخذت أروي له عن مدى ولعي بصوت هذا الشيخ عندما كنت صغيرًا، وأني كنت أتحجج بأي عذر وأنزل إلى الشارع كل يوم أربعاء، الساعة الثامنة بالضبط، حيث كان يتلو القرآن في ذلك الوقت. وأظل أروح وأجيء وأتلكأ أمام مقهى أبو عوف، أذناي معلقتان بالمذياع الموضوع على رف خشبي بجوف المقهى، وعيناي ترصدان أية حركة في شرفتنا التي على بعد خطوات، خوفًا من أن تراني أمي أو جدتي على هذا الحال فتزجرانني وتأمرانني بالصعود!

وعندما سلم عليَّ مودعًا، قلت:

- إنت طبعًا عارف إن الناس أسرار..

فحدق فيَّ متحيرًا..

- قصدي أقول إن حكاية جوازي دي مسألة مش عايزها توصل لمصر، أكيد أم حسن هتسألك اتجوز ولا لأه، خلّف ولا مخلفش، يبقى قول لها إني لسه متجوزتش وإني دايمًا شارد وسرحان، قول لها مش عارف ماله! الظاهر يا حاجة إن فيه في حياته سر ولا حكاية كبيرة!

رفع حاجبيه وقال:

- أقول لها إنك شارد وسرحان وفيه سر في حياتك!

ثم سأسأ بشفتيه:

- بس يعني! أنا بقول يعني! على العموم خلاص خلاص هقولها ما دام دا يريحك.

لا أعرف ما الذي دعاني لأن أقول ذلك..

كان مجرد خاطر لا أدري كيف أتى، أو لماذا طاوعت نفسي وقلته للأستاذ فؤاد..

فهل كنت أود إخفاء خبر زواجي وأني في الغربة أتألم حتى يصل ذلك إلى نادية من خلال أم حسن، فأكيد سوف تقول لها بل وسوف تضيف من عندها وتتحسر أمامها على حالي.

هل كنت أقصد ذلك؟

حتى تظل تشعر بأنها، وحدها، التي خانت ما بيننا وارتبطت بآخر، أما أنا فلا أزال محافظًا على العهد الذي قطعه كل منا للآخر أيام الصبا.. الكلام الكبير الذي كنا نقوله لبعضنا، بألا يكون أحدنا إلا للآخر.. وألا.. وألا..

هل كنت أقصد إيلامها؟

ولماذا أفعل ذلك، وأنا الآخر تزوجت ليس مرة بل مرتين..

لا أعرف! فالنفس البشرية هذه شيء معتم أحيانًا، ومغلق حتى على صاحبها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ومضى شهر..

ثم رجع الأستاذ فؤاد حاملًا حقيبة من البلاستيك لها يدان من أعلى، حقيبة من تلك الحقائب التي تستخدم في شراء الخضراوات وأشياء المطبخ. اشتممت رائحة أم حسن على الفور، خطرت في بالي وهي ذاهبة وآتية من سوق (الوايلية) بواحدة مثلها.

وسلمني خطابًا..

غير أنه قال لي: إن أم حسن أسرَّت له بشيء عن ابنها حسن، وطلبت منه إبلاغي به.

فدنوت منه مصغيًا..

قال: إنها مشتاقة إليك وتقول لك إنه في الشدة والضيق وبعد أن مات زوجها ليس لها إلا أنتّ، فالثدي الذي أرضعك له حق عليك..

- عم محمود العطار إتوفى؟ إمتى الكلام ده!

- معرفشي! والمشكلة إن إبنها حسن اتجوز معاها في الشقة، والظاهر إنها مش مرتاحة مع الست بتاعته ولا حتى معاه، وكانت عايزة تستأذنك وتستأذن عم زكي إنها تفتح الشقة بتاعتكم وتقعد فيها لحد ما ترجعوا..

- لحد لما نرجع، تاخدها على طول! دا أنا أجيب لها شقة في أحسن حتة في مصر، مديتهاش المفتاح ليه؟

- والله أنا عملت كده من نفسي، عرضته عليها بس هيَّه مرضيتش وقالت رجعه لصاحبه، ولما يوافق هو هيتصرف ويبعته بأي طريقة.

- أبعته! لسه هبعته! أنا هتصرف وأكلمها وأخليها تكسر باب الشقة وتدخل.

ثم سألته عن شرائط الشيخ الدمنهوري، فقال:

- اتفضل أهيه.

- والطربوش؟

- وآدي الطربوش، بس دا خلاني فرجة في المطار وأنا راجع! الراجل بتاع الجمرك حط عينه عليه وفضل موقفني جنبه ييجي ساعة، وهو يقلب فيه يمين وشمال ويشد الزر بتاعه ويديه لزمايله كأنه عجبه! وقال إيه.. إبن الإيه ده فاكرني حاوي والطربوش من عدة الشغل..

غير أنه آلمني عندما قال: إنه لم يعثر لمحل عم أبو لحاف على أي أثر، وإنه وجد بدلًا منه محلًا لبيع شرائط الڤيديو وشاب أخنف منكوش الشعر يقف فيه.

فقاطعته:

- مسألتوش؟

- طبعًا سألته، قلِّي حضرته إنه لا يعرف عم أبو لحاف ولا عم أبو مخدة.

كما لم يجد محطة الترام، أزالوها من على وجه الأرض، المظلة المسلح والرصيف والمقاعد الإسمنتية، ورأى بنفسه رهطًا من (الفواعلية) بأيديهم عصي من الحديد يرفعون بها قضبان الترام نفسها، وعربة نقل تقف على مقربة يضعون فيها هذه الأشلاء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ظللت شاردًا وأنا أقود السيارة عائدًا إلى البيت، وكأن ترام العباسية الذي مات أحد أقاربي، وانتابني شيء من الضجر من تعليقات الأستاذ فؤاد، خاصة قوله:

- خير ماعملوا، خليهم يشيلوه ويرموه في أي داهية، دا كان بتاع عبيط كده وغبي.

وتذكرت لما كنا صغارًا أنا وحسن، وعم محمود العطار يحرك مؤشر الراديو ملولًا ضجرًا باحثًا عن أغنية الشيخ صالح عبد الحي: "ليه يا بنفسج بتبهج، وأنت زهر حزين"، التي انقطعوا عن إذاعتها.

أيامها وبجهل الصبا كنا نغمز لبعضنا البعض، ونقول كلامًا كالذي قاله الأستاذ فؤاد لي الآن..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

29

لم يصدق جدي أن طربوشه عاد إليه..

طربوشه القديم، الذي لم يخلعه عن رأسه إلا يوم أن اضطر إلى ترك مصر والعيش في بلد غريب.

ندت عنه صيحة فرح أول ما أخرجته من الورق المغلف به، وبعفوية قال:

- ينصر دينك يا واد يا جلال، جبته إمتى؟ وازاي!

واحتضنه بين يديه، يمرر أصابعه بحنو على حوافه ويتحسس خيوط زره السوداء، ويتأمله مسترجعًا أيامه التي ولت وخلفتهما بعيدين، الطربوش! هناك، مغلق عليه في دولاب معتم، وهو! هنا، كالميت في مسكن هواؤه راكد رطب، وليس له من دنيا في الدنيا الكبيرة التي هو فيها، باريس التي يقولون عنها بلد النور، غير سرير وحمام ومنضدة يزدرد عليها الطعام كلما نادوا عليه.

انتبهت إلى شروده، وتابعته وهو ينحي الطربوش جانبًا ويقول:

- الخلق كلها قلعت الطرابيش في شارعنا لما كنا في الضاهر إلا أنا وشوية ناس يتعدوا على الأصابع، ملاك أفندي اللي كان شغال في الكتبخانة والأستاذ عويس بتاع قلم المرور والحاج زناتي صاحب سرجة الحلاوة اللي ورا بين الصورين، وتعرف ياجلال..

ثم مال نحوي:

- الطربوش دا حاجة محترمة تستر الراس وتعملك هيبة، شوف عندك النحاس باشا ولا مكرم عبيد ولا لطفي السيد ولا.. ولا.. كانوا عاملين إزاي بالطرابيش، إيه ده! قيمة ومنظر وحاجه كده تسد عين الشمس!

- بس يا جدي..

- بس أيه يا مُبَاَرك! آهم قلعوا الناس الطرابيش، لبسوهم إيه مطرحها! آهي الشمس عمالة تضرب في نافوخ الواحد من دول واللي شعره أكرت واللي أقرع واللي ياحول الله زلْط مَلْط ومن غير ولا شعرة، آهي الطرابيش كانت بتستر برضه، طب دا زمان..

وبدأ في الحكاوي القديمة، يوم أن ذهب أحد معارفه لخطبة فتاة من أهلها المقيمين في العباسية الشرقية، فرفضوه لأنه جاء لهم بغير طربوش، وكان هذا علامة استهتار وقلة احترم!

وجدتي تعلق:

- قصدك على رستم أفندي ابن مدام سعدية.

- أيوه أيوه، هوه.

- بس دول اختلفوا على الشبكة والمهر مش على الطربوش.

وحكاية في حكاية وجدتي تصحح له، فأصابه الإحباط من كثرة تضييقها عليه وقال لها متأففًا:

- أنا جعان وتلاقي جلال هو كمان لسه متغداش، يللا يللا على المطبخ.

ومن فرحته بالطربوش حاول وضعه على رأسه ورؤية نفسه في المرآة غير أنه فشل، ففوهة الطربوش وعلى ما يبدو انكمش قطرها من(الركنة) وطول الزمن وأصبحت أقل حجمًا من محيط رأسه، غير أنه أصر على ارتدائه، فتدخلت للمساعدة محاولًا كبسه بالقوة في رأسه وبغير فائدة بالطبع، انبعج مني وكاد الزر أن يخرج في يدي، فضلًا عما خلفه من حز أحمر على جبهة جدي.

وأتت جدتي من المطبخ على الجلبة، فلم يرق لها ما أفعل ورمقتني بغيظ:

- إيه المسخرة دي يا واد يا جلال! وانت يا زكي ناوي تلبس المدعوق ده هنا ولّا إيه؟

- ألبسه هنا، ألبسه دا إيه! هو أنا عبيط! أنا بجربه بس، أنا هعلقه على الحيطة.. فين فين يا واد يا زكي؟ أيوه هنا جنب الساعة علشان يبقى في وش اللي داخل.

- في وش اللي داخل، داخل إيه وخارج إيه! يا دي النهار اللي مش فايت..

وأنا أستغرب من أحوال الدنيا، وأقول في نفسي: كيف جار الزمن على صاحب هذا الطربوش وأصبح (مسييه) فلان...

بطاقة الهوية والتي يسمونها هنا (كارت دي إدانتيه)، يبدو وجهه فيها متجهمًا ونظرة كابية مهمومة تطل من عينيه، كأنما الصورة التقطت لنزيل في ليمان طره..

والبيانات:

(مسييه) زكي إسحاق الأزرع..

مواطن من بلاد الغال! مواليد عام 1896، فصيلة الدم.. كذا، متزوج من إيڤون سوارس، ويقيم: برقم 9 شارع كذا بحي كذا.. بباريس..

بطاقة الهوية تقول ذلك..

والقانون الفرنسي يقول هو الآخر، إن هذا العجوز التعيس أصبح منا!

وأخوه القانون المصري، وبالطبع، يشاطره الرأي، ويقول إن أحب هذا الإنسان! هذا البني آدم! هذا النفر! دخول بلادنا سوف نفحص الأمر في حينه، وقد نسمح وقد لا نسمح..

أصبح جدي من الفرنسيس!

لوي الأول وحتى لوي السادس عشر، ومن بعدهم شارل العاشر ولوي فيليب ونابليون وشارل ديجول وبومبيدو وجيسكار دي ستا، هم حكامه وتاريخه وماضيه! وليس له من هموم كأي فرنسي صالح إلا أن تسود الفرانكفونية، وتكون فرنسا زعيمة أوربا، وإذا جدَّ الجد عليه الدفاع عنها بالنفيس قبل الرخيص!

جدي الذي لم يكن يعرف من الدنيا غير حي الظاهر بشوارعه وحواريه، وڤاترينة الساعات التي يقتات منها بشارع الأزهر، وإذا أراد أن يروِّح عن نفسه فليس أمامه إلا لعب الطاولة على مقهى أبو عوف أو زيارة أحد معارفه بالسكاكيني أو شارع الخليج، أما لو أخذه الشوق مرة للنزهة فحديقة الحيوان أو على الأكثر القناطر الخيرية أو الفيوم!

زكي أفندي الأزرع الذي كان يحمل سبت (القُرَص والمِنِين)، ويزور أمه وأباه بمقابر اليهود في البساتين أيام السبت وفي الأعياد، زكي أفندي! أصبح نشيده الوطني نشيد (لا مارسييز)[38] ، والعلم الذي يقف لتحيته هو العلم الفرنسي بألوانه المستطيلة الزرقاء والبيضاء والحمراء..

هذا هو جدي، الذي شعت الفرحة من عينيه كما الأطفال عندما رأى الطربوش!

الطربوش الذي تعجب منه الرجل الفرنسي الواقف على باب الجمرك، واحتار فيه، هل هو بالفعل غطاء للرأس؟ أم لعبة؟ أو شيء من الأشياء التي توضع في أجربة الحواة؟

فلا حول ولا قوة إلا بالله..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وأفرغنا حقيبة أم حسن من محتوياتها..

إوزة وعدة أزواج من الحمام، وثمار بامية مجففة موصولة بخيوط، وكارعين من الكندوز.

جدي يرص هذه الأشياء إلى جوار بعضها بفرحة، ويقول:

- آدي الأكل اللي يرم البدن! آدي الخير! مش الجبنه الشيدر واللحم المدخن والهوت دوج والحاجات اللي بنطفحها هنا!

انتهزت الفرصة وأبلغته بمشكلة أم حسن، فأجابني بطيبة:

- وماله يا ابني الناس لبعضها، إبعت لها المفتاح.

وغاب لحظة وقال:

- بس تقول لها إن ده شيء موقت، حسبة كام شهر علشان جدي شوية كده وراجع، أكد عليها يا جلال علشان زي ما انت عارف أنا كلها كام شهر بالكتير وهعاود مصر!

كنت أعرف أنها مجرد أماني، فجدي لم يعد في حال تسمح له بالانتقال ولو إلى شارع مجاور، غير أني جاريته مؤكدًا على كلامه وكذلك فعلت جدتي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقبل أن أصعد إلى شقتي في (ديز إيكول) مكثت بالسيارة أفض الخطاب الذي ورد من حسن، واقرأ ما فيه.

خطاب كله مزاح وكلام فارغ، لم ألتفت إلا إلى سطر واحد يقول فيه إن نادية أنجبت بنتًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

30

كان الربيع قد أقبل..

والدنيا في هذا الوقت تكون ساحرة بالجنوب، حيث مدن الساحل، نيس، وكانْ، وسان راڤيل، وأنتيب، التي تمتد بحذاء الريڤييرا الفرنسية في بهاء منقطع النظير. فتذكرنا دعوة الأستاذ مصطفى بوصاف خال خديجة كي نذهب لزيارته، فطالما ألح علينا أن نمضي عدة ليالٍ بالفندق الذي يديره في نيس، وكان آخر اتصال منه منذ أسابيع يؤكد علينا فيه على القدوم، وأن أجمل غرف الفندق والتي يسمونها (غرفة العرسان) في انتظارنا وقتما نجيء.

كان في الأربعين، عزبًا لم يتزوج، وخفيفًا متسامحًا طيب القلب إلى حد البَلَه، آفته وكما عرفت من خديجة، نهمه الشديد للتمتع بمباهج الدنيا، فمذهبه في الحياة يكمن في هذين البيتين لشاعرنا الفيلسوف عمر الخيام:

أطفئ لظى القلب ببرد الشـراب

فإنما الأيـام مثل الســحاب

وعيشنا طــيف خيــال فنل

حظك منه قبل فوات الشـباب

لهذا كان الشيخ منجي متحفظًا معه ولا يكف عن إظهار سخطه عليه بمناسبة وبغير مناسبة، وفي كل مرة يلتقيان فيها - وكان هذا نادرًا بالطبع لبعد المسافة - إلا وتدب بينهما مشادة كلامية، أو بالأحرى كان الشيخ يوبخه وينغص عليه بسؤاله عمَّ أدى من فرائض الدين وما تزود به للآخرة، ويمتحنه في عدد الصلوات، ليس الصلوات الخمس بالطبع، إنما صلاة التهجد والقيام وسنن المغرب والعشاء، ويخوفه من النار التي حتمًا سوف يلقى بها ويعامل من زبانيتها أسوأ معاملة.

والرجل ينصت له، ويقول: آمين.. آمين..

ويتقبل كلام الشيخ بنفس راضية، فقد كان بمثابة الأب بالنسبة له وهو الذي كفله ورباه شوطًا من الزمن.

وتحكي لي خديجة ضاحكة بأنه جاء لزيارتهما مرة وتصادف أن فتح له الشيخ الباب فوجده ثملًا، لسانه ثقيل ويتأرجح في وقفته، فجن جنونه خاصة وأنه قبلها بأيام أعطاه درسًا دينيًا مطولًا. دفعه الشيخ بيده ثم أسرع إلى غرفة

الجلوس وأحضر العصا، وزوجته تحاول تخليص أخيها منه وهو يصيح: دعيه يتذوق طعم عصاي، فمفعولها كالسحر ويعرفه القاصي والداني، دعيني فتأديب أمثاله (كِيف ومزاج) عندي وواجب شرعي أتقرب به إلى الله..

غير أنها لم تسمع له، وأخذت أخاها من يده إلى الحمام تصب الماء على رأسه حتى أفاق ثم أتت به إلى الشيخ، لكنه لم يقبل به ضيفًا إلا بعد أن يستحم ويتطهر من الدنس الذي به ثم يتوضأ ويصلي ركعتين لله.

كان الشيخ لا يكف عن إظهار تبرمه وضجره منه كلما ورد اسمه في أي حديث، ونصحنا أكثر من مرة بألا نلبي دعوته؛ بيد أننا لم نأخذ بالنصيحة وسافرنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وجدناه بانتظارنا على باب المطار، يحمل بين يديه باقة ورد ويدفع الناس ويزاحم ليصل إلينا.

أسرعت إليه خديجة وأنا وراءها، وبعد أن عانقناه اصطحبنا في سيارته (الستروين الاسبور) إلى فندق (مونسيني)، الكائن برقم 17 شارع (ماليزن) فما زلت أذكر الرقم واسم الشارع ولن يبارحا خيالي أبدًا!

فندق قديم..

نوافذه مستطيلة ومن الخشب الثقيل الذي لا يستجيب للحركة إلا بعد جهد، وغرفه واسعة أسقفها عالية وشرفاتها مزينة برسومات وقوارير على الطراز الروماني.

نزلنا نحن بالدور الثاني حيث (غرفة العرسان) الرحبة المزودة بكافة وسائل الراحة، وعلى مناضدها زهور وورود طبيعية في أوانٍ من الكريستال وطبق من الفاكهة يتبدل كل يوم، وثلاجة صغيرة مليئة بالعصائر وزجاجات المياه المعدنية (بيريل) و(فيشي) وبعض زجاجات البيرة والكحول.

قلَّبت إحدى الزجاجات في يدي، وقلت له: إننا لا نشرب هذه الأشياء!

قال: أعرف، هي ليست لكما وإنما لي عندما أصعد إليكما.

ثم تطلَّع إلينا وقال: هل من المحتمل أن يلحق بكما الشيخ منجي؟

قلنا: لا.

قال: لا خوف إذًا! ولَتَبْق زجاجات المنكر آمنة في مواضعها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كنا نخرج كل يوم في جولة على الأقدام، مرة في شارع (ماليزن) مخترقين ميدان (الليبرالثيون)، ومرة أخرى في شارع (چان ماديسا) متسكعين أمام البوتيكات، ومحلات الأنتيكات أو نجلس على أحد المقاهي للراحة، نظل على ذلك إلى أن نخترق شارعَيْ (ڤيكتور هيجو) و(فيلكس فور) حتى نكاد نقترب من الشاطئ.

وإذا كانت خديجة غير متعبة كنا نسير بحذاء الريڤييرا والتي يسمونها هنا (كوت دازير)، حيث الساحل ممتد في شكل دائرة أو كحدوة حصان، وأضواء خرافية تنبعث من أعمدة عملاقة بطول الساحل وتطال الأشجار المحاذية لها.. المارون والكستناء والنخيل.. فتجعل هاماتها الخضراء أكثر نضارة وكأنما غسلت للتو، كما تنساب أيضًا نحو الماء ممتزجة بالأضواء المنبعثة من عشرات القوارب واليخوت الراسية في شكل بديع أو التي تقل أصحابها في جولات، فتبدو صفحة الماء خلابة، مرحة، مبتهجة تتدلل كأنما ليس في الدنيا جمال غير جمالها.. وتشعر بأنها تدعوك للاقتراب منها، ليس خطوتان أو ثلاثًا، إنما أن تلمسها بأصابعك وتغمس فيها كفيك، وتمد قدميك حتى ولو كنت تنتعل حذاء.

وعلى الجانب الآخر كانت أضواء الشارع تشاركنا الفرحة، وتتلألأ هي وواجهات المحلات والبوتيكات والمقاهي والفنادق.. نيجرسكو، وكارلتون، وجراند أوتيل.. وكلها بنايات قديمة على طراز القرن التاسع عشر، حيث المداخل والجدران منحوتة بالرسومات، والشرفات تزينها أعمدة من الرخام وتماثيل صغيرة وبعضها كبير؛ حتى الناس، أهل البلد والسيَّاح، كانت وجوههم مشرقة وتشع منها الفرحة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكان الأستاذ مصطفى بوصاف يعطينا الكثير من وقته، أخذنا مرة في جولة بمدينتي كانْ ومونت كارلو اللتين لا تبعدان كثيرًا عن نيس، ومرة إلى التلال العالية التي تحيط بها.

تلال خضراء ومتداخلة أشبه بالجبال، والحياة في بعضها لا تزال على الفطرة.. أكواخ متناثرة ورعاة وقطعان ماعز وأغنام، وبين المسافات المترامية بيوت جبلية فخمة يؤمها أصحابها من الأثرياء في الصيف وأحيانًا في الربيع، وقصور بمختلف الأحجام يقف على بابها حراس. خلب لبنا واحد منها، فتوقفنا على مقربة منه نتأمل روعة معماره وحديقته الغنَّاء ورجال الحراسة المدججون بالسلاح يتابعون السيارات الفارهة التي تخرج منه أو تدخل إليه.

قال لنا الأستاذ مصطفى: يبدو أن صاحبه الأمير الخليجي فلان موجود بالداخل، رجل من أصحاب البلايين ولا يجيء إليه إلا مرة واحدة في العام، يقضي فيه أسبوعًا ويطير بعدها إلى قصر آخر له بضواحي چينيف!

ثم قال: ألا تلاحظون أن الطريق الذي صعدنا عليه وحتى قصر هذا الأمير ممهد بالأسفلت والقار وعليه علامات إرشادية للمرور؟

قلنا: نعم..

فقال: وكثير من الطرق وكما ترون غير ممهدة ولا تزال مجللة بالتراب؟

قلنا أيضًا: نعم..

قال: لهذا قصة.. انظرا إلى الأكواخ هذه المتناثرة بدءًا من السفح وحتى قمم التلال (ففعلنا)، هذه الأكواخ أصحابها من الرعاة الفرنسيين الفقراء. أناس يعيشون على رعي الأغنام ويقتاتون من بيع ألبانها وأجبانها، جبن الماعز بالذات الذي له شهرة واسعة ويحبه الناس هنا. على مدار سنوات وهؤلاء الرعاة يرجون بلدية نيس ويقدمون لها العرائض والطلبات، كي تتفضل عليهم وترصف لهم هذا الطريق تجنبًا للمشقة التي يعانون منها كلما صعدوا أو هبطوا عليه، والبلدية تعتذر لضيق ذات اليد، وتقول لهم: لدينا أولويات وطريقكم فرعي لم نُدْرجه في خطتنا بعد..

غير أن الحاجة هي أم الاختراع مثلما يُقال، فقد تفتقت فكرة في ذهن أحد الرعاة، إذ قال: لماذا لا نذهب لهذا الأمير! أليس هو كبيرنا في هذا الجبل والعرب قوم كرام لا يردون طالب حاجة أو من التمس منهم رجاء، واستشاروا مسئول القصر وكان فرنسيًا مثلهم، فرحب بالفكرة وأخبرهم بطباع الأمير والذي يسعده ويرضيه والميعاد الذي سوف يأتي فيه.

فلم يكذبوا خبرًا..

وعندما هل هذا الأمير بالدشداشة والعقال، راكبًا سيارته الرولزرويس ووراءه سيارة حراسة وأخرى في الأمام تكشف له الطريق، تعجب مما يرى! الرعاة بملابسهم البسيطة وبعضهم بالهلاهيل – وعلى طول الطريق – يحملون لافتات ويشيرون له بأيديهم محيين، وبعضهم يصيح بعربية عرجاء مضحكة (يعيش الأمير)، و(بارك الله لنا في هذا البرنس المحسن الكريم).

فسأل أحد مرافقيه:

- أيش هاذول؟! ويا سبحان الله ينطقون العربية أيش أيش يقولون ما فاهم شي!

قال له: لحظة يا طويل العمر..

وأرهف أذنه ثم عاد يقول للأمير: إنهم يدعون لكم بالصحة والعافية والعمر المديد يا سيدنا الأمير، ويقولون أهلًا أهلًا بك في بلاد الفرنسيين.

فانفرجت أساريره وقال: بارك الله فيهم من أناس يفهمون..

وأخذ يلوح لهم بيده من داخل السيارة كلما رآهم متجمعين له على الطريق، وعندما وصل إلى القصر وجد عددًا آخر منهم واقفين بالباب ويحملون لافتة كبيرة عليها عبارات الترحيب بالعربية والفرنسية في آنٍ، وعلا تصفيقهم وتهليلهم له أول ما نزل من مركبته الغول، وبدا بعض الصبية في الصفير بإيعاز مسبق من الكبار.

فتبسم وسأل:

- زين. زين. أيش يبغون؟!

انحنى له مسئول القصر وأبلغه بأدب واحترام: بأنهم يطمعون في كرمه، ويودون لو يساعدهم ويأمر برصف هذا الطريق فطالما خذلتهم بلدية نيس، وسُمّوهُ جارهم وسيدهم وليس لهم بعد الله إلا إياه!

فقال وهو يهم بالدخول:

- ما في مشكل! سووه على نفقتي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عرجنا بعدها نحو أحد الأكواخ التي تسكنها أسرة من الرعاة..

استقبلونا بترحاب وقدموا لنا نبيذًا غير أننا اعتذرنا أنا وخديجة، أما الأستاذ مصطفى فلم يُضِع الفرصة، أخذ يعب كل الذي قدموه له. شربنا أنا وخديجة من لبن الماعز الذي قدمته لنا زوجة الراعي في قدحين من الفخار، غير أنها سألتنا عن سبب رفضنا شرب النبيذ.

قلنا لها: إننا مسلمون..

فلم تفهم، وتدخل زوجها قائلًا: إنه سمع بهذا الدين ويعرف أنه يحرم الخمر.

فسألتنا ثانية: ولماذا يشربها هذا الرجل، أليس مسلمًا مثلكما؟

وأشارت إلى الأستاذ مصطفى الذي كان مشغولا بالحديث مع زوجها، وفي حجره قنينة النبيذ كلها.

فقالت لها خديجة بصوت خافت وهي تختلس النظر إليه: إنه مسلم عاق وأمره محير! يفعل النقيضين معًا، ما يدعو إليه الإسلام وأيضًا ما يحرمه!

ورفضوا المال الذي عرضناه عليهم، اعتبروا ذلك إهانة وودعونا حتى ركبنا السيارة.

وصعدنا نحن حتى قمة التل..

شاهدنا نيس أسفل منا صغيرة وبيوتها في حجم علب الكبريت، وكان البحر واسعًا كأنما هو الدنيا كلها.. وأخاذًا، جليلًا، يقظًا مفتوح العينين، تترامى أمواجه حتى الشاطئ برغوة بيضاء تبقى على الرمال، ولا ترجع ثانية مع الماء المنحسر.

وعندما شعرت خديجة بضيق في النفس هبطنا مسرعين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كنا سنغادر على طائرة اليوم التالي عائدين إلى باريس وأعد لنا الأستاذ مصطفى سهرة بأحد الكازينوهات المطلة على الشاطئ، إلا أن خديجة اعتذرت، قالت: إن شيئًا كالدوار يثقل رأسها وتود أن تنام مبكرة.

أحببت أن أبقى معها فرفضت قائلة: ما الذي ستفعله معي، أنا سأنام على الفور، اذهب مع خالي وتمتع بالسهرة نيابة عني، غير أنها شددت عليَّ كي أوقظها عندما أرجع، حتى ولو كان ذلك في آخر الليل.

مكثت أنا والأستاذ مصطفى نتسامر وقتًا طويلًا، أسمع منه ويسمع مني، أشرب العصائر وأختتم بالكابتشينو وهو كأس في كأس حتى ثقل رأسه فانصرفنا، أوصلني بسيارته إلى الفندق ثم اتجه إلى شقته بشارع (تيير).

دخلت على أطراف أصابعي كي لا تنتبه خديجة لقدومي، ضاربًا عرض الحائط برجائها المتكرر بأن أوقظها، فالنوم أفيد لها كما حسبت لحظتها.

حتى زر الكهرباء لم ألمسه، اكتفيت بشعاع النور الآتي من الشارع، وشيئًا فشيئًا بدأت عيناي تألفان الغرفة وأشياءها.

كل هذا وهي نائمة..

لم أعرف أنها ليست نائمة وإنما فارقت الحياة كلها، إلا عندما استويت إلى جوارها..

دهمتها علة القلب وأنا في الكازينو..

أمسك بعنقها ملك الموت وأنا غائب أتسلى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

31

بقدر ما يتألم الضعفاء، يتألم أيضًا الأقوياء..

فلم أر الشيخ منجي أبدًا على الحال الذي رأيته عليه يوم أمس عندما وارينا خديجة التراب، أو اليوم ونحن جالسون نتقبل العزاء. تغضن وجهه من القهر وانحنى بمنكبيه وهو جالس على المقعد، لا يتكلم وعيناه كليلتان من الحرقة والاحتقان.

همس في أُذني صديقه الشيخ بو مخلاع: أدر بالك عليه يا ولدي..

فأجبته بصوت كالتمتمة: أفعل إن شاء الله.

مسح لحيته براحة يده، وقال: كنت أجلس معه وقتها نتسامر في الدكان، وأقسم عليَّ أن نصعد معًا إلى شقته نتعشى ونراجع دفاتر الزكاة، صلينا وتعشينا وأمسكنا الدفاتر وكلمة في كلمة وقبل أن نفرغ يا ولدي..

وتوقف..

فيبدو أنه لاحظ وجومي، وعيني الشاردتين..

وكزني خفيفًا وهو يقول: دع الملك للمالك يا بني، فلا حيلة مع القضاء والله جل جلاله هو وحده الذي لا يموت..

وقطب حاجبيه مستفسرًا: ماذا كنت أقول؟ ماذا؟ ماذا؟ نعم، نعم تذكرت.. كنت أقول يا ولدي أننا وقبل أن نفرغ من الدفاتر رن الهاتف وكنت أنت! تلقى المنجي الخبر أول الأمر صابرًا محتسبًا، غير أن شيئًا فيه تزلزل بعدها يا جلال ومال عليّ فجأة وهو يشهق ويقول: أسعفني أسعفني يا أبا مخلاع.

زفر متأوهًا بعدها وأصابعه تتحسس المسبحة النائمة في حجره، ثم طفق يقول: أنت تعرف أنه مريض بالضغط، فلحقناه بالدواء وكاد بفضل الله أن يفيق من الدوار، لولا أن أم خديجة - سامحها الله - علا نحيبها وأخذت المسكينة تولول وتضرب برأسها في الجدار، فقام ليسكتها وهو يصيح فيها: كُفِّي عما يُغضب الله يا ناقصة الدين، غير أنه انهار وسقط منا مرة واحدة على الأرض كما المتاع!

ثم تمتم بأسى: الشيخ منجي الذي كنا نحسبه قويًا كالجبال! فلا حول ولا قوة إلا بالله..

وأناخ كتفيه إلى حافة المقعد، وهو يتهيأ لسماعي ويقول: وأنت يا بني قص عليَّ كل ما حدث في نيس؟ قُصَّه بالتفصيل..

كنت أعرف أنه لا حيلة مع الشيخ بو مخلاع، فهو صحيح طيب القلب لكنه كثير الكلام ولا يعرف أن الصمت وغلق الفم أمر واجب في الحال الذي نحن فيه، فقررت أن أتحين أول فرصة وأترك له المكان، بل عزمت أمري وقمت بالفعل غير أنه عكم رسغي براحته قائلًا: إلى أين؟ إلى أين؟ فلم نفرغ بعد من الحديث، ويبدو أنه نسي أنه سألني سؤالًا، إذ بعد أن أجلسني عاود الكلام قائلًا: وبارك الله في جدك هذا!

قال ذلك وهو يشير بذراعه نحو جدي، والذي كان بالمصادفة ينظر ناحيتنا فظن أن أبا مخلاع يريده في شيء وقام متجهًا إلينا، فأسرعت إليه وأنا أقول: لا شيء.. لا شيء يا جدي.. وتلفت حولي أبحث عن مقعد خالٍ فلم أجد، فأسقط في يدي وعدت إليه مرة ثانية. وفور أن جلست، قال: نعم، بارك الله في جدك! صعدت إليه مسرعًا فأزعجه الخبر وأخذ يسألني ووجهه مصفر ومخضوض: لا حول الله.. متى حدث ذلك؟ وأين هما الآن؟ خديحة! خديجة تموت! وأنا أهدئ من روعه وأقول له: بدل ثيابك على الفور يا عمنا، وهيا بنا إلى المنجي فقد تركته في أسوأ حال، وقبل أن ننزل مهرولين يا ولدي، صاح في جدتك وهو على الباب كي تدق الهاتف لرجل اسمه شمعون ليلحق بنا في الحال.

ولم يرحمني، استمر يقول: من شمعون هذا يا ولدي؟

قلت والكدر يملأ وجهي: خالي يا سيدنا الشيخ.. خالي! خالي!

فقال: خالك! اسمه هكذا! جميل! جميل! ونحن على الدَّرْج يا ولدي أوصيت جدك كي يدير باله معي على الشيخ، فقال لي مندهشًا: ما هذا يا سيدنا بو مخلاع، أتوصيني على الشيخ منجي، إنه صهري ولو قدر الله وأفاء على جلال بمولود لكنت أنا وهو له جَدَّيْن، بورك فيه جدك هذا طيب القلب ورجل همام..

ويبدو أن فكرة واتته وهو يثرثر، إذ اتسعت حدقتاه قليلًا وقبل أن يميل نحوي، التفت محتاطًا نحو الرجل الذي يجلس إلى جوارنا فوجده شيخًا مثله وليس واحدًا من اليهود المعزين، فاطمأن وقال بصوت كالوشوشة: لماذا لا ندعو جدك يا ولدي للدخول معنا في الإسلام؟

فلبثت صامتًا..

ولعله ظن أيضًا أن هذا الأمر كان غائبًا عني، فقد تأملني مزهوًا بفطنته وهو يمر بإصبع سبابته على حافة شاربه، وليزيدني اقتناعًا قال: أليس جدك؟

لم أرد بالطبع على اعتبار أنه يعرف الإجابة، فضلًا عن أني اعتقدت أنه سؤال من الأسئلة التي تُطرح في مدار الحديث ولا يتوقع صاحبها عنها إجابة، غير أن المسألة لديه كانت على خلاف ذلك إذ كان ينتظر أن أجيب، بل وقال بنبرة حاسمة وهو يعيد صياغة السؤال: جدك أم ليس جدك؟

اعترتني الدهشة وشعرت بأني في حضرة محقق وليس شيخًا، وأسرعت بالرد قائلًا: نعم جدي!

فقال: أتحبه وتحب له الخير؟

قلت: نعم أحبه وأحب له الخير..

قلت ذلك مسرعًا خشية أن يفعل معي ما فعله في السؤال السابق، وعندئذ مال عليَّ حتى لمس رأسي بحافة عمامته، وصوته الخافت يقول: إذًا، فلنسرع ونكسب فيه ثوابًا بدلًا من الضلال الذي هو فيه..

قلت في نفسي: "آه يا ابن القرود! وعلى أيه اللفة دي كلها"، وأصابني بعض الضجر من طريقته في الحديث، كما لم أتقبل أن يعامل جدي على أنه وليّ لأمره، ناهيك عن أننا في عزاء والمتوفاة هي زوجتي، وأحببت أن أوقفه أو في أدنى الحدود أقول له: أسكت يا أبا مخلاع فلكل مقام مقال، غير أني أمسكت لساني، ويبدو أنه فسر صمتي على أنه تجاوب معه، ومال عليَّ ثانية يهمس في أذني مشجعًا: فكر يا ولدي في هذا الموضوع، فجدك الآن بلغ أرذل العمر وقدم هنا والقدم الأخرى على حافة القبر، فدعنا نلحقه قبل فوات الأوان..

بل واستحثني بضغطة خفيفة على كتفي، وهو يقول: فكر يا ولدي.. فكر.. ولنا جلسة معًا إن شاء الله نخطط فيها لهذا الأمر ونتدبر من أين ندخل له، ثم خبطني خبطة سريعة براحة يده على ركبتي، قائلًا: والآن دعنا من جدك واخبرني بالتفصيل عن كل ما حدث في نيس؟

انتهزت قدوم أحد الغلمان ببعض المشروبات، فأسرعت إليه أعاونه في توزيعها على المُعزين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أقمنا العزاء في شقة شارع (ديز إيكول)..

أفرغنا الصالة من محتوياتها، ووضعنا بها عدة صفوف من المقاعد والطاولات وقلنا إنها أنسب مكان للرجال، أما النساء فخصصنا لهن غرفة فسيحة بعد أن زودناها بعدد إضافي من المقاعد، وتطوعت امرأة من قريبات الشيخ لِخدمتهن وتلبية طلباتهن.

وأجلسنا الشيخ منجي على مقعد بالصالة، في جوفها تقريبًا، والمعزون ينحنون عليه ويسلمون، يأتون ويمضون وهو شارد تائه يغمغم بين الحين والحين بكلمات لا تخرج من فمه واضحة، وإذا رفع رأسه لا تكاد تتبين عينيه المتواريتين خلف جفنين استقرا على حال لا تعرف منه إن كانا منفرجين أو مغمضين! وجمع من أصدقائه الشيوخ يجلسون بإزائه واجمين وأعينهم المشفقة تروح وتجيء عليه، وبعضهم يهز رأسه بإجلال لآيات القرآن الكريم التي تنبعث من آلة تسجيل موضوعة على منضدة تفصل بيننا وبين الغرفة التي تضم النساء. والتزم جدي بوصية بو مخلاع، فلم يفارق الحيز الذي فيه الشيخ منجي إلا لضرورة ويربت على كتفه ويواسيه، والشيخ يومئ له برأسه ممتنًا.

كان بو سعيد ابن أخت الشيخ هو المسئول عن جهاز التسجيل، بدأ بسورة (الرحمن) التي تُليت بصوت الشيخ محمد رفعت الخاشع الرخيم، ثم ما تيسر من تلاوات للشيخ الدمنهوري والمنشاوي وشعيشع ومصطفي إسماعيل، والكل ساكن صامت، والجو مأخوذ بهيبة الموت والرهبة والجلال المصاحبين لتلاوة القرآن.

فلا لغط أو كلام أو افتتان بأصوات المقرئين، اللهم إلا سعلات تتناثر أو أحد يهمس في أذن الآخر مثلما كان يفعل معي بو مخلاع، بل حتى من حضر من اليهود التزم بالتقاليد، وأولها عدم إشعال لفافة تبغ أثناء تلاوة القرآن، أو الانصراف من العزاء قبل أن يختم الشيخ ويقول: صدق الله العظيم.

وبإيعاز من بو مخلاع مضى صبي تونسي بملابسه التقليدية بيننا، راح وجاء عدة مرات متمتمًا بذكر الله، ويهز سلسلة من الخيط المضفور تتدلى من يده مثبتًا بها طاسة بها جمر متقد ينبعث منه البخور، ثم عرج إلى الغرفة التي بها النساء، ولما فرغ مكث بالمطبخ يصلح الجمر ويجدد ذرات البخور، وبين الحين والحين يطل برأسه منتظرًا تعليمات الشيخ بو مخلاع ليبدأ المرور بيننا من جديد. وكلما انتهى شريط من شرائط القرآن، كان بو سعيد يدع للناس فسحة من الوقت ليتكلموا أو يدخنوا أو من يذهب منهم إلى الحمام، وكان جدي ينتهز الفرصة ليدور على المعزين بعلبة سجائره، مثلما كانوا يفعلون قديمًا في مصر بسرادقات العزاء.

أشار له خالي شمعون بألا يفعل، فنحن هنا في باريس ولسنا في شارع الخليج أو سيدنا الحسين، غير أن جدي لم يكترث بنصيحته بل وكان يلح بسجائره على الحاضرين، ويدخل ويخرج أحيانًا من باب المطبخ، وينادي على الغلمان التوانسة الذين أتى بهم الشيخ بو مخلاع لإعداد المشروبات. يدفعهم أمامه ويرشدهم لتقديم الشاي الأخضر لهذا الأستاذ، والقهوة التركية لفلان

أما النسكافيه أو الكابتشينو فللرجل الذي يجلس هناك، مما أثار انتباه بعض أقرباء الشيخ، ومَنْ لم يكن يعرفه منهم كان يلتفت إلى جاره ويسأل عنه، ثم يهز رأسه برضىً وفي عينيه نظرة تقدير.

لم يكن جدي يبتغي شيئًا مما يفعل، إنما بدا له الأمر وكأنه واجب وأصول، فطالما أن خديجة كانت زوجة ابنه فالمصاب إذًا مصابه، والشقة التي بها العزاء الآن هي بيته طالما هي شقة ولده جلال، وهؤلاء المعزون في كنفه وضيافته، فهذا الذي تربى عليه وتعلمه خلال حياته التي عاشها في مصر بين الناس.

وأنت جدتي متشحة بالسواد..

دخلت إلى حيث أم خديجة ووراءها أمي وخالتي وراشيل كلهن بملابس الحداد، وكذلك بعض معارف جدي من يهود مصر الذين كانوا يسهرون بشقة الأستاذ يعقوب.

أبو خرطوم.. عفوًا! أقصد أبو زلومة هو الوحيد الذي لم يأت، أو حتى بعث لنا ببرقية عزاء! أما الأستاذ يعقوب، فلم يمكث غير عشر دقائق سحب فيها عدة أنفاس من سيجاره، وتركنا وانصرف متحججًا بأنه مشغول ووراءه ميعاد.

وعندما تقدم الليل وانصرف الناس نزلنا معًا، أهلي وأهل خديجة المقربون، وفي مقدمتنا الشيخ يتكئ على خالي شمعون!

وأغلقت أنا باب الشقة، وسلمت المفتاح للبواب الفرنسي (بيير).

قال: ما زال أمامك ستة أشهر، فالعقد لمدة عام.

قلت: صاحبة الدار رحلت، فمع من أبقى يا بيير!

وفي الطريق ركب جدي وجدتي معي واثنتان من بنات الشيخ، ولم تنس جدتي طبعها إذ قالت لجدي: إن باكر سوف يكون يومًا أسود على صاحبتيها (سمكة) و(حنونة) المقيمتين في (بل ڤيل).

فقال لها: لا حول الله، ولماذا يا إيڤون؟

قالت: لم تحضرا العزاء، أليس العزاء عزاءنا وقد سبق أن عزيتهما عندما مات لهما فلان وفلان..

فقال جدي: معكِ حق.

لم يقل ذلك مجاراة ولا لإنهاء الحديث مثلما كان يفعل معها في السابق، وإنما كان جادًا وربت على يدي التي تحيط بمقود السيارة، وهو يقول: البقاء لله يا ولدي، لم يكن لك في الطيب نصيب.. يرحمها الله ويرحمنا أجمعين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وعندما نام البيت وخلوت بنفسي بالغرفة طافت خديجة أمامي بقدها الذي أكله الموت، وأنا أتذكر يوم أن رأيتها أول مرة في بيت الشيخ، وأحاديثنا في الطائرة ونحن متجهان إلى نيس، وضحكاتنا على نوادر خالها الأستاذ مصطفي بوصاف..

وبت أسأل نفسي عن هذا الجبار الذي تطأطئ له الجباه، جبهة ملك أو جبهة هلفوت!

الطلسم الذي لا نعرف له حيزًا، أو أين هو موجود..

الفراغ المعتم السحيق، الذي نلج بابه ولا نعود..

الخفي الصامت الذي نحسبه عنا بعيدًا، وهو قريب لا يفصلنا عنه سوى برزخ رقيق..

شهقة نفس، رعشة جسد، دفقة تسلب الروح.

ما هذا الذي جعل الشيخ منجي القوي المتين يهوي كما تهوي أوراق الشجر في الخريف، ويأتي له أهل أمي بثيابهم السود!

ما هذا الذي يجمع القريب بالبعيد ويجعل من العدو زائرًا شفيقًا، ويأخذنا من حال إلى حال فنطرق رؤوسنا واجمين ساهمين نتوكأ على بعضنا البعض، ويخُرج كل منا للآخر أحسن ما فيه!

عرفته وأنا صغير..

لم أعرفه في أول أمري بخلقه وطبعه اللذين يعرفهما الناس، إنما بالدمع الذي كان ينساب من عينَيْ أمي كلما جاءت سيرة أبي في حديث.

تكون جالسة مع صاحباتها ويبدأ الكلام، فأرى وجوههن قد تبدلت وألمح الدمع والتمتمة على الشفاه، ويسود المكان صمت وأسى وجو آخر لا يفهمه عقلي الصغير، أو تلقاني جارة على الدَّرْج فتربت على ظهري وتقول لمن معها: "دا جلال ابن جارتنا كاميليا اللي في التالت، مسكين، يتيم".

وأسأل أمي..

وأحتار..

فالسؤال الذي كان يشغلني وقتها، كنت أحسبه يسيرًا بسيطًا وأمي هي التي تتلكأ ولا تريد أن تجيبني، وتقول: لماذا هي وحدها التي معي وأبي غير موجود؟

وعندما فرغ صبرها مني، قالت: مات يا جلال.. مات..

ولم أفهم أيضًا، ورغم ازدياد حيرتي إلا أنه لم يجل بخاطري ولا مرة أن هذا معناه أنه لن يعود، لعلي حسبت وقتها أنه مختبئ في مكان، أو فهمت كلماتها بالأحرف وليس المجاز عندما كانت تخفف عني وتقول: إنه صعد عند ربه في السماء، وأخذت أتأمل الفضاء العريض وأقول: أين هو يا ترى؟ في أي جزء بالتحديد؟ وكيف نصعد له؟! أم هو الذي سوف يعود؟

ولما بدأت أفهم، كنت أسأل نفسي: وهل الحيوان هو الآخر يعرف أنه سوف يموت؟

الشاة أو الحمامة أو أنثى الغراب إذا رأت وليدها أو وليفها ممددًا بلا حراك، هل تعرف أنه مات؟

والذي يموت هل له دنيا هو الآخر؟ وجسد وأهل وأصحاب؟

ودنياه هذه! أين هي في هذا الملكوت الكبير الذي نعيش فيه، وهل يهفو إلينا مثلما نهفو إليه؟ ويرانا مثلما نراه نحن في الأحلام؟

وهذا الذي يموت في غمضة عين، بلا مقدمات أو احتضار، في حادث أو أخذته غيبوبة، هل يعرف هو الآخر أنه مات؟!

لم ألق هذا الجبار وجهًا لوجه، إلا بعد ما عدت من السهرة التي كنت أقضيها مع الأستاذ مصطفي بوصاف..

ناديت على خديجة، فلم تجب..

رفعتها إلى صدري، فهوت من بين يديَّ..

ذهبت..

ذهب الجسد الذي كان دافئًا قبل قليل..

القلب الذي كنت أسكن فيه..

الفم الذي قال: أيقظني يا جلال عندما تعود..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

32

بدت الفرحة على وجه أبي الشوارب، عندما رآني داخلًا إلى مقر الشركة بسان ميشيل.

قام من وراء مكتبه مهللًا واحتواني بين ذراعيه، وصياحه على الموظفين يعلو متراميًا في جنبات الشركة:

- يا أستاذ فؤاد، يا حرفوش، إنت يا صبي يا حرفوش! يا مدام رينيه.

وتوقف موضحًا:

- مدام رينيه هادي موظفة جديدة عّيناها وجنابك بالأجازة.

ثم عاود الصياح:

- يا بولحية، قرب يا أزعر يا جبان، ويا فلان ويا علان.. وينكم! وينكم! الزلمة جلال رجع.

كنت قد انقطعت عن المجيء إلى الشركة، منذ أن قضت خديجة. قرابة الشهر وأبو الشوارب يدق عليَّ الهاتف ويستحثني أن آتي، فالموسم قد أقبل ولدينا بضاعة في حاجة إلى تصريف، وكذلك كان جدي قلقًا على غيابي الذي طال، غير أن الأمر لم يكن بيدي، فلم أكن من هؤلاء الذين يَدَعُون همومهم سريعًا ويقبلون على الحياة، إنما أول ما كان يطرأ عليَّ أمر كبير، كنت أغلق باب الغرفة عليَّ وأترك لنفسي العنان، فتقبض على عنقي كما لو كنت دُمية بين يديها أو ذاتًا ثانية تشخص أمامها، تبكتها تارة وتؤلمها تارة، وطول الوقت تخرج لها من الماضي القديم عذابات ظنت أنها ماتت وتوارت خلف ركام الزمن والسنين. تجترها لها واحدة بواحدة! ولحظة بلحظة! وكلمة بكلمة! بل وبالنظرة والخلجة! وكأنها شريط هم وغم يدار برتم بطيء، وأكاد أجزم بأنه كان يجتاحني ساعتها إحساس بأني لست شخصًا واحدًا، إنما اثنان، وأحدهما لا يكتفي بلكم الآخر بل ويحرص على أن يدميه..

فهكذا كنت عندما تزوجت أمي من (عريس الغفلة) الأستاذ يعقوب، وبعد الذي وقع بيني وبين راشيل، بل وفي مصر وأنا صغير، فكلما مسني الأولاد بكلمة تؤذي كنت أقبع في غرفتي بالأسبوع زاهدًا في الخروج أو حتى الطعام.

تحتار أمي في حالي وتجلس واجمة قلقة، أو تدخل إليَّ وتجلس بجواري على حاشية الفراش. تظن أني محسود! فتريح رأسي على صدرها وهي تملس

على ظهري، وجبهتها تعلو وتهبط مع الغمغمات الخارجة من فمها وتبدو كالأدعية والصلوات، وعندما تفرغ تمسح على شعري متمتمة.. "آمين.. آمين".

تدور بعدها في الشقة بطاسة من النحاس ينبعث منها البخور، تلفها حول رأسي عدة مرات وأسفل السرير وفي الدواليب، وغرفة جدي الذي يسرع بفتح النافذة ويختبئ بجسده كله تحت اللحاف، فرائحة البخور كانت تزكم أنفه وتسبب له السعال.

لا تكترث به أمي كثيرًا، فالتركيز كان عليَّ وعلى غرفتي، وكان لا ينقطع فمها عن الأدعية التي تطرد الأرواح والشياطين بسر سيدنا موسى الذي فلق البحر بعصاه، وسيدنا سليمان الذي سخر له الله الجن والريح..

وجدتي تتابعها وتقول:

- وكمان الحمام، ادخليه مرة واتنين وبخري فوق البلاعات وتحت عقب الباب!

وجدي المختبئ تحت اللحاف، يخرج رأسه قليلًا ويبدو عليه عدم الاقتناع:

- يا بنت الحلال سيبك من الكلام ده كله وطبطبي على الولد وشوفي حكايته إيه، المسألة لا حسد ولا يحزنون، هيحسدونا على نيلة إيه! أنا حاسس والله أعلم إن حد من العيال مزعله في المدرسة.

فترد ضجرة:

- حايلته كتير ومفيش فايدة، ما انت عارف لما يركبه الهم ويقطع الكلام والزاد!

وبعد أن تنتهي مسألة البخور هذه، توارب عليَّ الباب وتسرّي عني بحكايات من الشرق والغرب، حذرة من أن تسألني سؤالًا مباشرًا، فهي تعلم أني لا أنصاع بسهولة وليس في فمي غير كلمة: "مفيش.. مفيش".

تجيئني المسكينة مرة من اليمين ومرة من الشمال وأنا غير غافل عن الذي ترمي إليه، وتضيع هباءً كل محاولاتها لسحبي في الكلام..

فبالله ما الذي أقوله لها؟

أأقول إن الأولاد في المدرسة يلوكون سيرتها بالباطل؟!

يعرونها أمامي كل صباح!

ليس كل الأولاد بالطبع، المنجوس عديم الضمير (سعدون) ابن عم زكريا ترزي القمصان بالعمارة التي بجوار عمارتنا، هو وحده الذي كان يضايقني

ويثير حولي الإشاعات..

أأقول لها إنه يشيع بين الأولاد أن اليهوديات ليس لهن دين يردعهن! وهن في الأول والآخر مجرد غانيات كل يوم في حضن رجل جديد! وأن أمي كذا وكذا... وجدي هو الآخر رجل (بَقْف) لا حمية عنده أو (مَرْجلَة) كسائر الناس..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الذي أفلت من لساني مرة وقلته، كان عن تلك الواقعة التي أشاعها هذا الولد أيضًا عن خالي إيزاك، فقد تفل على الأرض عدة تفلات وقال لثلة من الأولاد تحلقت حوله بحوش المدرسة:

- تعرفوا الواد اللي اسمه جلال؟

وعندما أومأوا بالإيجاب، لحقهم قائلًا:

- طب وعارفين خاله؟

ولا يعبأ بصمتهم، يكمل قائلًا:

- الجدع اليهودي اللي طفش من مصر وعلى طول عدل راح على إسرائيل.

فيتذكر أحد الأولاد الذين يسكنون معي في الشارع، وينجرف وراءه:

- أنا عارفه.. والله عارفه.. وبالأمارة اسمه إيزاك.

- أيوه أيوه عليك نور، آهو إيزاك ده أول ما طب إسرائيل قالوا له هناك: أهلًا وسهلًا يا خبيبي تحب نشغلك فين؟

استرعت كلمة (خبيبي) نظر أحد الأولاد، فقاطع متسائلًا:

- هما بيتكلموا عربي زينا؟

- أُمَّال! بيتكلموا عربي ونص بس كلامهم ملخفن شوية وعامل زي كلام الخواجات! يعني بيقولوا يا خبيبي ويا ربونا والنافوخ بتاع الأنا وحاجات زي كده.

فينفد صبر أحد الأولاد:

- خلاص خلاص عرفنا، وإيه اللي حصل بعدها؟

- أول ما طب وسألوه راح قايل لهم: أنا عايز اتطوع في الجيش عندكم، وفين؟ في سلاح جامد وفيه قنابل ومدافع كتير!

فيرد الولد:

- قال لهم كده، آه ياوسخ يا ابن الكلب!

- ومش بس كده دا اشترط عليهم إنهم يسلموه مدفع كبير، مدفع من اللي إيه!

يتساءل ولد آخر:

- وادوله؟

- أيوه ادوله مش مدفع واحد، اتنين! وعليهم دستة خراطيش!

- آه يا خاين العيش والملح، هه وبعدين؟

- وبعدين إيه بقى، قعد ابن الوسخة ده يضرب ويضرب ويقتل ويدبح في المصريين في حرب سبعة وستين.

- يانهار أبوه إسود..

لا أدري من أين أتى هذا الإبليس بكل هذه المعلومات، وبتفصيلاتها هذه التي تعيي جهازًا عتيدًا للاستخبارات كجهاز (الإف بي آي)!

وأسقط في يدي، لا أعرف ما الذي أقوله أو أفعله غير البكاء، وأن أحلف للأولاد وأقول: إن هذا الولد كذاب..

لم أكن أعرف وقتها وضع خالي إيزاك بالتحديد، هل سافر بالفعل إلى إسرائيل أم لا؟

ولو كان سافر هل التحق بالجيش هناك؟

لم أكن أعرف شيئًا عن كل هذا، ربما بحكم سني ولكون ذلك من الأسرار التي تخص الكبار، ورغم ذلك كنت أحلف وأحلف منكرًا. أحلف بلا تفكير أو تدبير أو استيثاق! أحلف بالغريزة! غريزة الخوف! غريزة الدفاع! أية غريزة! كنت أحمي ذاتي. أتقي شرًا. أدافع عن نفسي. عن أمني. عن جلال! قبل أن أفكر في دفاع عن خالي إيزاك، فجسدي الذي كان يرتعش وهو يحلف، لم يكن معنيًا بخالي هباب! إنما به هو ذاته حيال الأولاد، ولساني ما كان يقسم بأغلظ الأيمان إلا ليقيني بأسهم وأن أعيش بينهم في سلام..

وطالما وقف إلى جانبي (حسن) أخي في الرضاعة، ولا أنسى له أبدًا يوم أن أتى من بيته بمصحف أبيه الصغير، ووضعناه على أعيننا أنا وهو وطفقنا نقسم عليه ونقول: إن (سعدون) كذاب.. والله العظيم كذاب.. وحق هذا المصحف الشريف كذاب كذاب..

لكن من هذا الذي يقف في وجه إشاعة كهذه، نصلها أحدَّ من نصل السكين..

هل أنا؟ بعزوتي القليلة، حسن وولد أو ولدان! أم بجسدي النحيل الذي يخب في قميص من (البفتة) أزيد من مقاسي بنمرتين، وبنطال قصير وجورب طويل يتدلى حتى عنق الحذاء هو وحلقة الأستك العريضة التي تحيط بفتحته!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سألت أمي والدمع يسبق كلامي، فقالت:

- منه لله.. منه لله هو وأي واحد في الدنيا دي عايز ينكد عليك ويأذيك.

واحتقن وجه جدي..

نزل إلى عم زكريا وفي يده التواره، ذكره بالجيرة وحق الجار وأقسم أمامه بأن خالي إيزاك لا يزال في المغرب ولم تطأ قدماه إسرائيل إلى الآن، فنحى الرجل المقص الذي في يده جانبًا وألقي (بمازورة) المقاس التي تحيط بعنقه وخرج غاضبًا يبحث عن ابنه سعدون، ظل يركله حتى أقر بفعلته، وأتى به إلينا وهو يجره من أذنه كالمعيز ويصيح فيه قائلًا: "لولا الفضيحة يا ابن الكلب، لخليت العيال يزفوك في الشارع ويصقفوا وراك ويقولوا الكداب أهه..".

فتأثر جدي ودفعه عن سعدون:

- حيلك حيلك يا أسطى زكريا، خف إيدك عن الولد آهو خلاص عرف غلطته والحكاية من أولها لآخرها كلام عيال.

أجابه منفعلًا:

- لا.لا. ياعم زكي أنا مش معاك ولا هطرمخ الحكاية أنا راخر وأقول دا كلام عيال، اللي عمله دا كتير ويخرب البيوت، وعلى العموم أنا محقوق لك ومستعد أعمل اللي يرضيك، ومن بكره هروح معاك المدرسة وأكدب الكلام ده.

قابلا حضرة الناظر معًا وقالا له ما قالاه، فطيب الرجل خاطرنا أنا وجدي، وصفق مناديًا على (البوشي) الفراش، وكلفه بإبلاغ أستاذ اللغة العربية والدين بالقدوم في الحال.

وأتى الشيخ زكي الطويل..

الرجل الطيب الوقور، الذي يعرف الدين من جوهره والإنسان من قلبه وفعله وليس مظهره..

كان الرجل يعرفني جيدًا، طالما أجلسني أمامه في درس الدين، ودعاني لتلاوة القرآن بصوتي الذي كان أيامها عذبا مؤثرًا.

ربت على كتفي بإشفاق، وأخذني من يدي في اليوم التالي وأوقفني إلى جواره وهو يخطب في الأولاد أثناء الطابور، مستهلًا الحديث بالكلام عن سماحة الدين.

الدين الذي لا يكتمل إلا بالإيمان بما سبقه من رسل وأنبياء: إبراهيم وإسماعيل ويعقوب وإسحاق وموسى وعيسى، وسائر الباقين عليهم السلام.

وينادي على الأولاد، كي يرددوا وراءه ويقولون: إن الدين لا يكتمل إلا بكذا وكذا...

وأن المسلم الحق هو الذي يؤمن بكل الرسل والأنبياء، من أول سيدنا آدم حتى سيدنا محمد ابن عبد الله عليه السلام.

وأن من لا يزال على ملة أو دين منزل من السماء غير الإسلام، هو من أهل الكتاب وله علينا حقوق.

ثم لعن الذين يخوضون في حق الناس بالباطل، فالإسلام السمح الذي نزل على نبينا الكريم بريء من كل فعل يمس الآخرين، مسلمين كانوا أو غير مسلمين..

ويتوقف فجأة مناديًا بصوته الجهوري، ومشيحًا بإصبع السبابة إلى بعيد: أتسمعني يا ولد؟

فيمد ولد عنقه إلى الأمام وهو يشير إلى صدره بأصابعه ظنًا أنه المقصود، غير أن الشيخ يشيح بما يفيد النفي، ويقول: ليس أنت.. ليس أنت، الولد الذي يقف إلى يمينك ويمسح أنفه بكم القميص!

وتحدث حركة وهمهمة في الطابور يحسمها مدرس الألعاب بإخراج هذا الولد خطوة إلى الأمام، هو وولد آخر اسمه (اللطخ) يقف في آخر الصفوف ويتحدث إلى جاره معتقدًا أن أحدًا لا يراه، وأنا أقف في حمى الشيخ زكي، أرمق إصبعه التي تشير وأتطلع برهبة إلى وجهه الأسمر وعمامته البيضاء، وياقة الكاكولة المزمومة على عنقه بإحكام.

وقبل أن يختم الشيخ حديثه، قال: حتى ولو كان خال ولدي هذا كما تقولون!

وانحنى عليَّ يقبلني أمام الأولاد، ثم طفق يقول: حتى ولو كان الذي تتناقلونه بينكم صحيحًا، وهو وفيما علمت غير صحيح، فربنا العزيز يقول: "ولا تزر وازرة

وزر أخرى"، فكفوا يا أولادي عما يغضب الله.

ودفعني بيده دفعة خفيفة، وهو يقول: والآن أسرع إلى الفصل، وإن أساء إليك أحد فتعالَ إليَّ في الحال، فأنا في مقام أبيك.

كانت أيام، مرها يذوب في حلوها..

وسلام عليك يا شيخنا، فقد صرت أدخل قاعة الدرس رافعًا الرأس، بعد أن كانت منكسة من طغيان الأولاد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انشغلنا عن بعضنا البعض أنا وأبو الشوارب، هو بالمحادثة الهاتفية الطويلة التي يجريها وأنا برأسي الذي ذهب إلى بعيد، حيث سعدون والشيخ زكي وجدي الذي ظل قلقًا حتى عدت من المدرسة، ولم يهدأ أو هدأ البيت وعادت فيه الحياة إلى سابق عهدها إلا بعدما قلت:

- الحمد لله.. كل حاجة خلصت، البركة في عم الشيخ زكي.

فيرد جدي:

- والأسطي زكريا كمان، الناس هنا غلابة وبتحق نفسها وجواها الدين..

وأنهى أبو الشوارب محادثته، وانتقل للجلوس على الأريكة التي تواجهني وثغره الباسم يقول:

- أهلين أهلين يا زلمة.

ويسألني عن أحوالي وأحوال الشيخ منجي وصحة الجدة والجد، وشيئًا فشيئًا بدأ يقلل من حديثه المتحفظ ويقص عليَّ نوادره مع امرأته (أم بهلول)، وأنه يا رحمن يا رحيم وهو في عز النوم إلا ويشعر بأنه ينازع ونَفَسه (منحاش)، فيفتح عينيه مرعوبًا ليجدها جاثمة بركبتها على صدره وتهزه بقوة وتصيح فيه: "قوم يا أزعر يا جبان! قوم قوم يا قليل التربية!"، وتحت إبطها العصا التي تستخدمها في تأديب الأولاد. أفزعه المشهد وكلمة منه ولكمة منها إلى أن عرف السبب، فقد سمعته (يهلوس) وهو نائم وينادي على امرأة اسمها (چانيت)، ويفتح ذراعيه ويضمها إلى صدره ويقبلها، يظنها المخدة التى بين أحضانه!

داهمت أبا الشوارب نوبة سعال وهو يكلمني، وبعد أن هدأ أكمل وصدره يعلو ويهبط من اللهاث:

- دخيلك شو بعمل مع ها المرة العجوز! نطيت من التخت (السرير) هربان منا (منها) وكل ما تقرب مني فشخة (خطوة) ببعد عنها فشختين لتظل المسافة بيناتنا واسعة! ودخلنا يا جلال في قصة ورواية ولما أجت لتهاجمني لتلفلي ذراعي رحت أركض لأوضة الأشياء العتيقة (غرفة الكراكيب) وأتيت بعصاية تخينة تخينة مثل رجل التخت (السرير)..

- وليه يا أبو الشوارب؟

- ليش! شو هايدا سؤال! لأحمي حالي يا أخي، ما شا الله هيه بحجم الحوت ولو صرت تحت أيدها بتجبني نصين!

وبحماسة كحماسة الصغار أكمل:

- ظليت أهاوشها، آجي مرة من اليمين ومرة من اليسار لغاية ما انهد حيلها وتركتلي الأوضة.

ولما سألته عن چانيت هذه، تأوه قائلًا:

- ما بتعرفها! الصبية البرتغالية يللي عيناها يا ولدي سبحان المعبود وإلها فم مرسوم كالعنقود وضحكتها أنغام وورود! ورحماك يا عمنا نزار قباني ياللي بتشعر بالنار اللي في قلبي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أحسست بأن أبا الشوارب يود التسرية عني فلم أخذله، انسقت معه إلى أن عرج بنا الحديث إلى أحوال الشركة، فقال: إن لديه موعدًا في الثانية عشرة ظهرًا مع (فيظي أجاويد) على مقهى الفوكيت بالشانزليزيه.

قطبت ما بين عيني محاولًا تذكر الرجل، فلحقني قائلًا: فيظي أجاويد! أنسيته! التاجر التركي الذي يزعم أنه من سلالة السلطان عبد الحميد آخر سلاطين بني عثمان!

فتبسمت..

- أيوه أيوه افتكرته.

واقترح عليَّ أن نذهب معًا للقائه..

كان هذا الفيظي أجاويد جاثمًا كما الفيل على مقعد من الخيزران يتصفح جريدة (الفيجارو)، والمقعد المسكين يئز لأدنى حركة تحدث منه، وأمامه على سطح المنضدة مطفأة سجائر مليئة بالرماد والأعقاب وزجاجة (بيريل) من الحجم العائلي أطاح بنصفها، غير قدح من القهوة لم يعد فيه سوى رشفة

واحدة. الجديد في الأمر هو الطربوش الذي وجدناه على المقعد المجاور مقلوبًا على رأسه، وبداخله جراب نظارته الطبية وسلسلة مفاتيح مذهبة، وبجواره منشة أثرية للذباب لها مقبض من العاج.

كنا نرى فيظي بك من قبل إما بالقبعة أو حاسر الرأس، ولما سألناه أجاب وهو يطقطق على حرف المنضدة بظفره مستمتعًا: لهذا حكاية، بل وحكاية كبيرة! فقد عثرت على الطربوش والمنشة بين مخلفات جدي أجاويد باشا رحمة الله عليه، قلبتهما يمينًا ويسارًا فأعجباني، فقلت في نفسي: لماذا لا أخلد ذكرى جدي العظيم بهما، وأفعل مثلما كان يفعل!

وتمخط بعنف وبفرقعات عالية وأنفه والمنديل القطني الذي عليه يعلوان ويهبطان في مشهد كئيب، ثم ضرب على صدره عدة ضربات بكفيه وأخذ شهيقًا عميقًا صاحبه شيء كالصفير، ثم قال: غير أنكما تعرفان أن هذا الأفندي الذي إسمه أتاتورك!

فقاطعناه قائلين: إن كمال أتاتورك كان (باشا) وليس مجرد (أفندي).

طرق على المنضدة بضجر، وقال محتجًا: ما دام أنا قلت إنه أفندي يبقى أفندي.

وبوجه محتقن كررها ثانية: فيظي بك عندما يقول إن أتاتورك أفندي! فإذن هو أفندي! مفهوم!

وأحب أن ينهي اللقاء لولا أن أشحنا بكفينا معتذرين، ونحن نقول بصوت واحد: مفهوم مفهوم! خلاص خلاص يبقى أفندي!

ويبدو أن غضبه أنساه ما كان يتحدث فيه، فسألنا ولما ذكرناه بدأ بالكلام عن هذا الأفندي أتاتورك الذي أصدر فرمانًا يحرم على أجداده العظام ارتداء الطربوش، وأن هذا الفرمان لا يزال ساريًا حتى الآن. وفاجأنا بطرقة شديدة بكلوة يده على المنضدة أطاحت بزجاجة البيريل على جنبها وارتعشت المطفأة وقدح القهوة، والناس (الشيك) المحترمون الذين حولنا يتلفتون علينا، يظنوننا في مشاجرة، وأبو الشوارب يتقهقر بالمقعد مخافة أن يطاله البيريل الذي انسكب ويجري تجاهه، أما فيظي بك فليس هنا! تحسس طرفَيْ شاربه المرفوعين إلى أعلى وطفق يقول: قلت آه! لماذا لا ألجأ إلى الحيلة وآخذ الطربوش معي وأضعه على رأسي في أسفاري وهي بحمد الله كثيرة! فما رأيكما في هذه الفكرة؟

فرددنا عليه معًا: سبحان الله فكرة جهنمية بالفعل، عفارم عليك يا فيظي بك!

خلع النظارة ومسح على جفنيه المليئين بالشحم والدسم، قائلًا: وبهذا أكون قد ضربت عصفورين بحجر واحد! فعلت الذي أريده، وضحكت على الحكومة التركية في نفس الوقت، لبست الطربوش وهي غارقة في السبات، فما رأيكما؟

فرددنا عليه مهنئين: الله على هذا التكتيك! عفارم عفارم..

ويبدو أنه أعجبته فعلته هذه وأنه ضحك على الحكومة التركية، إذ رجع بمنكبيه وأخذ يقهقه ويوغل في القهقهة والمقعد يهتز مع اهتزاز جسده، وعيناه هما الأخريان تبرقان وتضحكان، ووقعنا أنا وأبو الشوارب في حرج بعد أن قام رواد المقهى بالالتفات نحونا ثانية وهم متذمرون من الضجيج الذي نحدثه.

استحالة أن تكون قهقهته الخرافية هذه خارجة من حنجرته وحدها! أكيد وأقسم على ذلك أنها آتية من موضع آخر به آلات تهدر، معدته مثلًا أو من أم التلافيف! ونظرنا أنا وأبو الشوارب لبعضنا البعض بأحرف أعيننا دون أن نعلق..

وكنا نعرف أن هذا الفيظي بك لا يقول الكلام ويضحك عليه فقط بل (ورغاي) أيضًا، وقد سبق أن اتفقنا على أن نترك له نصف ساعة فقط يرتع فيها ويلعب ويقول الذي يقوله، ثم نتدخل بعدها ونوقفه للكلام في الأشياء المفيدة. وتركناه بالفعل يتحدث عن السد الذي تبنيه تركيا على نهر الفرات، وعن حرب إيران والعراق، ويتشعب هنا وهناك. وبعد أن انقضى الزمن المحدد له جررناه عنوة إلى ما نريد، وعرفنا أنه ينوي توسيع تجارته في ألبانيا وبلغاريا وبلاد الصرب، التي لا يزال مصممًا على اعتبارها مستعمرات للدولة العثمانية، وأنه على استعداد للتوقيع معنا على عقد بمليونَيْ فرنك لشراء بضاعة منا، وبعد أن اتفقنا على الترتيبات، غافلنا وبدأ يتحدث عن جدته (زركش هانم) التي كانت تملك وحدها ألفَيْ فدان بسهل الأناضول وتزرعها بالخيار واللفت والبطيخ! تبادلنا أنا وأبو الشوارب النظر ثانية، قلنا لبعضنا البعض بالأعين، طالما أتممنا الاتفاق فلماذا لا ندع (ابن المجنونة) هذا ونترك آذاننا قليلًا (للهجص) الذي يقوله.

وعندما رغبت في الانصراف أراد أبو الشوارب إثنائي ودعوتي إلى الغداء، فاعتذرت متحججًا بأن لدي موعدًا على مقهي (الديماجو) بسان چيرمان. وتأملت فيظي بك أجاويد وهو خارج من المقهى يتبختر ببدلته ذات الصفين، وياقة قميصه المشدودة المنشاة، والطربوش الذي أماله قليلًا إلى اليسار والمنشة التي تروح وتجيء في يده، ناهيك عن الساعة (أم كتينة) التي بجيب الصديري.

بدا وكأنه شخص أتى من القرن الماضي ليقاسمنا الزمن الذي نحن فيه، لم أكن وحدي الذي أتأمله، كل الذين في المقهى رفعوا رؤوسهم يتابعونه وهو يدلف من الباب. ولولا أنه لا يوجد في باريس (حناطير)، لاستدعيت له حنطورًا بحصانين يقله إلى المكان الذي يبغيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم أكن مرتبطًا بميعاد كما قلت لأبي الشوارب..

لم أكن مرتبطًا بميعاد كمواعيد الناس، إنما أسلمت زمام نفسي لقلبي، فأخذني إلى هناك..

ألح عليَّ هذا الأحمق، غلبني على أمري، فأتيت إلى مقهى الديماجو وجلست حيث جلسنا أنا وخديجة يومًا ما..

كان يود أن تشعر بخفقه وهي في السماء! خفقه الذي ضن به وكانت تترجاه.. وبدا لي أن الألم الذي جرفني وغرقت فيه ليس وحسب لفراق، ليس كله ألمًا من الآلام التي تنحلها الأيام كلما بعُدَ الزمن وطال أمد الفراق، وإنما يشاطره في قلبي ألم آخر! شجن آخر! حسبته في أول الأمر عتابًا ولومًا وتأنيبًا!

فقد كنت لخديجة الحب الأول والأخير..

الزوج الأول والأخير..

أحبتني في السر والعلن، وبالقلب والجسد.

أما أنا.. فلم أكن أحرص إلا على أن تعيش معي في سلام، أن أرعاها بالحسنى التي اشترطها الشرع والدين، أما قلبي فلم يكن لي عليه سلطان.. وإذا قضني هاجس، كنت أعزي نفسي وأقول: ما الذي بيدي! لعل القلب يهواها في قابل الأيام..

لم أردع هذا القلب ولو مرة، أو حتى عاتبته أو فكرت يومًا في حيلة تغويه!

لم أفعل..

تركته يهيم فيما يهواه..

تشير له خديجة.. تمد له كفها ليحط فيه.. فيعاند! يلوي عنقه ويحلق إلى بعيد! وعندما تطل نادية ولو من بعيد، يرفرف ويخفض لها جناحًا بعد جناح!

كنت أدع نفسي للأيام، كنت أقول: لعله ينساها.. لعل خديجة تقصيها.. لعل ولعل مع الأيام، وخلا من بالي أنه لم تعد هناك أيام..

وأكل الموت خديجة، ليصير الألم ألمين.. ألم الفراق وألم الضمير.

وأسأل نفسي الآن هل هو مجرد ألم ضمير، هل اختياري لهذه المنضدة بالذات مجرد ألم ضمير! هل جلوسي على ذات المقعد وفي نفس الموضع الذي كانت خديجة تجلس فيه مجرد ألم ضمير..

وعندما وقف حيالي النادل قبل دقيقة، تذكرت أنها تناولت قدحًا من القهوة وأنا قدحًا من الشاي..

فقلت: قدح قهوة.

قال: دكناء أم بالحليب؟

فقلت كما قالت: قهوة بالحليب!

فهل هذا مجرد ألم ضمير..

ما هذا الذي بدأ يسكن في جنبي؟ أهو وجد.. أهو شوق!

هل أدرك القلب العاصي ذنبه واشتاق!

اشتاق..

كانت أمامه بالأمس القريب، جسدًا من لحم ودم! وهمس ونبض وعروق!

ألا يشتاق هذا الأحمق إلا الآن، بعد أن صارت طيفًا ودفقة نور!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سمعت طرقًا بالأمس على الباب، فتحرك قلبي وأنا أسمع الصوت الذي يحدث جدي ويقول: أين هو جلال؟ أدخلوني عليه..

نعم، تحرك قلبي ليس لأنه الشيخ منجي وحسب، بل لأنه والد خديجة! فقد بدأت أهفو لكل من يأتي من ريحها..

جلسنا معًا أنا وهو وجدي وجدتي، سألني: لماذا لا تذهب إلى عملك يا ولدي؟ هل من الدين أن تقاطع الدنيا التي خلقها لنا الله! هل من الدين ألا تسلم بقضاء الله!

لم أقوَ على رد حججه، كما لم أجرؤ أن أقول له: ليس الأمر كما تحسب يا شيخنا، وإنما كان بيني وبين قلبي كلام..

صمت، واستمر هو يقول: لقد لزمت بيتي ثلاثة أيام خرجت بعدها إلى الدنيا والناس وباشرت الحياة، والذي في قلبي على ما هو ولا أسأل الله إلا تخفيفه

وأن يصبرني على الفراق.

وجدي يمد رأسه منصتًا، ويقول: قل له يا سيدنا الشيخ.. بصره.. وعيّه..

فيرد عليه: جلال شاب عاقل يا عم زكي، ومن باكر سيرجع لعمله ويجيئني ليؤنسني في الدكان.

كانت المرة الأولى التي يقول فيها (يا عم زكي)، أو يمد يده ليأخذ قدح القهوة من يد جدتي، والتي فوجئت بها تقول لجدي:

- نفسنا نجرب اللحمة بتاعة عم الشيخ، إيه رأيك يا أبو إيزاك؟

فسطعت الفرحة على وجه جدي، وهو يقول:

- ياريت! ياريت!

أنا الذي ساورني القلق ونظرت إلى الشيخ بجانب عيني، وأظن أنه فهم إذ طلب من جدتي أن تمر عليه وتختار الذي تريده من اللحم الطازج. من وجه الفخذة إذا كانت ترغب في عمل (بوفتيك)، وإن شاءت طهي الطواجن فبيت الكلاوي موجود، أو يجهز لها عرقَيْ (فليتو) إذا كانت تهوى اللحم البارد.

فحمدت الله على أنه أخرج من حساباته الثلاجة – إياها- التي خصص محتوياتها لزبائنه المماطلين!

وقبل أن ينصرف الشيخ، قالت لي جدتي مازحة:

- لو فضلت قاعد يا ابني ومسمعتش كلام سيدنا الشيخ، من بكره أنا اللي هروح بدالك لغاية لما تفوق لنفسك! حكم أنا معايا البكالوريا وبفهم في الحسابات كويس، وللا أيه رأيك يا زكي؟

فانزعج جدي:

- كده إيه! وبعدين لا بكالوريا ولا جامعة حتى تنفع، دي تجارة وبيع وشرا وتصدير وشغل كبير، حاجات مش بتاعتك، ثم إنك ساقطة في البكالوريا!

وتدخل الشيخ منجي قائلًا: أسرع يا ولدي قبل أن تدهم جدتك مقر الشركة وتبطش بالموظفين والعمال، وتهد في دقيقة ما بنيته أنت في سنوات!

فأجابته ضاحكة:

- يا شيخ منجي..

التزمت بكلام الشيخ ومن حبي له ولخديجة اعتبرته أمرًا لا يُخالف، وها أنا أفعل وألتقي بأبي الشوارب وفيظي بك ثم أعرج إلى مقهي الديماجو.

ضمت خديجة أباها مع جدي وجدتي في جلسة حميمة!

لكن بعد أن فارقت الحياة..

وعرفت أني كنت أحبها!

وأيضًا بعد أن فارقت الحياة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

33

كنت ألهث والكلام يخرج من فمي متقطعًا:

- إيه اللي حصل يا جدي، وإمتى؟ دا أنا سايبها الصبح في أمان الله!

كان وجهه معتمًا، وتلقفني أول ما اقتربت منه:

- يدوبك بعد انت ما نزلت بيِجي ساعتين، قامت تعمل لنا القهوة ومفيش! هُمَّه خطوتين واتطوحت على الأرض..

- وقالوا إيه؟

- بيقولوا جلطة! ربنا يستر..

كنا بالدور الثاني بمستشفى (سان لوي) حيث الحالات الحرجة، الممر طويل ومطلي بلون أفتح قليلًا من لون (السيمون) وفي نهايته ساعة معلقة على الجدار تشير إلى الثانية عشرة ظهرًا إلا خمس دقائق، وغرف غرف تواجه بعضها البعض، أبوابها موصدة وعليها الأرقام ولافتات بإطار خشبي مدون على بعضها عبارة تحظر الدخول، وبأعلى باب الغرفة التي على يسارنا بخطوتين لمبة تطفئ وتضيء، لمبة حمراء في حجم ثمرة النبق، وممرضة نحيفة حادة الملامح تخرج من خلف الكاونتر الذي بمنتصف الممر، وتأتي قبالتنا مسرعة حيث النداء، فتحسَّب جدي منها وأخذني من يدي إلى الأمام، خشي أن تنهرنا لوجودنا في هذا المكان المحظور على الزوار.

ورأينا محفة على أربع عجلات تقبل مسرعة من أول الممر بفعل رجلين يدفعانها بشدة، وبإزائها طبيب بالرداء الأخضر الذي يرتدونه عند إجراء العمليات، وممرضتان واحدة منهما تقبض على أنبوبة محلول مثبتة في عمود بأعلى المحفة، ورجل بدين وفتاة في بداية عقدها الثالث، أظنهما من أقرباء الجاثي أو الجاثية على المحفة، وكلهم يهرولون، الرجل البدين هو الذي كان متأخرًا عنهم قليلًا. وقد سبقت الممرضة الثانية ودفعت أحد الأبواب المغلقة، لتنحرف المحفة مسرعة منه ثم أوصدوا الباب مخلفين الرجل والفتاة، فوقفا برهة واجمين ثم نظرا إلى الباب الذي أغلق وقفلا راجعين بخطوات مهمومة حتى واراهما السلم الذي عرجوا إليه هابطين.

وعلق جدي:

- آهو النظام هنا كده، لما تيجي حالة خطر والعياذ بالله بيخطفوها خطف من على الباب وجري جري على أوضة العمليات وللا على فين ما أعرفش، زي ما

يكونوا في سبق مع الموت..

ثم التفت نحو إحدى الغرف، أظنها الغرفة التي بها جدتي، وطفق مكملًا:

- آهو عملوا كده معايا، لقيتهم مستنيين على بوابة الطوارئ وخطفوا جدتك من عربية الأسعاف وطيران! وأنا واقف متبرجل، وفين! ييجي نص ساعة لما سمعت النداً بالميكروفون، جريت، قالوا لي: إدينا البيانات؟ قلت: بيانات! أُمَّال هيَّه فين؟ قالوا: فين؟ فين دا إيه! الدكاترة شغالين معاها من ساعتها إنت اللي فين؟ ويللا يللا بالسلامة على بيتكم، قلت لهم: على بيتنا! بيت إيه وبتاع إيه! أنا مش منقول من هنا، واتصلت بيكم وآديكم جيتم..

درت بعيني متلفتًا على غرفة جدتي..

- بتبص على إيه! يللا يللا من هنا هو انت فاكرهم هيسيبونا نقف في الطرقة كده، فيه استراحة في الدور الأرضي للناس اللكعين اللي زي حالاتنا وساعتين وللا تلاتة ويقفلوها وكله على بره، أنا بس اللي كل شوية أطلع وأعمل نفسي تايه!

- يعني مقدرش أطل عليها؟

- تطل أيه وبتاع إيه إنت عايزهم يطلبوا لنا الأمن، تعالى تعالى على الأستراحة ربنا يهديك حكم الجماعة بربطة المعلم قاعدين كلهم هناك.

ووجدناهم..

أمي وخالتي بيلا وراشيل وخالي شمعون ومعه زوجته سارة، تبادلنا سلامًا كئيبًا، أمي هي التي انفرجت شفتاها عن ابتسامة بمقدار أربعة ملليمترات.

درت ببصري بغير قصد، فظنت أمي أني أتساءل عن الباقين وقالت:

- أونكل يعقوب وهارون بيه سافروا مصر..

ونكتت ذراعها متململة، وتقول:

- والله ما أنا فاكره من إمتى، عيا الماما لخبط دماغي.

فأسعفتها خالتي:

- سافروا يوم الحد العصر والنهارده الخميس، يعني! يعني!

وأخذت تعد على أصابعها باللغة العبرية وبصوت أقرب إلى التمتمة: "آحاد. إشنايم. شالوش. أربع"، ثم أردفت:

- آهو كده يبقى لهم أربع تيام، وإيزاك كمان طلع من إسرائيل أول امبارح علشان يقابلهم هناك.

وبنبرة متأسية:

- دا روحه في الماما، ولو عرف هيقطع السفريه ويبجي على طول.

ورغم الموقف الذي كنا فيه، تساءلت:

- مصر؟

فأجابت أمي:

- مش مصر بالظبط! راحوا سينا، حيتقابلوا في شرم الشيخ.

كان جدي مطرقًا، رفع رأسه معلقًا بضجر:

- وهيَّه سينا فين! في الكونغو! وللا في البرازيل! مش في مصر برضه!

لم تكترث به أمي، استمرت تحدثني:

- المشوار كله أسبوع واحد، قلنا بلاش نتصل بيهم علشان منعملهمش إرباك إلا إذا الأمور اتطورت لا قدر الله، فأول واحد لازم نبلغه هو إيزاك.

ولحقتها خالتي:

- ربنا يسهل لهم، واحتمال النهارده وللا بكره يخلصوا العقد الابتدائي بتاع الأرض اللي في خليج نعمة.

ومالت كل منهما على الأخرى تتهامسان..

رغم ذلك كان أغلب الكلام يصلني، خالتي تقول أن زوجها هارون لن يسمح للأستاذ يعقوب أو لأخيها إيزاك بمشاركته إلا على أساس السعر الجديد، فأسعار الأراضي هناك أصبحت في السماء، وأن تكون له إدارة كل صالات القمار في الفندق الذي سوف يقيمونه. وأمي تؤكد لها أنه لو كان الأمر هكذا فسوف يرفض زوجها يعقوب، فقبل أن يسافر أبلغها بأن صالة القمار الكبيرة أو الصالة السكوندو (رقم2) على الأقل لابد وأن تكون في يده، فترد عليها خالتي قائلة:

- طيب وإيزاك هينوبه إيه! إذا كان كل واحد منهم معربن على حاجة من أولها كده!.

وسارة زوجة خالي الجالسة على مسافة منهما عيناها متحفزتان، وترهف سمعها لمعرفة ماذا تقولان! لكن بلا جدوى، فتزحزحت قليلًا بمقعدها حتى اصطدمت بالمقعد الذي يجلس عليه جدي فنظر إليها مستغربًا مما تفعل، كما مدت عنقها تجاههما على نحو مكشوف فردعتها أمي بعينيها وأعادتها إلى الوضع الأول الذي كانت عليه. وكل من جدي وخالي شمعون وراشيل صامتون لا يعنيهم شيء مما يُقال، أما أنا والذي أجلس إلى جوار أمي مباشرة فكنت أسمع بلا أي مجهود، ومن شدة الفضول كنت حذرًا لا أعلق بكلمة أو أفضح السكون الذي أنا فيه، حتى لا يتوقف حديثهما ولا أعرف بالضبط ما الذي يفعله هؤلاء القوم بشرم الشيخ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

"هُمَّه ساعتين" كما قال جدي، وأطفؤوا علينا أنوار الاستراحة وأغلقوا بابها، فانصرفنا كل إلى حال سبيله، أما أنا وجدي فإلى أحد مطاعم الوجبات السريعة، جلسنا بعدها على مقهى صغير بتقاطع شارعيْ سان ميشيل وديز إيكول، وكوب عصير في قدح قهوة وجدي سيجارة في سيجارة حتى خف توتره وبدأ يتمالك ويمسك بزمام الجلسة، هو الذي يتكلم وأنا أسمع!

كان يؤرقه مرض جدتي وحاله بعدها، وتذكر أشياء قديمة..

يوم أن رآها أول مرة بصحبة والدتها (زليخة) في حفل زفاف أُقيم على سطح إحدى العمارات بحي المغربلين، كان رجلا مسلما اسمه الحاج ياقوت هو الذي يقيم الحفل لابنته، وأسرة جدي وجدتي وأسر يهودية أخرى بين المدعوين.

وتوهجت عيناه..

- كان السطح بيشغي يا جلال، رجاله على ستات! مسلمين على يهود! أصل الحاج ياقوت رحمة الله عليه كان عنده مسبك فضة في الزاوية الحمرا والأسطوات اللي عنده نصهم يهود فحب يجاملهم. وليلتها شفت جدتك قاعدة هناك مع الماما بتاعتها، يبتدي الرقص ترقص! الغنا تغني! الزفة تزف! قعدت أسأل أسأل قالولي دي بنت الأسطى سوارس بس خايبة في المدارس سقطت في البكالوريا تلت مرات إنما إيه! شاطرة في شغل الإبرة والتطريز! إيشي مفارش، إيشاربات، أحرف ملايات، إيديها تتلف في حرير، بتشتغل في البيت وتبيع للمحلات. بس خلي بالك راسها ناشفه وبتاعة خناقات، دا في مرة اتخانقت مع صاحب محل وبطحته وراحوا (التُّمْن) وسين وجيم! معرفش ليه دخلت في دماغي وكان اللي كان..

ونقر على حافة علبة السجائر مخرجًا واحدة، تأملها وقرب حافتها العلوية إلى أنفه يتشمم رائحة تبغها الجاف ثم أشعلها:

- كانت أيام حلوة يا جلال، لا تعرف المسلم من اليهودي من المسيحي، ولا حزازات ولا أنا ملتي إيه وانت ملتك إيه! كل حي في حاله والرب لا رب كوهين لوحده ولا على ولا نصيف، الرب رب الجميع، مش عارف الدنيا اتقل خيرها ليه؟!

أحس من عيني بأني أتساءل أو أبغي شيئًا من التوضيح، فأردف:

- دا على السمع اللي بسمعه دلوقتي من الناس اللي جايه من مصر، بيتكلموا عن المشاكل اللي بتجرا في الزاوية الحمرا وعين شمس وأسيوط ومش عارف فين وفين! إنما أيامنا كانت حلوة ولا عمرنا حسينا فيها بحاجة من دي.

وسعل فجأة مطفئًا السيجارة بضجر:

- السجاير الفرنساوي دي حامية بشكل، متعرفش تشرب سيجارتين ورا بعض! النهاية.. زمان كنا بنحضر أفراح بعض ونعزي بعض، دا أنا في طهور خيلانك إيزاك وشمعون..

وضحك معجبًا بنفسه:

- أصل أنا طاهرتهم الاتنين في يوم واحد، يوميها الستات والرجالة اللي حضروا كان أكتريتهم مسلمين! وإيه! كان الحاخام بتاعنا يشد تلغرافات للمشايخ الكبار في العيد الصغير والكبير وعلى هلة رمضان وهُمَّه يردوا عليه في عيد الفصح ويوم الغفران، وكان مصطفي باشا النحاس رحمة الله عليه ييجي يزور معابدنا في أيام الأعياد، ياما جه وياما راح هو ورجالة الوفد الكبار سراج الدين وإبراهيم فرج ومحمد صلاح الدين...

وهز رأسه وعيناه تغربان إلى بعيد:

- دا حتى محمد نجيب وهو رئيس الجمهورية جه زار معبدنا الكبير، كانت الثورة لسه قايمة والدنيا برضه بخير والعيال الصهاينة قلالات الأدب المجرمين معملوش عمايلهم الوسخة وفجروا ونيلوا الدنيا[39]، نكدوا علينا الله ينكد عليهم وخلوا الجماعة بتوع الثورة ياخدوا العاطل في الباطل.

وتوقف يسألني:

- إلا بحق، هو محمد نجيب لسه عايش وللا لأه؟

- معرفش يا جدي.

- متعرفش! طيب.. آهو دا اللي إنت فالح فيه كل حاجة معرفش!

ودخلنا في برهة صمت طويلة أشعل جدي خلالها لفافة تبغ جديدة وحدث له ما حدث من سعال، غير أنه أصر على استكمالها وباغتني قائلًا:

- تفتكر لو ربنا أذن وجدتك اتوفت ندفنها فين؟

حدقت فيه مستغربًا، وربت على كفه الجاثم على المنضدة.

- استعيذ بالله كده يا جدي واطلب لها الشفا..

- الرب عارف قد إيه بتمنى لها الشفا، بس أصلك لو كنت معايا الصبح وشفتها كنت عذرتني في اللي قلته! العين اللي كانت مصحصحة ومفنجلة غربت مرة واحدة، وقعدت تهلوس كلمة من الشرق وكلمة من الغرب..

وبنبرة أخفض:

- مش عارف هتعدي من الحكاية دي إزاي؟!

ومكثنا أنا وهو واجمين إلى أن مضى أمامنا النادل، فاستوقفته طالبا كوبًا من عصير الليمون وآخر لجدي فأشاح بيده.

- لا عصير ولا يحزنون أنا هشرب قهوة.

وسيجارة جديدة وقال:

- أنا بس بسألك علشان أعرف اللي عملتوه ساعة الله يرحمها خديجة.

ولم أفده بشيء أيضًا، فأبو مخلاع هذا الشيخ القرد هو الذي أنهى كل الإجراءات وحده. كنت أعرف أنه أشبه بشيخ الحارة بالنسبة للتوانسة الذين يقطنون بمنطقة بارباس، فهو أول من يحضر عند حدوث وفاة والذي يباشر إجراءات تجهيز الموتى والدفن ومراسم العزاء واستخراج التصاريح وشهادات الوفاة، فضلًا عن التحضير للزواج وحفلات الطهور، وكان أيضًا عضوًا في لجنة الزكاة، ولا تمضي مناسبة حزينة كانت أو مفرحة إلا وأبو مخلاع له باع فيها وحضور، وكل هذا لوجه الله.

فقلت لجدي:

- تحب أسأل الشيخ بو مخلاع؟

- لا.لا. أحسن الراجل يفتكر إننا مستعجلين عليها..

ومسح ذقنه وطفق يقول:

- أصل يا ابني وعلى حد علمي الترب هنا مش زي مصر، حتة للمسلمين وحتة لليهود وحتة للمسيحيين، فرنسا يا سيدي بلد علمانية وكله سايح على بعضه في حيا وللا موت، وأنا لا فكرت أحجز تربة ولا جه في بالي إن حد منا هيندفن هنا أبدًا..

وشتَّ ببصره..

- كنت فاكر..

وسكت.

أدركت ما يتألم منه، بيد أنه لم تكن لديَّ طاقة - في هذا الوقت على الأقل- على فتح موضوع مصر، فاعتصمت بالصمت، هو الذي استمر:

- طيب تفتكر لو رحت للجماعة في السفارة وقدمت لهم طلب علشان يدفنوها في مصر هيوافقوا؟ آهي تندفن جنب أمها وأبوها وبقية أهلها.

وددت أن أنهي الحديث، قلت له: ما رأيك في جولة بالسيارة قبل أن نرجع إلى البيت، الساعة الآن الثالثة والنصف والناس لا تزال في أشغالها.

وأظنه فهم، إذ قال وهو يلملم أشياءه من على سطح المائدة:

- كده.. طيب يللا بينا وساعتها يحلها ربنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أخذته في جولة بالسيارة، بدأنا من شارع سان ميشيل حيث كنا واتجهنا إلى شارع إميل زولا فشارع الرئيس كيندي، وهو يتأمل الناس وواجهات المحلات بوجه ساكن شبه ناعس، وعندما وصلنا إلى ميدان شارل ديجول الواسع العريض حيث ينتصب قوس النصر بملامحه العتيقة وبنيانه المتين، أزاح ظهر المقعد إلى الوراء ورجع بمنكبيه مسبلًا عينيه، حسبت أنه دخل في غفوة فأغلقت مفتاح الكاسيت على عبد الوهاب وهو يترنم بمطلع قصيدة الكرنك ويقول:

حلــم لاح لعـين الســاهرِ

وتهـادى فـي خيـال عـابرِ

وهفا بين سكـون الخاطــر

يصل الماضي بيمن الحـاضرِ

فقال وعيناه مغمضتان:

- ليه ليه! اسمع يا ابني براحتك..

فأعدت فتح الكاسيت ودرت دورة حول قوس النصر فثانية وثالثة وأنا أتهادى بطيئًا، وشارع الشانزليزيه يلوح لي كلما انحرفت دائرًا بالسيارة على يسار الميدان. يلوح باتساعه وجنونه وأشجاره وبناياته القديمة ومقاهيه ذات التندات، ودفقة شجن، شجن ممتع لذيذ، تغمرني وعبد الوهاب يتألم ويقول:

حين ألقى الليل للنـور وشـاحه

وشكا الطل إلى الرمل جراحه

يا تُرى هل سمع الفجر نواحـه

بين أنغـام النخيل العاطــرِ

والميدان ذاته من قلة المركبات يبدو أكثر اتساعًا عن ذي قبل، والتي تعبره منها تعبره بلا ضجيج يذكر أو نفخة بوق، فيما عدا سيارة من سيارات المدارس في حجم (الميني باص) هي التي كانت تثير القلق والإزعاج. الأولاد والبنات الصغار العائدون من المدرسة يطلون برؤوسهم من النوافذ ويصيحون علينا، وأصوات تنبعث من الداخل كأنها أغنية جماعية يتغنون بها، حتى السائق المحترم العجوز أصابته العدوى هو الآخر ولا يكف عن إطلاق الزمير.

استوقفه شرطي المرور، وأشار إليّ أنا الآخر كي أقف وراءه.

استمر يوبخه طويلًا والرجل كما (الألف) يومئ له برأسه كل لحظة دون أن يرمش بعينه أو يفتح فمه بكلمة، فمخالفات المرور هنا لا ترحم وقواعد السير كالسيف على رقاب العباد، وشعر الأولاد فأدخلوا رؤوسهم وجلسوا مؤدبين، وانطلقت السيارة بلا همسة ضجيج، ثم دنا الشرطي مني فدق قلبي.

سألني عن سبب سيري بطيئًا وعن هذا الرجل العجوز الذي بجواري؟ هل هو نائم بالفعل، أم في غيبوبة؟!

ونبه عليَّ بأن أسير بالمعقول كما الناس، وإلا.. ها.. ورفع دفتر المخالفات الذي في يده مهددًا واستيقظ جدي، مسح بكف يده شيئًا كاللعاب انساب من فمه وهو نائم ثم سألني:

- عايز إيه الأفندي ده؟!

- لا مفيش، دا بس بيطمن عليك.

- حكم دول عاملين زي الديوك، وبكلمة منهم يسحبوا الرخصة غفير كتّ ولا وزير!

كان شارع كليبير هو الأقرب فلجأت إليه مبتعدًا عن هذا الشرطي، وشارع فآخر حتى لقيت نفسي في سان ميشيل ثانية، فانتبه جدي:

- يادي الخيبة! هترجعنا تاني..

- ربع ساعة وهنكون في البيت.

- ربع ولّلا نص هو احنا ورانا إيه!

وغفا ثانية وأنا أشق سان ميشيل مخترقًا شارع ريڤولي المتعامد عليه فشارع سان مارتا، وانحرف صوب منطقة بيجال حيث ملهى (المولان روچ)، وبعده بعدة خطوات لكن على الجانب الآخر ألمح بعض إخواننا الشوام يقفون أمام ملهى (الجرذ) ملهاهم الأثير، وطاف ببالي أبو الشوارب وهو ثمل ويدق على إحدى طاولات هذا الملهى اللعين باحثًا عن شجار مع أي أحد.

وتمطى جدي فاتحًا عينيه، برهة وقال:

- تفتكر الواحد بعد ما يموت ربنا هيكرمه ويدخل الجنة..

فطنت إلى الاضطراب الذي هو فيه منذ أن دخلت جدتي المستشفى، وأحببت أن أشد من أزره:

- ربنا يديك الصحة والعمر الطويل، إنت راجل طيب وصالح والجنة للناس اللي زيك.

- تفتكر..

قالها خائفًا قلقًا وهو يطفئ عود الثقاب، ويسحب أول نَفَس من سيجارته العشرين.

- أصل الجنة دي يا ابني عامله زي النجوم اللي في السما، النجوم اللي فوق في العلالي والموعود بس هو اللي يطولها، اللي يفضل يبيع يبيع وما يشتريش إلا رضا ربنا، اللي لا يظلم ولا يفتري ويساعد ويرحم حتى فرع الشجرة لا يشده من غير عازه أو يرمي خرطوش على طير في السما علشان يتسلى..

وأخرج زفيرًا طويلًا:

- الأنبيا يا جلال من أول آدم لحد محمد عملوا اللي عليهم وراحوا لرب كريم ومعدش لنا حجة، كل واحد منا بقى متعلق من عرقوبه..

حككت أرنبة أنفي وأنا أقول له متخابثًا:

- يعني انت بقى مآمن بأن سيدنا محمد نبي؟

- يا سيدي نبي ونبي.. يا سلام يا جلال على أسئلتك اللي ملهاش عازة! وهو أنا بعد السن دي والدنيا اللي خدتني يمين وشمال وخطوة وللا اتنين وهبقى في كف رب كريم عدت بفكَّر في نبيك مين ونبيي مين! أنا همي دلوقتي أراضي ربنا إزاي.. وعلشان ترتاح هقولك حاجة بسيطة بسيطة عرفوها وقالوها من زمن ولاد البلد بتوعنا الطيبين، ولما يأذن لك ربنا وترجع مصر يبقى امشي في أي مولد وللا لمة ناس هتسمعهم بودانك وهُمَّه بيقولوا: موسى نبي وعيسى نبي ومحمد نبي، وكل اللي له نبي يصلي عليه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

34

لم يخذلني الشيخ منجي هو ورهطه..

أتوا كلهم يعودون جدتي، هو في المقدمة وبيده عبد اللاهي مامادو مرتديًا حُلَّة بلون الباذنجان، ووراءهما المسييه راؤول جارنا في عمارة بارباس، والشيخ بو مخلاع يتهادى داخلًا، المسبحة بين أصابعه وعطر عجيب يفوح من عباءته، عطر يُمْرِض الأنف من ذاك الذي كنا نسميه في مصر بكناسة العطار، وبعدها بقليل أقبلَ أبو الشوارب وزوجته أم بهلول.

كان جدي نشيطًا وفي ذروة سعادته، بعدما أخبرونا في المستشفى بأن بعض المراكز العصبية لجدتي بدأت تستجيب، وأنه أسبوع على أكثر تقدير وتفيق من الغيبوبة وتعود كما كانت.

تقدم زواره إلى الاستراحة، حيث جلسوا معه على صوب هو وخالي شمعون وثلاثة من معارفنا اليهود، وأمي وخالتي وبعض النسوة على صوب آخر. رغب أبو الشوارب في أن تجلس أم بهلول هي الأخرى مع النساء وأشار لها بذلك، غير أنها لم تأبه به وجلست بيننا واضعة ساقًا على ساق، والشيخ منجي يمط شفته متعجبًا من هؤلاء النسوة اللائي لا يسمعن الكلام وأبي الشوارب هذا الكبش الوديع منزوع القرون!

فزنا بكل مقاعد الاستراحة تقريبًا، مقعد واحد هو الذي بقي خاليًا ومقعدان آخران كان يجلس عليهما رجلان فرنسيان تأففا من الضوضاء التي نحدثها وقاما تاركين لنا المكان. ويبدو أن إدارة المستشفى لم يرق لها كثرتنا وعدم التزامنا بالآداب المرعية عند زيارة المستشفيات، فأرسلوا لنا رجل أمن يبلغنا بأدب أن نجمع حاجياتنا وننصرف، فيكفي واحد أو اثنان فالمستشفى ليست مقهى، والاستراحة ليست مخصصة لزوار مريض واحد وإنما للجميع.

فثار الشيخ بو مخلاع وعلا صوته قائلًا: بأن هذا لا أدب ولا ذوق أو أصول، وعنصرية تُمارس علينا من الفرنسيس..

وخشي جدي من عواقب تدخل الشيوخ، خاصة بعد أن شطح بو مخلاع وأشاح في وجه رجل الأمن قائلًا: ما هذا يا إنسان؟! أتستصغر شأننا أنت وقومك اللئام! أفيقوا! أفيقوا! نحن قوم كرام لا نقبل الضيم وأسناننا تأكل الحديد..

والشيخ منجي يؤازره ويقول: وإياك يا فتى أن تتجاوز حدك وتنطق بكلمة، إياك.. فاللذان أمامك الآن رجلا دين..

والفتى - أقصد رجل الأمن - مستغرب متعجب من هذين الشيخين طويلى اللسان العازمين على الشجار، وجدي وخالى شمعون يموتان بالبطيء. وكلمة من الشرق وكلمة من الغرب، حتى بادر المسييه راؤول بالانصراف لتخفيف وطأة المشكلة، وتبعته النسوة اليهوديات تتقدمهن امرأة كركوبة وسحنتها والعياذ بالله الخالق الناطق سحنة (أم قويق).

سألت خالي شمعون، وأنا أتأملها خارجة:

- إيه ده! مين دي؟

فمال على أذني:

- هس هس، إقفل بقك ومتبصش كده ناحيتها! دي أعز صاحبه لجدتك، آهي هيَّه دي اللي اسمها مدام سمكة، ولو خدت بالها منك هتاكلك أكل حكم دي ألعن من الماما ولسانها تلت تشبار.

واكتشفت أنني لست وحدي الذي أتابعها بل كل الجالسين، حتى رجل الأمن نفسه الذي تركنا بعد أن وعده جدي خلسة بأننا سوف نجلس محترمين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبدأ الحديث ثانية..

خفيفًا في أول الأمر وبصوت معقول، غير أنه سرعان ما بدأ الضجيج والتشويح.

تكلمنا في كل شيء تقريبًا..

الحرب الدائرة على أشدها بين العراق وإيران، ورونالد ريجان رئيس أمريكا الجديد، وعن بعض دول الخليج التي تساعد صدام حسين في العلن والخوميني في الخفاء، والتصريحات النارية التي أطلقها چورچ مارشيه زعيم الحزب الشيوعي في مطار شارل ديجول بعد عودته من موسكو ومشاركته في احتفالات تنصيب قسطنطين تشيرننكو رئيسًا للاتحاد السوڤيتي. وأحب عبد اللاهي مامادو أن يخوض في اليهود، فأسكته الشيخ منجي بزغدة كوع، ورغم ذلك عكر علينا الجلسة بتمخطه بصوت مرتفع والكلام فيما يجهله أو يعنيه، ولما بدأ يتجشأ على نحو ملحوظ مال بو مخلاع على أذن الشيخ منجي قائلًا:

- أيش هاذا المخلوق اللي أحضرته معك؟ أيش من طعام أكله اليوم هاذا الحلوف! لعنة الله عليه من إنسان يجهل الأدب والذوق..

والشيخ منجي يجيبه:

- هاذا يا أخي مخلاع بلوة بلانا بها ربي! ولو الدعاء بالشر مستجاب كنت دعيت ربي إن صاعقة تنزل من السماء الآن وتأخذه من أمامنا!

برهة وقام بو مخلاع خارجًا، بعد أن أشار لي بطرف إصبعه كي ألحق به.

قال وهو يأخذني من يدي إلى بعيد: هل تكلمت مع جدك يا بني في موضوع اعتناق الإسلام؟

فقلت: لا حول ولا قوة إلا بالله، ألا ترى يا سيدنا الشيخ الحال الذي نحن فيه!

قال: أسرع يا ولدي وإلا دعني أنا أقوم بهذه المهمة؟

فقلت: لا. لا. يا عم بو مخلاع أترك لي هذا الأمر أرجوك.

وعدنا لتمتد الجلسة لأكثر من ساعتين، ما بين كلام وقهقهة والمستشفى حائر في أمرنا ورجل الأمن يطل علينا برأسه بين الحين والآخر، انصرفوا في النهاية بعدما عانق الشيخ منجي جدي عناقًا حارًا وقبّلا بعضهما البعض على الوجنتين.

قال جدي بعدها، مخاطبًا خالي شمعون:

- يا سلام على الدنيا! آهو الشيخ منجي طلع راجل ابن حلال، ولو كنا قربنا من بعضنا من زمان كنا وفرنا وجع القلب والمناهدة والخصام.

فتدخلت أمي:

- إنت اللي على نياتك، دا راجل سوسة وخَّراب بيوت!

- والنبي تتلهي وتسكتي! خليكي في يعقوب بتاعك والزفت اللي اسمه هارون والقمار والخبص واللبص اللي انتوا ناويين تشتغلوا فيه..

فردت محتجة:

- إيه ده اللي انت بتقوله يا بابا، دا شغل وتجارة واستثمار..

- شغل.. يا سلام! طيب ماكنتوا تفتحوا مصنع هناك، مصنع سكر وللا أسمنت وللا نسيج وللا تستصلحوا أرض يا بهوات زي أجدادنا بتوع زمان اللي كانوا بيعمروا المطرح اللي هُمَّه قاعدين فيه، هو دا الشغل بصحيح يا ست هانم! مش الحنجل والمنجل ورمي الزهر وحلّق حوش..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وانصرفنا أنا وهو..

قلت له، ونحن نستقل السيارة:

- إيه رأيك في فسحة بالعربية زى إمبارح؟

- لا. لا. يا مُبَارك، على البيت على طول حكم أنا جسمي منمل وحاسس إني همدان.

رفض حتى تناول العشاء، ودخل كل منا إلى غرفته، هو إلى النوم كما قال، أما أنا فتوضأت وصليت وجلست أمام التليفزيون إلى ما قبل منتصف الليل، ثم إلى الفراش حيث تمددت أتصفح جريدة (اللوموند)، وقبل أن يأخذني النوم أحببت أن أدخل الحمام، فلقيت غرفته مضاءة على غير العادة وبابها مواربًا..

كان يلهث ومُلْقى على ظهره بالفراش، عيناه غاربتان وبلا ذرة انتباه أو قوة تسعفه على الحركة، لم يفطن حتى إلى قدومي، فصحت عليه ملهوفًا وأسرعت إلى علبة الدواء التي يأخذ منها حبة تحت اللسان، وزرار البيچامة العلوي الذي يضيق على عنقه الخناق، انحنيت على العروة وأصابعي تخطئ وتضغط وتفشل مرة بعد مرة إلى أن خرج الزرار ذاته في يدي مكسورًا، وبدت عظمتا الترقوة بارزتين وما بينهما وبطول مجرى العنق يرتعش من دفقات اللهاث، ثم وجدت نفسي أشد فردتي الجورب من قدميه، وأسرع لأفتح النافذة على مصراعيها، وإلى الثلاجة آتي له بكوب ماء.

كنت مدفوعًا بالغريزة، أتحرك بمقتضاها دون أن أفكر مسبقًا فيما أفعله أو أشعر حتى بالفعل الذي أؤديه.

وظل هو على حال، لا هي اليقظة ولا هي الغيبوبة المكتملة..

برهة وأسبل عينيه، فأخذته على صدري ومكثت أنادي عليه بصوت وَجلٍ وهو لا يجيب.

راح مني..

وطفق يشير وينادي على أناس، وكأنما هم معنا في الغرفة، يرونه ويراهم من مجال آخر غير مجال البصر والعيون!

أحسست بذلك ليس بكلام واضح ظاهر، إنما من إشارات وغمغمات تصدر عنه تخفت تارة ثم تزيد، وكأنما أطياف تقترب منه وتتحدث معه بلغة أصبح يفهمها، وهو يجاريها وهي تجاريه..

كانت أقرب إليه مني..

لا يشعر بوجودي، وإنما يشعر بها هي.. بل يكادان يتماسان، لولا شيء بينهما لا يزال يحول.

شيء خفيف.. شفيف.. برزخ كهالات البخار ربما أو نفحات الضباب، الأيدي ممدودة من خلاله وتظن أنها بقادرة على النفاذ، إلا أن أقصى عزمها أنها تكاد..

كان في حال غريبة، وغم عليَّ فلم أميز إن كان جدي حيًا ويخاطب أناسًا ميتين، أو يموت وهم يبدون له أحياء..

لم يطل به الحال..

ولم أشأ أنا إسدال الغطاء على وجهه مثلما يفعل الناس في هذه الأحوال، تركت وجهه عاريًا بعدما أرخيت له جفنيه، ولا أعرف لماذا راحت عينايَّ إلى الساعة الچوڤيال القديمة التي تحيط بمعصمه. كانت تشير إلى الثانية وعشر دقائق صباحًا، والعقرب الكبير يجثم على العقرب الصغير، يكاد يخفيه، وصفحة الساعة خالية من الحركة، كلها أرقام لا معنى لها أو تدل على شيء. وجدي ساكن، ذراعاه تستريحان إلى صدره، ووجهه ليس فيه أثر لموت. خُيلّ إليَّ للحظة أنه أخرج زفيرًا وأن جفنيه يتحركان، فعاودت التحديق فيه ثم استعذت بالله وقمت إلى مصحفي الشريف الذي أضعه دائمًا تحت وسادتي، أتيت به وجلست على رأس جدي اقرأ منه..

بدأت من أول المصحف..

قرأت له الفاتحة سبع مرات، وسورة البقرة كاملة، وسورة آل عمران إلى أن وصلت إلى الآية الكريمة التي تقول: "يَختَصُ بِرحَمِتِه من يشاءُ والله ذُو الفضلِ العظيمِ".

أخذت أرددها عشرات المرات..

وقمت إلى الهاتف، أبلغ أمي وخالي شمعون..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

35

لم يقف أحد إلى جانبي بقدر ما وقف الشيخان منجي وأبو مخلاع..

لازماني في كل خطوة أخطوها، عندما وارينا جدي التراب وليلة العزاء، وأبلى بو مخلاع بالذات بلاءً حسنًا ولا أنسى له أبدًا أنه أنقذنا من ورطة وحصل لنا في ظرف ساعات على مقبرة ندفن بها جدي، فعل لنا كل شيء تقريبًا ومن الألف للياء!

وكان مشهدًا غير مألوف أن نراه واقفًا بجسده السمين وعباءته وشال العمامة ملفوفًا على طربوشه المغربي القصير، ويتمتم بشفتيه على بعد أمتار من رجل دين يهودي عليه بزة سوداء وطاقية بأعلى رأسه في حجم المنديل المثني أربع طبقات، وكلاهما يهز رأسه هبوطًا وصعودًا قارئينْ على جدي الصلوات، واندس أبو الشوارب وعبد اللاهي مامادو والأستاذ فؤاد بين اليهود، ووقفت أم بهلول والست عزيزة بوصاف إلى جوار أمي متشحتين بالسواد.

وكان الشيخ منجي على مسافة منا متكئًا على عصاه، عيناه تجوسان في القبور الممتدة أمامه ووجهه يموج بحزن عميق..

خديجة ولا شك كانت تطوف به في تلك اللحظات، كانت المسكينة تجثو وحيدة بلا أنيس، فهي أول نَفْسٍ من آل المنجي يبدأ بها ملك الموت، ووسدناها مقبرة شاء الحظ ألا تبعد عن مقبرة جدي بكثير، ولعل أباها الكليل ومن الموضع الذي كان واقفًا فيه كانت عيناه عالقتين بشاهد قبرها الذي يلوح، ولعل أنفه هو الآخر كان يشتم رائحة الحليب العالقة بشفتيها عندما كان يرفعها إليه وهي تعبث بأطراف لحيته وتناغيه، وأيام أن كانت تضع إصبعها على الجرس ولا ترفعه إلا بعد أن يفتحوا لها الباب، تدخل مسرعة بثياب المدرسة وتجري هنا وهناك وخصلات شعرها السوداء مضمومة من الوراء كذيل الحصان.. وأيام.. وأيام.. كانت عيناه غاربتين، وجسده القوي المتين لا يقدم له عونًا فهو الآخر مهزوم ويستند مثله إلى عصاه.

اقتربت منه وربت على كتفه، فقال: أنا بخير يا ولدي والحمد لله، اذهب أنت لباقي المعزين فأنا لست بغريب..

كنا يومها في مشهد كئيب، النساء بلا رتوش أو طلاء ويدمعن أو يخفين وجوههن خلف النظارات، ويبَدَوْنَ بثيابهن القاتمة كجمع من الغربان، والرجال إما عاقدو أيديهم على صدورهم أو مطأطئون وتهرب الأعين من بعضها

متصنعة الانشغال، وأول ما فرغ رجل الدين أعيدت القبعات إلى الرؤوس، واستدار الجميع بخطى أسرع من تلك الخطى التي أتوا بها وهم قادمون.

وجدتي لا تدري بشيء..

ظلت ضائعة في غيبوبتها إلى أن قضت بعد جدي بأيام، وعندها أشار الأستاذ يعقوب بأن نتصل بأبي مخلاع فحضر على الفور هو والشيخ منجي وفعلا الذي فعلاه عند وفاة جدي، وبمروءة وإحسان أثارا إعجاب أهل جدي اليهود، حتى إن أبا زلومة الصهيوني اللئيم ودعهما وداعًا حارًا عندما شاءا الانصراف.

وانتحى الأستاذ يعقوب بأبي مخلاع عارضًا عليه مبلغًا من المال، فدفع يده غاضبًا وهو يقول: ما هذا يا أستاذ؟ أتظنني حانوتيًا أو متعهد أموات! أنا لا أبتغي مما أفعل إلا وجه ربي الكريم.

وتدخل الشيخ منجي الذي كان يتابع الحديث، قال حانقًا لزوج أمي يعقوب: أتحسب أن أخي أبا مخلاع يفعل ذلك لقاء مال! حاشا لله! إننا نتبع تعاليم ديننا الذي يحضنا على مساعدة المساكين.

فأجابه يعقوب مستغربًا: مساكين!

قال: نعم..

قالها بصوت عريض، ثم أضاف: فليس المسكين فقط هو الذي في عوز للمال أيها الاستاذ، إنما هو كل صاحب حاجة وتنقصه الخبرة والتصريف، وبو مخلاع بما يفعل لا ينتظر جزاءً أو حتى شكرًا تقدمونه، فالجزاء والثواب من الله رب العباد..

ويعقوب وأبو زلومة لا يفهمان ما يقول..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ومكثت أنا وحيدًا بالشقة، أتأمل أشياء جدي..

نظارته.. جرائده القديمة.. وساعته (الجوڤيال) التي أتي بها من مصر وظلت برسغه إلى أن مات.. وجلباب جدتي الذي كان مُلْقًى على مقعد بجوار الفراش، طبقته عدة طبقات بعد أن نفضته مرتين في الهواء مزيلًا ما عليه من أتربة وغبار، ووضعته على رف الدولاب مع باقى أشيائها.

ولم أفكر في غلق الباب عليَّ مثلما كنت أفعل عندما تجتاحني نائبة أو ألم كبير، فإن فعلت من الذي يسأل عني؟!

كنت من قبل أنتظر أن يفتح جدي عليَّ الباب ويسري عني، بل ويأخذني قسرًا إلى مائدة الطعام، وإذا بالغت في العناد كان يدخل عليَّ بصينية عليها الطعام الذي أشتهيه ويمكث معي بالساعات، حتى أستحي من نفسي وأخرج مما أنا فيه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ورأيت خالي إيزاك لأول مرة..

كان سمينًا وقصيرًا مثلما تصورت، غير أن وجهه بدا منفوخًا بدرجة ملحوظة؛ حتى حسبت أنه يُعالج بالكورتيزون..

شعرت نحوه بشيء من النفور والفضول في آن، وسلمت عليه متحفظًا بيدْ أنه احتضنني فأذعنت وقبلته مثلما قبلني، وشيئًا فشيئًا كان يزداد الفضول ويقل النفور، غير أنه أول ما بدأ يوليني اهتمامًا تحسست منه، وعلى الدوام كنت حذرًا ومنتبهًا لكلامي معه.

وأتأمله عندما ينشغل عني..

إيماءاته، ابتساماته التي بالمسطرة والحساب، السيجار، الساعة (البياچيه) المرصعة بالفصوص والسلسلة الفضية المعلق بها نجمة داود.

كان يبدو لي فاخرًا قياسًا إلى خالي شمعون، لكن أين هذا في قلبي من ذاك!

سألني عن سينما مصر التي في شارع الجيش، هل لا تزال موجودة إلى الآن؟

وعن (حسين صدقي) الممثل القديم، قال: إنه يتذكره هو والكسار والريحاني وبشارة واكيم، وزاغت عيناه ثم طفق يقول: إنه شاهد لحسين صدقي فيلمًا اسمه (العزيمة) قبل أن يترك مصر بعدة أيام، أدى فيه دور البطولة هو والفنانة اليهودية نجمة إبراهيم.

كنت قد شاهدت هذا الفيلم مرارًا فقلت له مصححًا: تقصد فاطمة رشدي وليس نجمة إبراهيم..

ولم يكن يعرف أن شارع الخليج المصري الذي كان قريبًا من بيتنًا في الظاهر أسموه شارع بورسعيد، وسألني عن محل (جروبي) الذي على ناصية شارع الأنتيكخانة.

فلبثت برهة متحيرًا، وقلت: شارع ماذا؟ شارع الأنتيكخانة!

قال: نعم شارع الأنتيكخانة! ومحل جروبي الذي يواجه تمثال سليمان باشا الفرنساوي.

أدركت وقلت: آه.. أه.. تقصد ميدان طلعت حرب، نعم موجود.

فسأل مستغربًا: هل استبدلوا التمثال؟

قلت: استبدلوه واستبدلوه واستبدلوه، فطلعت حرب رجل عظيم وهو الذي حرر اقتصادنا من سطوة الغرباء..

فمط شفته..

وقبل أن ينصرف المعزون، انتحي بي الأستاذ شاؤول أصلان مدير فندق دي لاركاد، وقال لي: أنا في انتظارك غدًا لأمر هام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

التقاني الأستاذ شاؤول مرحبًا، وقال فور أن جلست أمامه: لطالما أثنى عليك جدك.

وتأملني برهة وقال: لم أرَ في حياتي جدًا مثل جدك يحب حفيدًا له ويفضله حتى عن أولاده، رغم أن...

وأمسك لسانه..

فقلت: رغم أني مسلم..

قال: لا. لا. لا أقصد هذا المعنى بالتحديد، أقصد رغم أنكما لستما على دين واحد.

ثم حك أسفل شُحمة أذنه وهو ما يزال يتأملني ويقول: يا سبحان الله! الدين شيء والقلب شيء آخر، فقلوبنا هذه يا ولدي سر من أسرار الله، وما لا يجمعه الدين يجمعه القلب الطاهر النقي الموصول بالله، ففينا كلنا من أول آدم إلى أصغر مولود نفحة من الله، مسلمين كنا أو مسيحيين أو يهودًا أو حتى غيرهم طالما هم مخلوقات الله..

ملت برأسي تجاهه مستزيدًا، فراقه أني أنصت له وقام من خلف مكتبه وجلس قبالتي وهو يقول: نعم نفحة أودعها فينا الله ونتناقلها يومًا بعد يوم ونحن في الأرحام، ولولاها لفسدت الأرض وأخذنا برقاب بعضنا البعض كما يفعل الحيوان بالحيوان، فأيا ما كان الدين يا ولدي نحن عباد الله، وأيا ما كان الكتاب فكلنا إخوة وأولاد آدم وحواء.

وأخذ يحدثني عن النوادر والحكايات التي كان يطلقها اليهود على جدي في مجالسهم من شدة حبه لي، وأن واحدًا منهم قال له مازحًا: ما رأيك لو أسلمت فنرتاح منك وأنت الآخر ترتاح وتستكمل حبك لجلال!

وقام إلى خزانة حديدية مثبتة بالجدار، أخرج منها مظروفًا سلمه إليَّ.

كان خطابًا من جدي يقول فيه:

ولدي جلال..

الأعمار بيد الله، فمن يضمن إن كان باقيًا لي في هذه الدنيا دقيقة أو سنة أو بعض يوم..

وأحسب أن الله كتب عليَّ أن أموت في هذا البلد الغريب، فيا ولدي أستحلفك بالله ألا تتركني وحيدًا هنا، عد بجثماني إلى مصر فلنا مقبرة هناك في البساتين، اسأل عنها، مقبرة باسم والدي إسحاق الأزرع، مفتاحها مرفق بهذا الخطاب. افعل ما تقدر عليه، اذهب للسفارة.. أرسل تلغرافًا للوزير.. للرئيس.. لأي إنسان.. قل لهم إن زكي الأزرع الميت الغريب يريد أن يعود، وإن لم تستطع فزرني مرة كل شهر، وإن عدت لمصر عودة نهائية فتعال إليَّ ولو خصيصًا من هناك..

هذا أول رجاء..

والرجاء الثاني أن تسحب كل ما في حسابي من بنك (سوسيتيه چنرال)، لي حوالي ثلاثمائة ألف فرنك. كنت قد فكرت أن أهبك ثلث هذا المبلغ وأثبت ذلك في وصية سابقة كما تعلم، لكن وضعك المالي مطمئن والحمد لله ولست في حاجة مني إلا لشيء للذكرى وليس المال، فاسحب هذه النقود ووزعها مناصفة بين جدتك وخالك شمعون فهما الأكثر احتياجًا لها، ومرفق أيضًا بالخطاب بطاقة البنك والرقم السري للحساب، أما أنت فاحتفظ بدبلتي الذهبية والساعة الجوفيال واعطِ النظارة لخالك إيزاك..

وإلى أن نلتقي يا ولدي في عالم أكثر رحمة من عالمنا الذي كنا نعيش فيه..

جدك زكي

7 يناير سنة 1985

مسحت دمعة علقت بأهدابي وقلت للأستاذ شاؤول: وما الذي أفعله بنصيب جدتي؟

فسرح ببصره قليلًا، ثم قال: أعطه هو الآخر لخالك شمعون.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم أقصر في حق جدي..

ذهبت إلى السفارة المصرية عدة مرات وأرسلت حزمة تلغرافات، ولا أحد يشعر بي وإن شعر لا يجيب.

ولما عرف خالي إيزاك بما أفعل اتصل بي، طلب مني أن أترك ما في يدي وآتي إليه في الحال بشقة خالتي بيلا، حاولت أن أعتذر أو حتى أتلكأ وأؤجل الميعاد إلى وقت آخر، غير أنه أسرني بكلامه الرقيق فتركت ما بيدي وذهبت لأجد كل العائلة بانتظاري: أبو زلومة وخالي إيزاك وخالي شمعون، وخالتي بيلا وراشيل ويجلس بينهما ولد مخنث شعره مضفور من الخلف وفي أذنه اليسرى قُرْط به خرزة زرقاء، قالوا لي: إن اسمه (سيمون) يهودي من المغرب وخطيب راشيل.

ودخل علينا الغرفة رجل أكتع وقصير بدرجة ملحوظة، قَـزَمُ تقريبًا، ويبدو أنه كان بالحمام ساعة حضوري. قالوا لي وأنا اصافح كفه المبلولة: إن اسمه (حاييم)، وهو ابن خالتهم (دلال) ويعيش حاليًا في (ليون).

قال له خالي شمعون: أني ابن (كاميليا) فلم يسمع، كررها مرتين والرجل لا يسمع أيضًا ويحدق فيه وفيَّ..

فانحنى عليه وزعق قرب أذنه: ابن كاميليا! كاميليا! كاميليا!

واستدار إلينا قائلًا:

- دا أيه النهار اللي مش فايت ده، دا أنا زوري انشرخ، يخرب بيت دي ودان!

وعاود الإمساك بأذنه صارخًا: ابن كاميليا! ابن كاميليا!

إلى أن فهم الرجل وتبسم لي، ثم صافحني مرة ثانية وجلس صامتًا على مقعد قصير أحضروه له خصيصا لتطال قدمه الأرض.

لم يدر بذهني أنه كمين، أو جلسة محاكمة عقدوها لي، والتهمة أني أحاول نقل جثمان جدي لمقبرة العائلة بالبساتين.

بدأ الكلام في أول الأمر لطيفًا ومغلفًا بالأدب والذوق، وكان على لساني أن أقول لهم: إن قومي في مصر يماطلون في هذه المسألة ولا أظنهم سوف يوافقون، وأنهي بذلك كل هذا الحديث والنقاش، غير أني عاندت وأحجمت بل وأفهمتهم بأني سوف أفعل المستحيل لأحقق رغبة جدي، فتحفزوا كلهم ضدي وقال لي خالي إيزاك بعبارة صريحة: لا دخل لك بأبينا.

قلت: إنه جدي ولي ألف دخل، ثم إن بيدي وصية بخط يده وعليها شهود.

قالوا: لا تلزمنا هذه الورقة التي معك وقد تكون مدسوسة عليه.

قلت: اسألوا الأستاذ شاؤول.

فقالوا: لا يلزمنا هو الآخر!

سحب خالي إيزاك نفسين شديدين من السيجار، دفع دخانهما في وجهي وهو يقول: الحكاية من الآخر أننا نخطط لنقل جثمان البابا إلى إسرائيل، فابتعد عنا أرجوك.

فقلت: إسرائيل! والله لو كان هذا صحيحًا لدخلت معكم في حرب، إسرائيل! لقد رفض جدي زيارتها وهو حي أتأخذونه رغمًا عنه وهو ميت..

فأشاح في وجهي: ما هذا الذي تقوله؟ إسرائيل في الأول والآخر هي بلدنا وأرض الميعاد..

فصحت فيهم: أنا لا أفهم في كلامكم، إسرائيل أرض الميعاد أو ليست أرض الميعاد أنا لا دخل لي بذلك، الذي أفهمه أن هذا لو حدث فسوف يكون على جثتي.

واشتد النقاش، أصبح شبيهًا بالعراك، ووقفوا كلهم ضدي حتى الرجل الأكتع الأطرش ابن خالتهم قفز من فوق مقعده وحاول التهجم عليَّ، وأنا أتعجب منه وأقول في نفسي: كيف فهم هذا القَزَم الأصم الحوار الذي يدور!

ورفع أبو زلومة حاجبه الأيسر وقال لي: لولا أن الماما كاميليا عزيزة علينا لسفحناك، وأنا أكاد أشتبك معه بالأيدي.. الوحيد الذي آزرني هو خالي شمعون، أخذني من ذراعي خارجًا، نزلنا أنا وهو على الدَّرْج نسب ونلعن فيهم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

غير أني خفت أن يفعلوها..

فذهبت إلى الأستاذ شاؤول، فغضب وقال لي: يا لهم من أوباش، أنا في صفك ومستعد للشهادة بأن جدك سلمني هذا الخطاب.

واصطحبت أبا مخلاع ودرنا على مكاتب الحكومة بباريس، فطمأنونا وقالوا: ليس الأمر بهذه البساطة، فلابد من وصية موثقة أو أن يوافق كل الأبناء، ثم من يتحمل نفقات نقل الجثمان؟ وقبل كل ذلك يجب أن توافق سفارة إسرائيل..

كنت أفكر في هذا الأمر ليل نهار، وصور لي قلبي أنه قتل لجدي وأنا أذود عنه، ووضعت يدي في يد أبي مخلاع ثانية وذهبنا إلى أحد مكاتب المحاماة.

المحامي الذي تولى قضيتنا كان رجلًا فرنسيًا خفيف الظل، قال لنا باسمًا: أهي حرب رابعة بينكما وبين أولاد أعمامكما! على أية حال سوف أفتح ملفًا عندي بعد أن آخذ من المسييه جلال شكوى بخط اليد، غير أني لن أفعل شيئًا الآن، سأتمهل لحين صدور قرار من الخارجية الفرنسية، وعندها نطعن فيه.

فقلنا: آمين..

كان الأمر أشبه بصراع بيني وبينهم..

كنت أحسب ذلك، وأظن أنهم هم الآخرون يجرون هنا وهناك ما بين سفارتهم والخارجية الفرنسية أو أي مسئول آخر بيده قرار ليعجلوا بنقل جثمان جدي، وأحببت أن أتسقط الأخبار فذهبت إلى خالي شمعون، ولأحثه أيضًا على ألا يوقع لهم على أية أوراق..

فأجابني ضاحكًا:

- ورحت ولفيت، دا انت قلبك أبيض صحيح! هو انت فاكر إن إيزاك أبو وش زي الكونباية ده يرضى يدفع فرنك واحد في حاجة زى دي! وللا حتى المسألة دي تشغلُّه دماغ! دا كان بيهوش يا عبيط!

- بيهوش؟

- أيوه بيهوش، علشان انت تاخد وتدي معاه وانت تتنازل عن حكاية مصر، وهو كمان يتنازل عن دفن البابا في إسرائيل! وهو في الحقيقة لا اتنازل ولا حاجة؛ لأنه مكنش فيه حاجه هيعملها من الأساس، دا الكلام اللي عرفته بعد كده من خالتك بيلا..

- يا ابن الإيه!

- أُمَّال! دا انت لسه بدري عليك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد أن فشلت كل المساعي التي قمت بها في السفارة المصرية، وأيضًا حقنًا للدماء مع هذا الخال الملعون اكتفيت بالذي أقدر عليه، أن أزور جدي..

كنت أذهب إليه هو وجدتي بعد صلاة الجمعة الأولى من كل شهر، المسلمون هم الأكثرية في هذا اليوم ويملؤون المكان، بعضهم كان حديث العهد بباريس ويأتي بسلال صغيرة مليئة بالمأكولات الجافة؛ ظنًا منه أنه سوف يلقى

هلافيت القبور الذين ينتظرون هذه الأشياء، فلا يلقى أحدًا ويعود بها أو يعطى منها لأطفاله والذين يأتون معه بالكامل مرتدين أحسن ثيابهم كأنهم ذاهبين لرحلة أو هو يوم عيد، ولا تسلم منهم الأزهار والورود بالطبع، وحراس المقابر يلهثون وراءهم وينتظرون خروجهم بفارغ الصبر ليغلقوا الأبواب.

كنت آتي وبيدي ثلاث وردات، أميل بجذعي وأضع اثنتين بجوار اللوحتين الرخاميتين الخاصتين بقبر جدي وجدتي والثالثة لخديجة. تقابلت مع خالي شمعون مرة هناك، قلت له: اليوم يوم جمعة وليس يوم سبت يا أبا شاؤول.

فقال: أنا أعمل بنظام الورديات، وإجازتي أحيانًا تكون يومَي الخميس والجمعة بدلًا من السبت والأحد.

وبعد أن فرغ من صلواته ودعواته لأبيه وأمه، سألني مجاملًا: هل زرت قبر خديجة، قلت: لا، ليس بعد.

فقال: سوف آتي معك.

كان قبرها قريبًا، وإذا وقفت أمامه ترى قبريْ جدي وجدتي بالعين. نمكث برهة، أقرأ لها فيها ما أحفظه من آيات القرآن، ويغمض هو عينيه ويهز رأسه وهو يقرأ على روحها من كتاب دين صغير في يده..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

36

كانت أمي بالأرچنتين هي وزوجها يعقوب، يعودان ابنه المقيم هناك..

اكتمل ضجري برجوعهما..

سمعت رنات متوترة من جرس الباب، فقمت لأجدها مقطبة الوجه وهو إلى جوارها متبسم وعلى رأسه قبعة من الخوص، ويرتدي قميصًا بنصف كم لونه أصفر فاقع وفي منطقة الصدر رسم لببغاء بمنقار معْقُوص.

سألتني بلهفة ومن على الباب، عن الخطاب الذي تركه جدي..

- حاضر حاضر، بس اتفضلوا الأول..

وذهبت أنا إلى غرفتي لآتي بالخطاب، وكان يرد إلى سمعي صوتها وهي تتحدث متبرمة مني ومن أفعالي، وبأني واحد من اثنين: إما عبيط أو (بَسْتَعْبطَ)، وبغيظ مكتوم تقول: إنها ضيعت عمرها عليَّ، ربت وكبرت وتحملت، وماذا في النهاية يا يعقوب! ولد عاق يضيع حق أمه، ولا يستشيرها حتى قبل أن يفعل ما فعله..

وهو يسكتها بصوت خافت:

- خلاص يا كوكو خلاص، مش وقته..

تلكأت لأسمع المزيد والأمر ملتبس عليَّ، فهل هي غاضبة مثلها مثل خالي إيزاك لمحاولتي نقل جثمان جدي؟ أم للنقود التي سلمتها لخالي شمعون؟

ويبدو أنها قلقت لتأخري عليها، إذ جاءني صوتها عاليًا:

- فين يا ابني الورق؟

سلمتها الخطاب فأخذت تقرؤه بصوت مسموع، وتغمغم بين السطور بأصوات تلقي اللوم على هذا الذي فعله جدي..

ثم وجهت كلامها للأستاذ يعقوب:

- دا البابا الله يرحمه ماشي بالعكس، لا هو عايز يستنى معانا هنا! ولا حتى قلبه حن غير على شمعون!

فأخفض عينيه قائلًا:

- الله يرحمه، كان راجل طيب وعلى نياته!

- دا مجبش سيرتي بكلمة واحدة! ثم مش كان يكتب الجواب لإيزاك أكبر أولاده، وإذا كان عايز يوصي على حاجة يوصيه هو..

ابتلعت كلامها، وأخرجت هي علبة سجائرها أشعلت واحدة وقالت لي:

- خلاص، النصيب بتاع شمعون أفندي الله يسهل له فيه، لكن نصيب الماما المكتوب في الجواب راح فين؟

- برضه لخالي شمعون..

فاحتقن وجهها:

- خالك أيه؟ يعني انت اديته الفلوس كلها؟

- بالظبط كده..

- التلتميت ألف!

- لا.. دول طلعوا تلتميت ألف وعشرة وخدهم من ساعتها.

- آه يا حمار يا غبي، عملت كده من دماغك لا شاورت ولا سألت!

فار الدم في عروقي، غير أني ملكت نفسي وأجبتها بصوت هادئ، وكلام واضح مفسر:

- أيوه هو دا اللي حصل، عملت كده من دماغي، لا شاورت ولا سألت.

وتدخل الأستاذ يعقوب ملطفًا:

- أوعى تزعل من كلام الماما يا جلال، ياريت الواحد لسه الماما بتاعته عايشه وبتزعق وتشتم وتضرب كمان! كان كل ده يبقى على قلبي زي العسل.

ووضع كفه على يد أمي مربتًا:

- وانتي يا كوكو جرى أيه؟ فلوس أيه اللي انتي بتسألي عنها هو انتي محتاجه، الحمد لله الرب مبارك والخير عندنا كتير.

فردت بغيظ:

- يا يعقوب الولد ده مفيهوش خير، مش يحاجي علَّيه ويقول حاجة الماما وفلوس الماما! لا.. دا حضرته إدًّا كل حاجة لشمعون! وبعدين شمعون دا راجل خايب ومراته سارة هي اللي هتكوش على كل حاجة، وبدال ما المقشفة دي تفرتك الفلوس على نفسها كنت أنا أولى بيها.

لم أعلق..

هي التي طفقت تتكلم وعلى نفس الوتيرة..

تلوم وتنهر وتعاير، وأنا صامت وأصابعي تمتد إلى ولاعة الأستاذ يعقوب الملقاة أمامنا على المنضدة، تعبث بها، تشعلها وتطفئها، وأعود بمنكبي إلى ظهر المقعد وأضع ساقًا على ساق وشيء من المتعة يجتاحني! يدغدغ مسام قلبي.. يريحني..

صحيح أنها متعة قاتمة! متعة بلا فرح وعلى حساب أمي! غير أنها في النهاية كانت متعة، وتزداد كلما أوغلت هي في حنقها عليّ، فيتلذذ جزء مني ضاربًا عُرْض الحائط بالجزء الذي لا يتلذذ.

متعة والعياذ بالله تقرب من متعة من يثأر! من ينتقم! من يفعل شيئًا يجب أن يُفعل! ثم ماذا؟ لا هو انتشى به وقد لا يكون راضيًا عنه، غير أنه هدأ وارتاح بعد أن فعله..

هي أمي، غير أن قلبي كان غاضبًا عليها..

أهانت أبي..

أهانته أمامي، وأمام هذا الأستاذ الذي يقعي بيننا، هذا القط العجوز الذي تتعرى أمامه كل ليلة..

نسيت..

نسيت أبي.. نسيتني.. نفضت يدها من الدنيا القديمة التي كنا نحياها، ولاك لسانها فيما لا يُلاك فيه..

كنت أستطيع إفهامها أني حاولت نقل جثمان جدي لتنفيذ رغبة طالما تمناها، غير أنه حتى هذا الأمر لم يعْنِها! أبقيناه هنا، نقلناه إلى البساتين، أو إلى حيفا أو تل أبيب؛ فلا فرق.. المهم هو الفلوس! الفلوس!

وحتى بالنسبة لهذه الفلوس التي أكلت عقلها، كنت أستطيع أن أقول لها إنه عندما كتب جدي هذا الخطاب كانت جدتي في كامل وعيها، وقضت دون أن تعرف بأمره، فالمال مال جدي وآل في النهاية لمن كان في حاجة إليه..

أنا لا أعرف شريعتكم يا سيدة كوكو؟! ما أعرفه أن جدي استبقى أمرًا لما بعد مماته وعهد إليّ بأن أنوب عنه فيه كما لو كان حيًا، وأني استشرت قريبكم الأستاذ شاؤول العاقل الحصيف فأشار عليَّ بذلك..

وكان يمكن أن أقول لها أيضًا إن هذا المخلوق الذي تزوجته يملك أموالًا تسد عين الشمس، أما خالي شمعون فرجل فقير، غلبان، أَرْزُقي يعمل باليومية، أو أسوق لها كلامًا آخر بالحق أو حتى بالباطل يطفئ لهفتها على هذه النقود، أو أن أقوم وأقبل رأسها ويدها وأنهي المسألة من جذورها، إلا أني لم أفعل! كنت أقدر بل وكدت، غير أن شيئًا بداخلي أمسك بي، منعني من أن أفعل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تخف حدة الجلسة إلا بعد وقت طويل..

مضت برهة زمن ملولة عقيمة بلا كلام، يختلس كل منا النظر فيها للآخر عندما يكون مشغولًا عنه، أو نقوم بأعمال تافهة كعقد رباط الحذاء أو الحك بالظفر أو أخذ رشفة ماء من كوب، ثم بدأنا نتكلم ثانية، ولكن في أشياء أخرى..

أشياء (على الماشي) من تلك التي يقولها الناس لبعضهم البعض عندما يثرثرون على مقهى، أو يلتقون عرضًا في طريق. ولملمت هي أشياءها، علبة سجائرها والنظارة وسلسلة المفاتيح، وسألتني على سبيل إبراء الذمة وهي تتهيأ للقيام، عن تجارتي وشركتي وحال أبي الشوارب معي..

وأنا أقول: تمام. تمام!

وعلى سبيل النصح، اقترحت عليَّ أن أترك هذه الشقة وأبحث لي عن مكان آخر يليق بي..

وأنا ليس على لساني غير: تمام. تمام!

وأن أجمع كل هذه القمامة، غرفة نوم جدي، منضدة الطعام، المقاعد الخربة، أدوات المطبخ، وأبيعها للبواب أو حتى أذهب بها إلى سوق (البراغيث)[40] *وأبيعها هناك، فقلت لها: لن أبيعها ولو بمال الدنيا كله ففيها رائحة جدي..*

وزلف لساني..

- وأيه اللي ناقص تاني يا مدام كوكو؟!

خرجت مني هذه الكلمات بلا وعي، لم أقصدها وندمت عليها بعدها. أوقعت نفسي بلساني، ليس كل نفسي، جزؤها الغاضب فقط، والجزء الآخر المتعلق بأمي كان أضعف من أن يمعقها داخل فمي ويعيدها ثانية إلى جوفي.

ووجمت..

وسعل الأستاذ يعقوب سعلة خفيفة ثم وضع السيجار في فمه وقرب منه قداحته المشتعلة، لم تكن عيناه تركزان فيما يفعل فانطفأت القداحة، أشعلها عدة مرات وهو يرمق أمي ثم يرمقني متوقعًا مشاجرة تدب بيننا، غير أن شيئًا لم يحدث، وخرج الدخان أخيرًا من فمه قميئًا رائحته ممضة.

وهي ساهمة..

ليس سهومًا من ذاك الذي تغرب فيه العين، وإنما شيء أشبه بالخاطر الذي يأتي كفركة الإصبع ويعقبه سكون يتقد فيه شعاع العين، ولسان حالها يقول: أين كان هذا غائبًا عني!

فقد هبت واقفة ووراءها الأستاذ يعقوب، وأنا أحسب أنها سوف تخرج غاضبة، وتهيأت لأن أتعلق بذراعها، أقبل يدها، أو حتى قدمها إلا أن الأمر لم يجر على هذا النحو، وكأنها لم تسمع عبارة: "يا مدام كوكو" أو سمعتها ولم تكترث، العبارة التي كان لها المفعول هي: "وإيه اللي ناقص تاني"، فقد ذكرتها بالشيء الذي كان غائبًا عنها، وجعلها تلج غرفة جدتي مسرعة وتعبث بأرفف دولابها وتأتي بعلبة مصاغها وعيناها تلمعان بالفرحة، والأستاذ يعقوب يتكفَّأ وراءها، ذهب وأتى معها.

لم تكن علبة..

فحرام أن نسميها هكذا، وإنما هي صندوق أشبه بصناديق (على بابا)، متخم بكل لون وصنف، أقراط، خواتم، أساور، خلخال يمسك بكاحل القدم، يبدو أنه من بقايا مصاغ جدتي الذي جهزها به أبوها سوارس، وذهب لونه فاتح وآخر لونه غامق، وحُلي بها فصوص وأخرى بلا فصوص...

أنا نفسي اندهشت من كل هذه الأشياء، لم أرها رغم طول السنين، كنت أرى أشياءً متناثرة منها فقط، مرة على معصمها أو على صدرها أو مدلاة من أذنها..

أين كان كل هذا! فلم تكن جدتي تُطْلع عليه أحدًا! كانت تخبئه للزمن، ولم تكن المسكينة تعرف أن الزمن هو ابنتها (كوكو) التي تعيش معها ليل نهار!

وأطفأ الأستاذ يعقوب السيجار، وأغلقت هي الصندوق ثم زحزحته عدة بوصات من موضعه حتى استقر أمامه، وقالت له:

- خلي بالك وأنا لحظة بس في الحمام وهنمشي على طول.

كنت أرمقها وهي تفعل ذلك ثم وهي تستدير متجهة إلى الحمام حتى واراها بابه، ومكثت أنا وهو لا يلفظ أحد منا للآخر بكلمة إلى أن سمعنا صرير باب

الحمام وهي تخرج منه، فقام هو حاملًا الصندوق ويقول:

- خلاص يا كوكو، طيب يللا بينا بقى.

واتجها صوب باب الشقة..

قلت.

- واخدينه ورايحين على فين؟!

لم يجب أحد، وأدارت أمي أكرة الباب وقفلا خارجين..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

37

مضت أشهر بعد وفاة جدي، والدنيا تفقد زهوتها في عيني..

لم يعد بها جمال، ولا حياة، ولا أي شيء..

لا الشارع هو الشارع، ولا أبو الشوارب هو أبو الشوارب، أو حتى الشيخ منجي هو الشيخ منجي، والبيت موحش..

كئيب..

جدي مقعده فارغ، فراشه فارغ، وقلبي أنا الآخر فارغ..

ويا ليتني صرت وحيدًا وانتهى الأمر، فالوحدة إذا كانت مجرد وحدة أمر مقدور عليه، إنما استبدت بي الوحشة، وأهلكني الفقد..

أهلكني بالفعل..

استحلبته كرهًا.. على مهل.. وبمرارة تقطع الرجاء في الدنيا أو عادت تأمن لطبعها..

وكم من مرة استيقظت فيها عيناي على نهار جديد، وقلبي غير مصدق.. يظنه كابوسًا وجدي لايزال بغرفته وسيدخل عليّ الآن يكلمني وأكلمه، وأطبق عيني بعدها والوَجدَّ يعض قلبي.

فلم يكن جدي مجرد جد..

كان أكبر من ذلك.. أكبر بكثير.. وعلى وهنه وقلة حيلته وسنه التي شارفت على التسعين، كنت أرى فيه الدنيا كلها، والأهل، والأمان، والراحة والعون.

كان الشيء الحلو في حياتي، ولا أظن أنه خلف لأحد من أولاده فراغًا مثلما خلف لي، أو أُصيب أحد منهم في الصميم بقدر ما أصبت..

تركني أخب في فراغ عريض مقيت وأكيد مؤلم..

وصرت من بعده مطفيًا.. مطويًا.. ونسيت أن هناك شيئًا في الدنيا اسمه الضحك..

فمن لي بعده؟!

أمي..

كانت.. ولا يزال اسمها مكتوبًا بحبر أسود في الخانة المخصصة لها بشهادة الميلاد.

خديجة..

وأين هي الآن..

أم يا ترى راشيل التي تتحداني الآن بخطيبها (الخنفس)، وخالي إيزاك رجل من زجاج، لا أنا من عالمه ولا هو من عالمي، أما الأستاذ يعقوب فهو بالطبع خارج الحساب.

وشيئًا فشيئًا ابتعدوا عني، أنا الآخر لم أعد أفكر في السؤال عنهم.

وهلَّ رمضان وعيد الفطر ثم عيد الأضحى، ولا أحد منهم قال لي: أين أنت، وجاءت أعيادهم عيد وراء عيد دون أن أرفع لهم سماعة الهاتف.

صرنا أشبه بالغرباء..

فترت همتي في السؤال عنهم بعد جدي، وهم أيضًا، وكنت أتعامل مع أمي بالذات بحساسية مفرطة.

أقول: سوف تتصل اليوم وأنتظر، وباكر وأنتظر، وبعد باكر وأنتظر.. وجدار يعلو بيننا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

راحت دنيا، وها أنا على عتبة دنيا جديدة..

كنت في دنيا، جدي هو محورها..

أراه وأنا خارج كل صباح، ويهاتفني مرة واثنتين وأنا بمكتبي بالشركة، وعندما أعود نبقى معا. نأكل ونثرثر ونضحك ونخرج ولا مانع من أن أناكفه مرة واثنتين، ويشفق كل منا على الآخر.

لم نكن أبدًا جدًا وحفيدًا.. بل جزءًا وكلًا.. يراني جزءًا منه وأراه كل ما لي، يهيم الجزء في الكل، وينطوي الكل على الجزء، حتى جدتي تعودت على رذالاتها، وإن نسيت طبعها يومًا كنت أستفزها لتتذكره..

وأمامي الآن دنيا ثانية..

دنيا لا أرغب في الدخول إليها..

دنيا فيها يعقوب وأبو زلومة وإيزاك، وفلان وعلان اللذان يلعبان بالبيضة والحجر، وبيزنس أسود وهواء ثقيل راكد تعافه حنجرتى ويدفعني إلى السعال..

دنيا لست فيها رجلًا يسود نفسه، إنما صبي.. نوتي.. شخص منقاد..

وهيا بنا نقضي يومين عند (جولدا) ابنة يعقوب في إيلات، أو عند خالك في حيفا، وما رأيك لو صفيت تجارتك مع هذا البني آدم الذي اسمه أبو الشوارب ودخلت معنا بحصة في قمار شرم الشيخ؟

وما هذا الذي فعلته مع راشيل؟!

ماذا؟ ماذا تقول؟ ارفع صوتك قليلًا.. تقول: شرف وأشياء تربيت عليها!

لعنة الله على صنف الحمير الذي أنت منه! أي شرف هذا يا جاهل؟! الشرف والفروسية هو ألا تترك زوجتك في ليلة زفافها، وليس المعنى الذي في رأسك..

ورأيناك أول أمس وأنت تجلس أمام محل الشيخ (قمامة) هذا الذي كان صهرك، وكان معكما الحانوتي بو مخلاع، ألا تخجل من نفسك وأنت تجالس هؤلاء الناس؟

وكلمات أخرى كالشوك تقولها مدام كوكو.. عفوًا أقصد أمي! وزوجها يعقوب إلى جوارها يتبسم راضيًا، وعندما أرمقه بحنق ينشغل عني بشيء آخر وكأنه لا دخل له بما يقال أو يعنيه في شيء!

الذي بقي لي منهم هو خالي شمعون، كان أليفًا ودودًا وأشبه بالمساكين، فلا أحد منهم كان يكترث به لفقره وهوان أمره، أصبحوا يعتبرونه عبئًا وليس أخًا.

وكنت أذهب أحيانًا للأستاذ شاؤول، أسمع منه وأشتمُّ رائحة جدي، غير أنها كانت زيارات بالميعاد ونصف ساعة وكل منا يذهب إلى حاله، شيء أشبه بالزهور جميلة وتشرح الصدر إلا أنها لا تشبع الجوف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حتى باريس ضقت بها..

كانت تعني لي السيارة الفاخرة والحياة الرغدة، وأموالًا تُضاف إلى أرصدتي بالبنوك.

وما قيمة كل هذا من غير قلب يفرح لفرحك وعين تحنو عليك، أو راحة يد تتحسس جبينك عندما تشكو..

وبت أتذكر أشياء لم تطف ببالي من سنين، وأسأل نفسي هل يا ترى عمي إبراهيم لا يزال حيًا، وإمام خادم جدي لأبي الذي طالما عطف عليَّ، وأختي لأبي التي بالمنصورية هل لا تزال تتذكرني، وشارع الخليج وحواري الظاهر وقهوة أبو عوف، وأصحابي القدامى، حسن وعلي وفؤاد، بل وحتى الليثي صاحبنا المسخرة الذي رسب في الثانوية العامة ثلاث مرات، وأصبح الآن (معلمًا) في سوق روض الفرج خلفًا لوالده.

ناهيك عن نزهة في عالم السؤال، أقضيها كل ليلة قبل أن أنام..

أسئلة ترهق القلب وتسلب النوم من العين..

من أنت يا فتى؟ وابن من؟

محمود أفندي الذي وضع بذرتك، أم زكي الأزرع الذي كفلك ورباك؟

وإلى أي فرع أصبحت تنتمي الآن؟

أهلك الذين بالمنصورية، لا تعرف عنهم أو يعرفون عنك شيئًا، وأهلك الذين هنا مثلهم وألعن.

فلمن تنتمي إذًا؟

وكم فرنكا تملك الآن يا أستاذ؟ وهل هي قادرة على صنع إصبع أو حتى قُلاَمة ظفر لأحد يحبك مثلما كان جدك؟

لم أجد حلًا إلا أن أترك حالي ومالي هنا وأعود..

لا لأهلي الذين هناك.. إنما لبلدي..

للدنيا القديمة..

للشوارع القديمة..

- وواحد شاي يا عم لبيب بس يكون كشري وعلى ميَّه بيضة..

- وأزيك يا جلال، فين أيامك يا ابن الحلال؟ وإيه أخبار الدنيا معاك، وناوي بقى تقعد معانا هنا في الضاهر وللا هتعزل على مصر الجديدة..

- وإزي فلان.. بخير والحمد لله، طيب وفلان.. تعيش انت بس أولاده صلاة النبي عليهم، طيب إيه رأيك بقى نروح لهم بكره سوا بعد العصر وآهو بالمرة تعزيهم.. خلاص أتفقنا يا حاج عباس...

كنت مشتاقًا لهذه الدنيا وأود الرجوع إليها..

أرجع ليوم.. لسنة.. لآخر العمر.. لا أدري..

إنما أرجع..

أرجع..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فَاجَأْتُ أمي ذات يوم باتصال هاتفي من مطار أورلي..

- أهلًا يا جلال، فينك من زمان، خير!

- في الدنيا..

- متيجي تتعشى معانا الليلة، إحنا عاملين حفلة على القد في (مكسيم)، حاجه كده بمناسبة توقيع العقد بتاع شرم الشيخ وكلنا موجودين، خالك هارون وإيزاك ويعقوب وراشيل، كلنا كلنا.

- وخالي شمعون هو كمان معزوم؟

- شمعون! لا، شمعون مش جاي، محدش قال له.

- وأنا كمان مش جاي، هتعشى الليلة مع أم حسن.

- أم مين؟

- أنا كلها ساعة وهركب الطيارة على مصر.

- على مصر؟ أيه الكلام ده! يعني مقلتليش.

- خالي شمعون عارف ووصلني هو والشيخ منجي لحد باب المطار.

- شمعون والشيخ منجي! طيب..

ومضت برهة لا أنا تكلمت فيها، ولا هي، إلى أن جاءني صوتها:

- وأيه، مسافر نهائي وللا راجع تاني؟

- مش عارف.

- طيب وشغلك ومصالحك هنا لسه زي ما هي؟

- آه. لسه.

- تحب أحل محلك لحد ما ترجع، أشوف مصالحك مع شريكك اللبناني ده اللي اسمه.. هو اسمه أبو أيه؟!

- أبو شنب!

- تحب؟

- لا ماحبش.

وانقطع الاتصال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت صالة الانتظار تموج بصخب كبير، فبعد باكر المولد النبوي الشريف وأناس من هنا - من أبناء شمال أفريقيا بالذات - يودون خطف أرجلهم إلى بلادهم، يقضون يومًا أو يومين ويعودون.

السماعات تنادي على عشرات الرحلات..

الطائرة المتجهة إلى أكرا أو إلى داكار والدار البيضاء أو تونس العاصمة، كانت أذني ترهف السمع لهذه النداءات، وأول ما قالوا إلى القاهرة على رحلة مصر للطيران، حملت (الهاندباج) واتجهت إلى بوابة السفر.

كانت أول حقيبة أرتب محتوياتها ليلة الأمس..

بدأت بالبيجامة التي كان يرتديها جدي وقت أن مات، ثم بقميص رمادي بكم طويل كان أثيرًا لديه، والدبلة والساعة الچوڤيال، أما الطربوش فوضعته بعلبة كرتون مُقواه أمسكتها باليد الثانية..

أحببت أن أعود بأشيائه هذه..

أحفظها بدولابه القديم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صدر للمؤلف

أولًا: الأعمال الأدبية:

- لقمة العيش: مجموعة قصصية/الطبعة الأولى، دار النسر الذهبي، سنة 1994/الطبعة الثانية، دار النيل، سنة 2005/الطبعة الثالثة، دار سفنكس، سنة 2011/وقد فازت قصتان من هذه المجموعة بالجائزة الأولى لنادي القصة، عامي 1997، 1998.

- المسلم اليهودي: رواية/ الطبعة الأولى، دار النيل، سنة 2004/الطبعة الثانية، دار سفنكس، سنة 2009/الطبعة الثالثة، دار العين، سنة 2020/ وقد نالت هذه الرواية جائزة الدولة التشجيعية سنة 2005، كما صدرت ترجمتها الإنجليزية من الجامعة الأمريكية سنة 2013، بعنوان:

(Diary of a Jewish Muslim).

وقد نَفَدت هذه الطبعة وأعيد نشرها في طبعة جديدة سنة 2018، ضمن سلسلة (Hoopoe) الصادرة من الجامعة الأمريكية.

كذلك ترجمت الرواية إلى اللغة الألمانية، ونشرتها دار فيلتن (WELTEN) سنة 2017، وعنونت باسم

(ErschöpfteHerzen-Der Muslimische Jude).

- أيام الشتات: رواية/الطبعة الأولى، دار سفنكس، سنة 2008/وقد صدرت ترجمتها الإنجليزية من الجامعة الأمريكية سنة 2012، بعنوان:

(Days in the Diaspora).

- أحلام العودة: رواية/الطبعة الأولى، دار سفنكس، سنة 2012/الطبعة الثانية، دار العين، سنة 2020/ وقد صدرت ترجمتها الإنجليزية من الجامعة الأمريكية سنة 2017، بعنوان:

(Menorahs and Minarets).

- المليجي: رواية/الطبعة الأولى، دار سفنكس، سنة 2014.

- أيام لا تُنسى: رواية/الطبعة الأولى، دار العين، سنة 2018.

- قهوة حبشي: رواية/ الطبعة الأولى، دار العين، سنة 2019.

ثانيًا: الأعمال القانونية:

- السلطة في الفكرين الإسلامي والماركسي: دار النهضة العربية، سنة 1986. وقد حصل هذا المؤلَّف على جائزة أفضل بحث قُدم لكلية الحقوق/ جامعة القاهرة/ عام 1987.

- النظم السياسية والقانون الدستورى: مطبوعات جامعية، سنة 2001.

- القانون الإداري: مطبوعات جامعية، سنة 2001.

- المدخل للعلوم القانونية: مطبوعات جامعية، سنة 2002.

- الإدارة العامة: مطبوعات جامعية، سنة 2002.

- الأساليب الدولية لمكافحة التهريب والاتجار غير المشروع فى المواد المخدرة: مطبوعات جامعية، سنة 1995.

ثالثًا: ما كتب عن المؤلف:

- اللذة والمتعة/قرأة في سرد كمال رُحيَّم، دراسة للدكتور محمد علي سلامة: دار العين، سنة 2019.

- تقنيات السرد الروائي عند كمال رُحيَّم (روايات أيام الشتات وأحلام العودة والمليجي نموذجًا): رسالة ماچيستير بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة الأقصى/فلسطين/سنة 2016

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنــــاة

الفهرس..

عن الرواية..

إهداءٌ خاص

1

2

3

4

5

6

7

8

9

10

11

12

13

14

15

16

17

18

19

20

21

22

23

24
25
26
27
28
29
30
31
32
33
34
35
36
37
صدر للمؤلف

Notes

[←1]

إحدى قرى محافظة الجيزة.

[←2] *أو القائد إبراهيم نجل محمد علي باشا، وصاحب الفتوحات الكبيرة.*

[3→] *الخديوي عباس حلمي الثاني آخر خديوي في سلالة محمد علي باشا، وحكم مصر في الفترة من 8 يناير سنة 1892 إلى 19 سبتمبر سنة 1914.*

[4←] *أول رئيس للجمهورية التونسية بعد استقلال تونس عن فرنسا سنة 1956.*

[5←]

حي من أحياء باريس.

[6←]

(الإندوشين) هي الترجمة الفرنسية لما كان يسمى قديمًا بدولة (الهند الصينية)، والتي تغير اسمها الآن إلى (ڤيتنام). ففي الخمسينيات كانت هذه الدولة محتلة من فرنسا، وفي كفاحها لنيل استقلالها أشعلت حرب عصابات عنيفة مع الفرنسيين المحتلين الذين كانت قواتهم آنذاك تضم جنودًا من المغاربة والتوانسة والجزائريين والذين قتل عدد كبير منهم في هذه الحرب، نظرًا لأن القيادات العسكرية الفرنسية كانت تعمد إلى وضعهم في صفوف المواجهة ليلقوا هم الڤيتناميين بدلًا من الفرنسيين، ولذا بقيت عبارة (الإندوشين) تجرى على لسان أهل شمال أفريقيا المقيمين في فرنسا حتى أواخر السبعينيات للدلالة على الأعمال العنيفة المهلكة.

[7←] *الچيتان وأختها الجلواز، نوعان من أنواع السجائر الفرنسية الشعبية.*

[←8]

جامعة القاهرة حاليًا.

[9←]

مدينة ساحلية بجنوب فرنسا، تتميز بتلالها الخضراء ومناظرها الطبيعية الخلابة، ويؤمها السيَّاح صيفًا وفي الربيع.

[←10] *الكلوشار هؤلاء جماعة من هوام الناس تركوا سطح الأرض ونزلوا للعيش في محطات مترو الأنفاق بباريس، ينامون ويأكلون ويشربون على الأرصفة وفي الزوايا والأركان. وكنا نراهم ممددين أغلب الوقت بملابس كالهلاهيل، ونتأفف من روائحهم وتبادلهم أقذع الشتائم، ناهيك عن زجاجات الخمر الرديئة التي لا يكف بعضهم عن الشرب منها حتى يفقد صوابه ويحدث ضجة لا تطاق..*

[←11]

تيودور هرتزل أو بنيامين زائيف وفقًا لاسمه العبري، صحفي يهودي نمساوي، ولد في بودابست بالمجر في 2 من مايو سنة 1860 وتوفي بالنمسا في 3 من يوليو سنة 1904، وهو الذي أسس الحركة الصهيونية المعاصرة التي نجم عنها نشوء دولة إسرائيل.

[12←]

حزب أو جماعة (حدتو) التي تأسست في مصر، بمبادرة من أحد اليهود الأثرياء يدعى هنري كورييل.

[13←]

الرئيس السوري الذي أقيمت في عهده الوحدة بين مصر وسوريا سنة 1958.

[14←] *سياسي مصري مُوَال للإنجليز اغتيل سنة 1946، وقد اتهم الرئيس محمد أنور السادات في هذه القضية ضمن آخرين.*

[15←]

كلمة عبرية تعني عقد الزواج عند اليهود.

[←16] *كلمة عبرية هي الأخرى ترمز إلى الخطبة ومراسمها.*

[17←]

أحد المعالم السياحية بباريس، وبها متحف الإنسان الذي عولجت به مومياء الفرعون الشهير رمسيس الثالث.

[←18]

مقبرة أو مثوى العظماء، مدفون بها رجالات فرنسا الكبار، أمثال ڤيكتور هيجو وفرانسوا ڤولتير وإميل زولا وبودلير، وينظر إليها على أنها مزار سياحي هام.

[19←]

حديقة عامة بباريس توليها البلدية هناك اهتمامًا كبيرًا، لدرجة أنها أصبحت على قوائم الأماكن التي يرتادها السيَّاح.

[←20] *رئيس الحزب الشيوعي الفرنسي آنذاك.*

[←21] *أسماء لقرى بجنوب لبنان.*

[←22] *أحد عملاء إسرائيل الكبار، انشق عن الجيش اللبناني وكون ميليشيات عسكرية استوطنت بجنوب لبنان لخدمة المصالح الإسرائيلية على حساب أبناء الجنوب.*

[←23]

هؤلاء الشباب هم نواة حزب الله، غير أن أبا الشوارب لم يكن يعرف وقتها هذا الاسم الذي أطلقوه على أنفسهم بعدها بما يقرب من عامين، فقد كان الأمر مجرد إرهاصات تحدث في الخفاء لإنشاء هذا الحزب كانت تصل أخبارها إلى اللبنانيين المقيمين بفرنسا؛ خاصة منهم أهل الجنوب.

[←24] *أي شارع القاهرة، وقد سمي بهذا الاسم تكريمًا لقاهرتنا، قاهرة المعز.*

[←25] *موريس راڤيل وكلود ديبوسي، موسيقيان فرنسيان اشتهرا بموسيقاهما المستوحاة من الطبيعة وسحر الشرق وغابات أفريقيا وحياتها البدائية.*

[←26] بيتر تشايكوڤسكي، موسيقي روسي شهير.

[←27]

الأكواخ الخشبية.

[←28] *أسماء لمدن وقرى فلسطينية نزح عنها أهلوها قسرًا.*

[29←]

أو عيد (البياح) ويقام كذكرى لخروج بني إسرائيل من مصر بقيادة موسى (عليه السلام).

[←30] *(يوم كيبور) وهو يوم الصوم الوحيد الذي أقرته التوراة، وفيه يصوم اليهود لمدة خمسة وعشرين ساعة متصلة، ويبتهلون إلى الله أن يغفر لهم ذنوبهم وخطاياهم.*

[←31]

(عيد البوريم) ويقام في بداية الربيع احتفالًا بخلاص اليهود الذين كانوا مهددين بخطر الإبادة في ظل الإمبراطورية الفارسية، ويتميز هذا العيد بطابعه المرح وارتداء الأزياء التنكرية وشرب الخمور حتى من المتدينين، وإثارة الضوضاء الشديدة، خاصة عندما يذكر اسم (هامان) الذي كان يقمعهم وينزل بهم العذاب.

[←32]

(عيد شفعوت) ويقام للتذكرة بنزول الوصايا العشر على سيدنا موسى، وتجلي الله عز وجل له بطور سيناء.

[←33] *(عيد الحانوكا) وفيه تقاد الشموع ثمانية ليالٍ، بمناسبة انتصار اليهود على الملك اليوناني (أنيوخوص الرابع).*

[←34]

واسمه الحقيقي (الميرزا) عباس بن حسين علي النوري، ووالده (الميرزا) حسين المولود بطهران في 12 من نوڤمبر سنة 1817 هو مؤسس المذهب البهائي، وكان يلقب (ببهاء الله)، أما (الميرزا) عباس أو (عبد البهاء) فهو الذي بعث الحياة في هذا المذهب بعد وفاة أبيه وجمع له الأتباع والمريدين، وقد دفن وأصبح له ضريح أو مقام على سفح جبل الكرمل بمدينة حيفا حيث المحفل العالمي للبهائية أو مركزها الأساسي الذي يؤمه البهائيون من كافة أصقاع العالم.

[←35] *أحد فناني الكوميديا الفرنسية الكبار.*

[←36] *أي (الجسر التاسع) وهو أحد الجسور الشهيرة على نهر السين.*

[37←] *مركز ثقافي ضخم مشيد كله من الحديد على غرار برج إيفل، وقد أُطلق عليه هذا الاسم تخليدًا لذكري (چورچ بومبيدو) رئيس الجمهورية الراحل..*

[←38] *النشيد الوطني الفرنسي.*

[←39]

يقصد الجد الأعمال الإرهابية التي قام بها بعض اليهود المصريين من الصهاينة بتنسيق وتعليمات من المخابرات الحربية الإسرائيلية، حيث فجروا مقر البوستة الرئيسية بالإسكندرية ومحطة سكك حديد مصر وكُلًّا من المركز الثقافي الأمريكي والمكتبة الأمريكية، فضلًا عن عدد من دور السينما، وقد سميت هذه العلمية فيما بعد بعملية سوزانا أو فضيحة لافون.

[40←]
سوق شعبية شهيرة بباريس مخصصة لبيع وشراء الكراكيب والأشياء البالية.